مؤلفات
محمود
كامل



الحبّ الأحمر

وقصص أخرى



مؤلفات
محمود
كامل

٣

الحبّ الأصفر

وقصص أخرى

مؤلفات
محمود
كامل

الحبّ الأصفر

وقصص أخرى

د. محمود كامل



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٣

مقدمة

صدر الجزء الأول من السلسلة لقصص الدكتور محمود كامل بعنوان « حياة الظلام وقصص أخرى » وقد ضم قصة طويلة وعشر قصص قصيرة ، كما صدر الجزء الثانى بعنوان « أرواح بين السحب وقصص أخرى » وضم قصة طويلة وسبع عشرة قصة قصيرة . أما هذا الجزء الثالث « الحب الأصفر وقصص أخرى » الذى بين يدى القارىء فانه يضم قصة طويلة وخمس عشرة قصة قصيرة .

وقد اخترنا القصة الأولى « الحب الأصفر » التى

يحمل الكتاب أسمها من كتاب « الهاربون من الماضى » الذى صدر فى عام ١٩٥١ والذى قدمه المؤلف بهذه الكلمات :

« ان نساء ورجال هذه القصص عاشوا ماضيهم ـ فى الحياة الواقعة ـ يحملون أسماء أخرى غير الاسماء التى أطلقت عليهم فى هذا الكتاب · فى أماكن أخرى غير الأماكن التى أشير اليها فيه · وقد عمل كل منهم بوسيلته الخاصة على الهرب من ذلك الماضى · واذا كان من حق القراء أن يطلعوا ـ للعبرة ـ على هذه الألوان من الحياة المصرية منذ بضعة أعوام فان من حق هؤلاء الهاربين من الماضى ان يقدم ماضيهم فى الأطار الذى يحفظ له حرمته ·

وقد تحولت « الحب الأصفر » الى قصة اذاعية أذاعها « صوت العرب » ·

أما بقية القصص فقد راعينا فى اختيارها الترتيب الزمنى لصدور الكتب التى ضمتها · فاخترنا قصة «الراقصة المحبوبة» من كتاب أول يناير الذى أصدره المؤلف فى أول يناير عام ١٩٣٦ ـ وقرر فى مقدمته :

« بوجوب العناية عناية خاصة بالقصة المصرية · أيا

كان شكلها . مسرحية أو قصة طويلة . أو قصيرة .
ويؤلمنى أن أقول هنا أن هذه العناية لاتزال ضعيفة
واهنة . وقد يكون للظروف السياسية أثرها فى ذلك .
الا أن على الجيل الجديد من الكتاب الشبان أن يوقن بأنه
متى استقرت هذه الظروف فالأدب الأبقى هو أدب
القصة . ولذا أرجو أن تظهر كفاءات قصصية جديدة .
نعجب بها . ونهتف لها ... أما اسم الكتاب فلم أرهق
نفسى فى اختياره . لقد أطلقت عليه اسم أول يوم من
أيام العام الجديد لأننى كنت قد اعتزمت أن يصدر الكتاب
فى هذا اليوم الذى يحتفل فيه العالم بدفن آلام عام كامل
واستقبال آمال عام آخر . وفى كل قصص هذا الكتاب
سيجد القراء صور مختلفة لآلام وآمال كل منهم وصدى ـ
أرجو أن يكون صادقا ـ لعواطفهم .

وقد أذاعت «الاذاعة البريطانية» «قصة الراقصة
المحبوبة» فى برنامجها العربى عام ١٩٦٨ .

واخترنا من كتاب « ٣٠ » قصتى « شقراء كفر
الدوار » و «غادة أبو حمر» ، والقصتان تصوران جوانب
خاصة من حياة الريف المصرى . وبالذات منطقة مركز
كفر الزيات وهى منطقة عمل المؤلف بها فى مستهل
حياته بعد تخرجه فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة محققا

فى الشرطة ، وقد أثارت قصة «غادة أبو حمر» اهتمام المستعرب الألمانى «أوتوشبيس» عميد معهد الدراسات الشرقية بجامعة بون .. فلما نشر دراسته عن هذه القصة مع قصص أخرى نشرت للمؤلف عام ١٩٦٢ لفتت هذه الدراسة انتباه دار النشر الالمانية «ايردمان» فترجمتها الى الالمانية وضمتها مجموعة القصص المصرية التى أصدرتها هذه الدار فى عام ١٩٧٤ ، أما القصة الثالثة التى اخترناها من كتاب «٣٠» فهى قصة وضحية أخرى.

ومن كتاب «أنت وأنا» الذى صدر فى عام ١٩٣٧ اخترنا قصتى «ابنة الشارع» و «لك يازمان العجب» وقد صدره المؤلف بكلمة جاء فيها :

« بدأت أترجم بعض قصائد كتاب «أنت وأنا» للشاعر الفرنسى «بول جيرالدى» ولكننى اذ أنجزت الجزء الأكبر من هذه الترجمة تبينت أن القارىء المصرى لم يعتمد بعد على أن يقرأ كتابا كاملا لايشتمل الا على ترجمة لشعر أجنبى ، سرعان ماتعدلت الفكرة ففضلت أن أخرج هذا الكتاب مستعيرا اسمه من «بول جيرالدى» ، محاولا أن أجعله حفرية أخرى من الحفريات التى أقدمت عليها لخلق أدب قصصى مصرى جديد ..

واخترنا قصة «قبلة ذات ليلة» من كتاب «الرجال

منافقون» الذى أصدرته دار المعارف فى عام ١٩٤٢ ..
وقد قرر المؤلف فى مقدمته :

التفاوت الكبير بين الشاب المصرى والفتاة المصرية الجديدة يبدو فى أن الحياة الاجتماعية العصرية قدطعمته هو - بنوع من النفاق . صقلته سهرات الليل مع فتيات الهوى وأحاديث المقاهى والنوادى مع الأصدقاء ذوى المغامرات الغرامية العديدة . بينما - هى - رغم المظهر العصرى الخارجى لازالت شرقية فى صميم تفكيرها . وميولها . وانفعالاتها . ومع ذلك فان التطور الاجتماعى يجمع بينهما فى أكثر من مناسبة . وأثر هذا التفاوت بالغ الخطر . لأنه به تتميز هذه الحلقة من حلقات تاريخنا الاجتماعى . ومن حقه أن يسجل فى أكثر من قصة . يثبت فيها أن مظاهر الحياة المتفرنجة التى ترى اليوم فى مصر ان تأثرت بها طبيعة الشاب المصرى فان الفتاة المصرية لاتزال بعيدة عنها . بل أنها - أحيانا - ضحيتها . لانها تأبى ، محققة ، أن تسايرها . أو تخضع لاعتباراتها ومع ذلك فهى تعيش على هامشها . ولذلك لم تنج من شرورها .

-ومن كتاب «حطام امرأة» الذى أصدرته دار المعارف فى نفس العام أى عام ١٩٤٢ ، اخترنا قصة « راقصة ماتت » .

ولما أصـــدر الدكتور محمـــود كامل فى عام ١٩٤٣ الطبعة الأولى من كتابه «لاعبات بالنار» الذى اخترنا منه قصة «نصف أرملة» وهى نفس قصة «انعام» التى ضمها ذلك الكتاب عاد المؤلف فذكر فى مقدمة الكتاب :

« بعض هذه القصص وقع ، وبعضـــها على وشـــك الوقوع مابين يوم وآخر ، وفى كل قصة منها فتاة لعبت بالنار، فمنهن من احترقت أطراف أناملها ، ومنهن من التهمتها النار فتركتها هشيما ، وهؤلاء اللاعبات بالنار نموذج أليم لتطـــور الحياة الاجتماعية فى مصر ، ومن الحق أن يوصف هذا التطور ، وأن تضم صوره المختلفة صفحات كتاب ·

وقد أذاعت الاذاعة البريطانية قصة نصف أرملة فى برنامجها العربى عام ١٩٧٥ ·

ومرة أخـــرى · عاد الدكتور كامل عندما أصــدر كتابه «القافلة الضالة» فى عام ١٩٤٦ ، يوصف قصص هذا الكتاب الذى اخترنا منه قصة «شبح اللقاء» بأنها :

مجموعة صور انتزعت من الحياة الاجتماعية المصرية التى أصبحت بعد أن تسربت اليها البدع الأوربية ترقص على فوهة بركان متأجج ···

هذه القصص تصور خليطا من نساء ورجال ضلوا

سواء السبيل ، فاهتدوا آخر الأمر حينا ، أو طال ضلالهم أحيانا ، وكل ماأرجوه من نشر هذه المجموعة أن يتبين الناس من آثار أقدام « القافلة الضالة» طريق الهدى من طريق الضلال ٠

واخترنا من كتاب «فتيات منسيات» الذى صدر فى نفس العام ، أى عام ١٩٤٦ ، قصة «المتشردة» هى ــ كما يحس القارىء ــ ومن وحى فترة قضاها المؤلف فى باريس

ولما تنازل الدكتور محمود كامل عن مجلته «ال ٢٠ قصة» لشركة التوزيع المصرية أصدرتها هذه الشركة باسم «كتب للجميع» صدر أول عدد من هذه المجلة فى عام ١٩٤٨ وقد ضم مجموعة قصص لمحمود كامل باسم «آبار فى الصحراء» قدمها المؤلف بهذه الكلمات :

حياة نساء ورجال هذه القصص صحراء تتجمع رمالها حينا فى كثبان عالية ثابتة ، وتذروها الرياح العاصفة حينا آخر فتتبدد وتتلاشى ٠ وفى هذه الصحراء آبار قد تنفجر ماء قراحا يروى ٠ ويحيل الصحراء الى واحة نضرة ٠ أو ينضب ماؤها فتتحول الواحة الى جحيم، وغالبا ماتبدو هذه الصحراء للرائى ، من بعيد ، وقد غمرت رمالها مياه آبارها فاذا اقترب منها تبين أن مياه الآبار فى الصحراء ٠٠٠ سراب ٠

وأخيرا فقد اخترنا من كتاب الهاربون من الماضى ـ الى جانب قصة الحب الأصفر التى بدأنا بها هذه المجموعة قصتى «ابتسام الزهر» و «امرأة ذات صيف» وأولاهما من وحى رحلة للمؤلف فى نيويورك والأخرى من وحى رحلة له فى جنوب فرنسا ٠

***

وعلى امتداد الأعوام العشرين الأخيرة ٠٠ أى منذ عام ١٩٥٦ ، بدأ النقد الأدبى فى العالم العربى يعنى عناية خاصة بالقصة المصرية ٠ وتطورها ٠ فوضعت أكثر من رسالة علمية عن هذا الموضوع ٠ لم تخل واحدة منها من تسجيل أثر المولف فى هذا التطور ٠

وقد عنى الناقد الأدبى علاء الدين وحيد فى دراسته التى نشرتها مجلة الثقافة فى خريف ١٩٧٤ المؤلف بتحليل ثلاث من القصص التى تضمها المجموعة التى بين يدى القارىء وهى قصص «وضحية أخرى» و «ابنة الشارع» و «مطربة ماتت» ، ثم عقب على ذلك التحليل بأن المؤلف :

كان أشهر من كتب عن المرأة والعلاقات الوجدانية فى القصة المصرية ٠٠ كان القراء يتخاطفون أعماله ٠ ويفتنون بما يرسم من صور حواء ٠٠٠٠ ولأن رائدنا

كاتب أصيل ، ولأنه كان يصور عصره ، فلم تحل ألوان لوحاته بل بقيت كما كانت ثابتة تملك أن تمتع الاجيال التالية ٠

كما عنى بتحليل قصتى «الراقصة المحبوبة» و «لك يازمان العجب» اللتين تضمهما هذه المجموعة أيضا وعقب عليهما بأن :

اهتمام محمود كامل بالريف جعل لحوادثه نصيبا من اهتمامه ٠ كما فعل فى أكثر من قصة مثل « الراقصة المحبوبة» ٠٠٠٠

وشىء آخر كان يتمثله قاص الجيل الماضى التقدمى ـ بالمعنى الدقيق للكلمة لا الشعارى أو العقائدى ـ فى المرأة ، عندما يجعلها أيضا فى كثير من الأحيان نموذجا للمقاومة ٠٠٠ فلا شك أن محاولة تحرر المواطن المصرى بشكل عام من قبضة الاحتلال والقيود التى يفرضها النظام الاقطاعى على حركته كانت هى الدافع على اسقاط كتاب القصة لروح النضال والمقاومة على أغلب هذه الشخصيات النسائية ، وبدت المحاولة فى أكثر أجزائها غير مفتعلة ، واستطاعت أن تستوعب النبض الثورى الذى كانت تفيض به الروح المصرية

وهى ترنوا الى الاستقلال ، بلا مبالغة ، .. كما فى قصة «لك يازمان العجب» .

وفناننا من أوائل القصاص الذين التفتوا الى الأقاليم في وقت كانت تبدو فيه الأرياف كأنها خارج الحدود ..

ولعل عمل محمود كامل بالمحاماة جعله يتعرف على العديد من المدن والمراكز داخل القطر ... الزقازيق وههيا وبسيون وغيرها . وقد استطاع أن يصور الكثير من ملامحها فى قصصه .

وفى تحليله لقصة « غادة أبو حمر » التى تضمها المجموعة التى بين يدى القارىء يقرر الناقد عن المؤلف:

ان عين النقد لم تفارقه ، بل ربما تأكدت فى هذا الموضوع بالذات الذى يستوعب الكثير من شكوى الجماهير أو هموم المواطنين أو اهمال الادارة ، وفى هذه الناحية نجد أن قاصنا أحد شهود عصره الذى التقط قلمه ملامح مجتمعات الأقاليم سواء كان بشكل سريع أو غير سريع . ولكن فى كلتا الحالتين كان يتعاطف مع هذه الجهات النائية بالنسبة الى العاصمة الكبيرة ، مصورا ما تقاسى مجتمعاتها .

الحب الأصفر

الحب الأصفر

« عندما أصدرت محكمة القاهرة الحسبية حكمها بالحجر على مديحة كريمة المرحوم على عصمت كان طالب الحجر زوجها الدكتور أحمد رشدى يستمع الى الحكم وهو يجهش بالبكاء ٠٠ »

١

كان زواجها منه زواج حب عنيف ٠٠ كان أحمد لايزال طالبا فى السنة النهائية بكلية الطب ، وشاءت الظروف أن يلتقى بها ذات ليلة فى منزل ابنة خاله التى كانت تزاملهـا اذ ذاك فى الدارسـة بكلية الاداب ولم تلبث مديحة أن لاحظت أن أحمد قد بدأ يفضل انتظار الترام بعـد خروجه من الكلية ، عنـد المحطة المواجهة لمنزلها بشـارع قصر العينى الذى كانت تقيم فيه مـع

والدتها بعد وفاة أبيها وكانت فى بادىء الأمر تلاحظ بقاءه على الافريز الذى يتوسط الطريق الواسع مدة طويلة ، وهو يتعمد النظر الى كل ترام قادم والتظاهر بعدم امكانه الصعود اليه لازدحامه بالركاب ، حتى يتسنى له اطالة البقاء مدة أخرى ·· كانت تلاحظ ذلك من خلف «شيش» نافذة غرفتها المغلقة دون أن تشعره بأنها ادركت تظاهره الساذج بأن كل قطارات الترام المارة أمام منزلها محتشدة بالركاب · وأخيرا تجرأت فكانت تفتح النافذة ، ولاتكاد تطل منها وتراه حتى يتصاعد الدم الى وجهها فتغلقها وهى بادية الارتباك ··

ولما أتم أحمد دراسة الطب ونال اجازته الجامعية تقدم الى والدتها بطلب يدها فوافقت · وتفاهما على اطالة مدة الخطبة حتى يستقر عمله فى العيادة التى اعدها بأحدى العمارات الجديدة فى شارع شبرا ·

وأقبل أحمد ذات يوم ففاجأ والدتها بأنه استأجر الشقة المجاورة لعيادته ورجاها أن تتم اجراءات زواجهما وأخبرها بأنهما سيسكنان بيتهما الجديد ، بعد أن يقضيا شهر العسل بعيدا عن القاهرة ·

وسألته :

ــ اين ياأحمد ؟

ـ فأمسك بيدها ودقق النظر الى عينيها فى وله ، وزفر زفرة حارة طويلة ثم قال :

ـ لن أقول لك يا « ميمى »

ـ كيف ؟

ـ هكذا . غدا تعرفين .. أعدى حقيبتك : « بيجامة واحدة» وفرشة لغسل الاسنان .

وخيل اليها أنه يسخر فقالت :

ـ وعلبة « بدره» وزجاجة عطر ..

ولكنها شعرت اذ ذلك بأصابعه تضغط على يدها فى حركة عصبية وهو يقول :

ـ أبدا .. لن تحتاجى الى شىء من ادوات التجميل فقطبت جبينها وقالت وهى لاتزال تعتقد أنه يسخر .

ـ لايمكن . كيف أخرج بدون أن .. فقاطعها

ـ لن يراك أحد . أنت وأنا والبحر والرمل ...

ـ حتى شاطىء الاسكندرية يستدعى ثوبا من أثواب السهرة ليلا . كما أن جميع المصطافات فيها لايهملن التجمل عند الخروج .

ـ لن نسافر الى الاسكندرية ولا بورسعيد ولا رأس البر

ـ مرسى مطروح ؟

ـ ولا أى مكان أهل بالنـاس أو يحتمـل أن يؤمه الناس

٢

وعبثا حاولت يومئذ أن تعرف اسم المكان الذى رأى احمد أن يقضيا فيه شهر العسـل وأعدت حقيبتهـا فى الصباح الباكر ، وأقبل أحمد بسيارته فصحبها بعد أن ودعـا والـدتها ثم انطلقت بهما السـيارة فى طـريق السويس ٠

وعلمت ، بعد ان اختفى شبح القاهرة من خلفهما كل شيء ٠٠ علمت اين قرر احمد أن يعيشا أيام وليالى زواجهما الأولى !

وغمرها فرح هائل ٠ لانها تبينت أنه يشاركهانفس الاحساس والخيال !

فى مكان لايحتمل أن زوجين مصريين قد فكرا فيه، أويمكن أن يفكرا فيه لقد قضيا شهر العسل فى شدوان

جزيرة صغيرة من جزائر البحر الأحمر ، سافرا اليها على ظهر طوافة من طــوافات مصلحة الموانى والمنائر التى تجوب سواحل هذا البحر فى مدد معينة من كل سنة لكى تنقــل الطعــام والمــاء والبريد الى حــراس المنــائر المصرية ...»!.

ان تلك الطــوافات الصــغيرة تغادر السويس فى رحلة لاتقل عن شهر كامل ، وهى تمر على المنائر المصرية المتعددة ، المقامة على طول ساحل البحر الأحمر ، والكثير منها فى جزر تبعد عن الساحل ، جزر صــخرية وعرة لايقطنها الا ذلك الحارس المسكين ومساعده ، يتناوبان العمل أثناء الليل لهداية السفن المارة فى ذلك البحر الموحش ، وذلك الحارس يعيش تسعة أشــهر من العام ينتظر الطعام والماء والبريد مرة فى كل شــهر ، فاذا مرت الطوافة وتركته ودعها وهو دامع العين ، لانه يعلم أنها لن تعــود اليه الا فى مثل ذلك اليوم من الشــهر التالى . من أجل هــؤلاء الحــراس يعلن مدير مصلحة الموانىء والمنائر قبيل كل عيد من كل عام ، رجاءه أن يتفضل الناس الذين يعيشون فى هــذا العــالم المرح الصاخب باهداء الكتب القديمة والمجلات والاسطوانات لهم ليشعروا بأن صلتهم بالعالم لم تنقطع ؟

ومع أولئك الحــراس .. أولئــك الآدميين الذين يعيشون بعيدا عن هذه الدنيا ، قضيا شهر العسل كأسعد عاشقين . سعادة قصر خيال القصصيين عن تصورها . قبطان الطوافة أفرد لهما غرفة خاصة فى سطح الباخرة بعيدا عن حركة العمل ، بعد أن علم أن أحمد قد حصل على اذن خاص من مدير المصلحة بالقيام بأبحاث علمية فى تلك النقطــة من البحــر الأحمر ليعدها للنشر فى احدى المجلات العلمية .

ومرت «الطوافة» فى جولتها التقليدية على المنائر واحدة بعد الأخرى ، وألقت مراســيها ذات يوم أمام منارة «شدوان» وأقبل القبطان ليخبر أحمد بأنه يستطيع أن يقضى عشرة أيام فى الجزيرة التى بها المنارة ريثما تتم الطوافة رحلتها الى أقصى السواحل المصرية ثم تعود، وعرض عليها أحمد الفكرة فوافقت فرحــة وسرعان ماتبينت أنه كان قد أعد كل شىء ، كأنه كان موقنا من أنها سترحب بالحياة فى تلك الجزيرة الصــخرية عشرة أيام بعيدا ، حتى عن أهل «الطوافة» فقــد رأته يتقدم قبل هبوطهما الى مخزن «الطوافة» ويخرج حاملا أجزاء «خيمــة» من الخيــام التى أعــدت خصيصا لرحــلات الصحارى .

وحاول بعض البحارة أن يساعده فى حملها فأبى، وأشار اليها ، فحملت بعض أجزائها المفككة وحمل هو البعض الآخر وودعا أهل «الطـوافة» ثم هبطا جـزيرة شدوان • وهناك على تلك الأرض الصخرية ، بعيدا عن الساحل الرملى وسط ذلك البحـر الموحش قضت هى وأحمـد عشرة أيام كاملة •• كانا يأويان الى الـكوخ ليناما عندما يبدأ حارس المنارة عمله الليلى • فاذا بدأت خيـوط الفجـر الأولى تضىء الأفق الممتد الى مالانهاية استيقظا من النوم واستقبلا يومهما بقبلة طويلة ، وقد تجمعت طيور البحـر أسرابا أسرابا وأخـذت ترفرف بأجنحتها الطـويلة فـوق الكوخ المنعزل كأنهـا تحيى الضيفين العاشقين اللذين اكتشفا تلك البقعة النائية !

وسرعان ماتقفز هى فتخلع ثوب النوم الذى شـاء أحمد ألا تحضر غيره معها ، وترتدى ثوب البحر ثم تعدو الى الماء الذى لم يكن يبعـد عن الكوخ بأكثر من بضـعة أقدام ، فتسبح ريثما يعد أحمد القارب الصغير ــ الذى اعتاد حارس المنارة أن يسـتخدمه فى وحـدته لصـيد السـمك من البحـر القريب ــ ويضـع فيه السـنارة و (الطعم) وهكذا يقضـيان ساعات داخـل ذلك القارب وهمـا بثوب البحـر تحت أشعة الشمس المحـرقة ، ثم

يعودان الى الجزيرة وقد حملا صيد اليوم فيوقدان تحته ويعـدانه للأكل ويدعـوان حـارس المنارة ليقاسمهما الطعام ، فاذا انتهيا عمـد الحـارس العجوز الى وضـع اسـطوانة على «فونوغـراف» مهشـم كان يحتفظ بـه فيستمعون الى بعض الموسيقى ويتجاذبون أطراف حديث قصير ٠

ثم تغرب الشمس ويهبط الظلام فيصافحهما الحارس مودعا ويصعد بخطاه الرهيبة الى منـارته ويعودان الى كوخهما ليقضيا الليل ٠٠

عشرة أيام اختلساها من الدهـر اختـلاسا ، لم يحاولا مرة ، وهما يتبادلان القبل ، أن يتلفتا خشية أن يراهما أحد ، لانهما كانا واثقين من أن العالم قد خلا لهما ٠ وحدهما ، لم يشعرا بشيء من شرور الدنيا ، كل شيء كان يبتسم لهما ٠ الحارس العجوز كان يبتسم كلما رآهما ، كانا بالنسبة له كحلم من أحلام اليقظة الجميلة ٠٠ والطيور البيضاء كانت تحـوم على مقـربة منهما ولاتنفر ، كأنهـا أيقنت من أن هـذين الآدميين اللذين اختارا ذلك المكان النائي لايمكن الا أن يكونا من الدعة بحيث لايخشى بأسهما اذا دنت طيـور البحر منهما ٠٠ حتى البحر الموحش كان يبتسم لهمـا ٠٠ كانت أمواجه

ترتفع من بعيد أثناء الليل فترغى وتزيد ·· حتى اذا
وصلت الى الشاطىء الذى قام كوخهما على القرب منه
تكسرت وانحسرت ، بعد أن تكون قد اجتاحت العشب
واقتلعت فتات الصخر المدبب ومهدت الطريق تحت
أقدامهما لحمام الصباح ·· والسمك ·· الذى كان
يتجمع حول قاربهما بكثرة ، ويفتح فاه ليتلقى «الطعم»
كأنه يستسلم للموت فداء الضيفين العاشقين ويشفق على
أناملهما من أن يدميها الجهد الشاق فى مطاردته وصيده
···· ثم أعادتهما الطوافة الى العالم بعد شهر
العسل ··

٣

وبدأت حياتهما الزوجية فى البيت ، كان أحمد قد
أعده فى شارع شبرا · فخصص ثلاث غرف للعيادة وأربع
غرف لسكنهما ولاحظت هى أن زوجها قد انهمك انهماكا
شديدا فى عمله ، وخيل اليها فى بادىء الأمر أنها مغالية
فى تقدير ذلك · ولكنها تبينت فعلا أنه كان لايكاد
يعطيها من وقته الا المدة اللازمة لتناول الغذاء · ثم لم
يلبث بعد بضعة أسابيع أن فاجأها بأنه تعاقد مع احدى
الجمعيات الخيرية على أن يتولى الاشراف على مستشفاها فى

المرج ساعتين فى اليوم ، وانه اختار أن يكون ذلك فى منتصف النهار لكى لايتعطل عمله فى عيادته الخاصة ·

ولم تعد تراه الى جانبها أثناء الغداء ·

وأحست مديحة أن زوجها أخـذ يبتعد عنها شـيئا فشيئا · اختطفه عمله اختطافا ، فكان يستيقظ الساعة السابعة صباحا ليتناول طعام الافطار مسرعا ، وهو مهتم باتمام ارتداء ثيـابه ، ثم يسرع الى ادارة مجلة طبيـة عهدت اليه احـدى دور النشر بالاشراف على تحـريرها ويعود قبل الظهر فيدخل الى عيادته مباشرة ويظل منهمكا فى مقابلةمرضاه والرد على المحادثاتالتليفونية وتحديد زياراته فى المساء حتى الساعة الثانية ، ثم يخرج دون أن تراه فى معظم الاحيان لكى يؤدى عمله فى مستشفى المرج ويعود فى المسـاء الى العيـادة ليبقى حتى الساعة الثامنة ، فاذا لم يكن مدعوا لحضور أحد الاجتماعات أو الاستماع الى احدى المحاضرات ، دخل الى المنزل ليخلع ثيابه ويتناول كتـابا من تلك الكتب الطبية الضـخمة فيتصفحه حتى يغلبه النعاس فينام ·

واحتملت تلك الحيـاة ·· احتملتها بضعة شـهور قاومت ·· ولكن أعصابها أرهقها طول الاحتمال ··· وذات مساء رأته يعود الى المنزل فى السـاعة العـاشرة

ليضيء المصباح الأزرق الصغير الموضوع على مكتبه ، وينكب على الكتابة دون أن يسألها عما اذا كانت قد انتظرته لتناول العشاء معه أو لم تنتظر ، فصارحته :

ــ وأنا ياأحمد ألا تعنى بى على الأقل عنايتك بمرضاك وكتبك ومحاضراتك ؟

ورفع أحمد رأسه من تحت المصباح الأزرق فى بطء وابتسم ، ثم أشار الى خطاب كان قد ورد اليه من مجلة طبية انجليزية ترجوه موافاتها ببحث عن تجاربه فى جراحة عظام الأطفال ثم هز رأسه وعاد الى الكتابة ٠

تذكرت مديحة اذ ذاك ، وهى تشاهده خلف المصباح وسط ظلام الغرفة ليلة أحس بهما حارس المنارة وهما يتجولان بأقدامهما العارية على أرض الجزيرة ، فأطل من أعلى بناء المنارة وحياهما بيده ثم هز رأسه وعاد الى تحريك الكرة الزجاجية التى تحيط بمصباح المنارة ٠

وترقرقت الدموع فى عينيها فغادرت الغرفة وأسرعت الى غرفتها فأغلقت بابها خلفها واستسلمت للبكاء ! لقد فقدت أعصابها ٠٠

ولكن معاملة أحمد تغيرت عندما علم منها أنها ستصبح أما عما قريب ، فكان يحرص على تناول الغداء معها فى المنزل ٠ وكان يتحدث بالتليفون مرة أو مرتين

فى اليوم من الخـارج ليطمئن على صحتها ولاحظت أنه اعتذر بضع مرات من عدم حضور اجتمـاعات الجمعية الطبية ليظل الى جانبها

فلما رزقت بابنتها نعيمة نشب خـلاف حاد بينها وبينه ٠ لأنه ألح فى أن تقوم هى بارضاعها باعتبار أن ذلك أصح للطفلة ، وأبت هى لان فترة الوضع أرهقت أعصابها وأضعفت صحتها وفجأة صرخ فى وجهها ٠

ـ هذا الكلام لا تقوله أم تحب ابنتها ، اننى طبيب وأستطيع أن أقدر ما اذا كانت صحتك تسمح بارضـاع الطفلة أو لاتسمح ٠ وهاأنذا أقول لك ان الواجب يقضى عليك بألا تتركيها لاهمال المرضعات ٠

واستجمعت قواها ثم أجابته :

ـ أعـرف انك طبيب ، ولكنك لكى توفر أجـر المرضعة ، تريد أن تفهمنى أن قواعد الطب تقضى بألا يتولى ارضاع طفلتى سواى !

وحملق أحمد بعينين ذاهلتين فى وجهها ٠٠ كأنه لايصدق أذنيه ٠٠ حاول أن يقول لهـا شيئا ٠٠ ولكنه فضـل أن يدير ظهره وأن يغـادر المنزل دون أن ينطق

وقبل أن يعود فى الظهر كانت المرضعة قد حضرت الى المنزل •

ولكن ذلك الخلاف كان قد ترك أثرا أليما ••• جارحا • شعرت هى بعده كأن شيئا من كيانهما قد تفتت وأخذ ينزف •••

وانقضت بضعة شهور ، ثم طلبت الى أحمد أن يحضر لنعيمة مربية تتولى العناية بها منذ طفولتها ••

فاستجاب لرغبتها وأحضر المربية ، ولكنه ذهب الى والدتها فى منزل المنيرة وشكا اليها من أن مديحة تكتفى بالدخول الى غرفة الطفلة مرة أو مرتين فى اليوم لتصدر بعض التعليمات الى المربية ، ثم تقضى اليوم فى القراءة أو تخرج للقيام بزيارة أو لشراء حاجاتها ، فلما أقبلت والدتها ونقلت اليها تلك الشكوى صارحتها •

— لاتصدقى أحمد • لقد تغير تغيرا كبيرا • لم يعد أحمد الذى عرفته فى بدء زواجنا • انه يريد التخلص من المربية لكى اضطر الى البقاء الى جانب الطفلة ليل نهار ، فيتمكن هو من السهر وحده خارج المنزل كما يشاء •

وحاولت والدتها أن تعترض قائلة •

ـ ألا يجوز أن يكون سهره خارج المنزل لداع من دواعى عمــله ؟ انه طبيب ناشىء يبنى مســتقبله ، فلم لا تشــجعينه على هــذا بدلا من تسميم حيــاته بهــذه المشاغبات ؟

ـ آه . هذا ليس كلامك أنت ، انمــا كلامه هو . لقد حفظت هذا الأسلوب عن ظهر قلب . لم أعد أصدق هذا التحايل على خيانتى .. لست أول زوجة لطبيب . خمس أو ست من زميلاتى السابقات تزوجن من أطبــاء ومع ذلك فان واحدة منهن لم تشك ولم تتبرم بحياتها ، جميعهن يخرجن مع أزواجهن .. ليلة الى السينما وأخرى لتناول العشاء خارج المنزل . وثالثة لرد زيارة لبعض أفراد الأسرة . بينما أحمد لم يصحبنى منــذ الزواج ، حتى لتناول قدح من الشاى فى مكان عام ، اننى واثقــة من أنه يريد أن يصرفنى عن مباهج الحياة التى تتمتع بها الزوجات الشابات ، بتركى أنهمك فى العناية بطفلتى لكى يخلو له الجو خارج البيت مع غيرى .. لا حديث له فى الأيام الأخيرة الا عن الرغبة فى أن نرزق بطفل بعد نعيمة .. لماذا ؟

ـ لماذا يامديحة ؟ لماذا يابنتى ؟

ـ ألا تعــرفين لمــاذا ؟ لكى أنصرف عنــه الى البيت

وتربية الأطفال طفلا بعد آخر .. لكى يخلو له الجو كما قلت لك مع ..

ـ مع من ؟

ـ مع عشيقاته ..

٤

وتمكنت هذه الفكرة من رأسها بعدئذ تمكنا شديدا . فكرة أن زوجها انما يتظاهر بانهماكه فى العمل تظاهرا خادعا ، وانه فى الحقيقة يقضى معظم وقته فى الخارج مع سيدات أو فتيات يحاولن انتزاعه منها ، أصبحت ترتاب فى كل حركاته فاذا دق جرس التليفون بعد عودته الى المنزل فى المساء وأجاب على الحديث بما يدعها تفهم أن حالة مرضية مفاجئة تستدعى خروجه توا لم تطمئن الى صدق ذلك بل تشيعه عند خروجه بابتسامة شاحبة تكاد تنطق بأنها أدركت أنه على موعد مريب .

لقد زاد من تحكم تلك الفكرة أن أحمد كان قد قدمها عقب عودتهما من رحلة شهر العسل فى البحر الأحمر ، الى بعض زملائه من الأطباء الذين أتموا دراستهم فى ألمانيا والنمسا وانجلترا والى زوجاتهم الاجنبيات ، فكانت تنتهز فرصة اختلائها باحداهن

فتسألها عما تعلمه من سلوك زوجها أحمد ؟ وعمـا اذا كان زوجها قد حدثها عرضا عن السهرات التى يقضيها أحمد بعيدا عن بيته · وكانت زوجات أولئـك الزملاء فى بادىء الأمر يجبن بمـا يعلمن عن وفاء أحمد لهـا وتوفره على عمله الطبى المتشـعب توفـرا أثار دهشـة أساتذته واعجابهم ·· ولكنها لم تطمئن الى صدق أقوالهن فكانت تعود الى سـؤالهن ورجـائهن فى أن يصـارحنها بالحقيقة ، فلما علم أحمـد بذلك امتنع عن أن يجمعها بهن أو أن يدعـوهن مع أزواجهن الى المنزل كمـا كان يفعل قبلا ، ولم تجد هى تعليلا لذلك الا خشيته من أن تخطىء احداهن أمامها فتكشف شيئا مما يحرص على ألا تعرفه ··

وكانت الدنيا تزداد حلكة فى عينيها أثناء ساعات الوحدة التى كانت تقضيها فى المنزل تجوب غرفة وتقف أحيانا أمام مرآة لتطيل النظر الى وجهها الى ماخيل اليها أنها تجاعيد حول عينيها تنبىء بأنها هرمت قبل الأوان ، وساءلت نفسها ذات يوم وهى تجيـل البصر فى الاثاث الذى كان يحيطها «اذا كان أحمد حقا قد صادف نجاحا فى عمله الى الحد الذى صرفه عني ، فلماذا لايغير أثاث

هذا المنزل . الذى لم يعد يتفق مع سمعته كطبيب معروف موفق . . . . » .

ولم تلبث أن انعقد عزمها عى تغيير أثاث المنزل ، وأقبلت الخادمة كعادتها فى صباح كل يوم لتنظيف ذلك الاثاث فصاحت بها على مسمع من زوجها !

ـ اتركى هذا الأثاث المهشم . . انه لايستحق عنـاء تنظيفه .

ورفعت الخادمة رأسها دهشة ثم سألتها : ان التراب يكاد يخفى معالم المقاعد .

فأجابت وهى لاتزال تتعمد أن تسمع أحمد .

ـ التراب هو أليق شىء بها !

فرمقها بنظرة رثاء ، ثم غادر المنزل دون أن يتكلم، كأنه كان يسمع هذيان مجنونة !

واستثارها هذا التحدى فأوصت فى اليوم التالى على (طقم) لغرفة الاستقبال وآخر لغرفة المائدة وطلبت أن يرسل بائع الاثاث خطابا بالثمن الذى حدده الى زوجها . . وأقبل أحمد فى المساء ومعه الخطاب وأخذ يهزه أمام وجهها قائلا وقد امتقع لونه :

ـ ماهذا الجنون ؟ من تحسبيننى حتى يخيل اليك أننى قادر على تغيير أثاث بيتى لم تنقضى سنتان على شرائه ؟! أيعقل أن أشقى طول النهار فى المستشفى والعيادة ، لكى تنفقى ما أكسبه فى شراء بضع قطع من الخشب والزجاج تبعثرينها فى أنحاء البيت .

وكأنها استراحت عندما رأته ثائرا فقالت ساخرة .

ـ من أحسبك ؟ انك طبيب يملأ الدنيا صيتك ولا تكاد تجد وقتا كافيا لاجابة الطلبات المنهالة عليك .. ألا ترى من العار أن تعيش حرم الدكتور أحمد رشدى الذى لا هم للصحف الا نشر أخبار عملياته واعلاناته عن كتبه ، وسط هذا الاثاث المزرى !!.

كانت تحس وهى تلقى هذه الكلمات ، أنها متجنية وأن الأثاث لم يكن قد بلى الى الحد الذى يستدعى هذا الموقف القاسى الأليم الذى وقفته من زوجها . ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تقاوم رغبة .. شريرة فى أن .. أن ترهقه .

مادام قد برد حبه لها ، لماذا الاشفاق على ماله ؟

ان تجار الأثاث أحق بمال زوجها من النساء اللاتى يقضى معظم وقته بين سواعدهن ؟

وخضع أحمد فدفع ثمن الأثاث ..

وتعلم بعد تلك التجربة أن من العبث تحدى رغبتها والاحتجاج بعدم مقدرته على الدفع ،فكان يدفع (فواتير) حائكة الثياب ، وبائعة العطر دون أن يناقشها .

ولكنه من جهة أخرى زاد انصرافا الى عمله .. فلم يعد يتناول العشاء قط فى المنزل ، حتى فى أيام الجمع كان يتغيب معظم النهار بحجة أنه اليـوم الوحيد الذى يمكنه فيه البقاء فى دار الحكمة لاستجماع بعض المراجع التى تلزمه .

واشتعلت غيرتهـا واهتاجت أعصـابها يوما بعـد يوم ، أصبحت لاتثق بحرف واحد مما يقوله زوجها لها . وتجاسرت على التنقيب فى جيوبة والتحايل على اخراج الرسائل والنظر اليها وشم رائحتها ثم اعادتهاالى مكانها، بل وصل بها الأمر الى حد أنها كانت تقف منذ الصباح المبكر فى نافذة غرفتها المطلة على شارع شبرا ، ترقب القادمين الى العيادة . فاذا لمحت سيدة أو فتاة صاعدة الى زوجهـا ، استرقت الخطى ودخلت الى الغـرفة المجاورة لغرفة «الكشف» وألصقت أذنها بثقب الباب الفاصل بين الغرفتين ثم أصغت السمع ..

ولما رآهــا الممرض خجلت من ذلك الموقف المذل ، فرجته ألا يخبر أحمد ، وعولت على ألا تعود اليه ولكنها لم تســتطع ٠ كانت الغــيرة تمزق روحهــا فى قســوة ووحشية ٠ وذات يوم راقبته من ثقب الباب ، فلاحظت أنه استبقى سيدة شابة كانت أختهــا تزاملها فى كلية الآداب عنده فى العيادة مدة أطول من المدة التى اعتاد أن يقضيها مع مرضاه ، فلما عاد الى البيت بعد انتهــاء العمل فى عيادته أدنت أنفها من وجهه وشمت رائحته بملء رئتها وهى تصرخ ٠

ــ ألا تخجل من هذا ؟

فنظر اليها مذهولا ثم سألها :

ــ مم أخجل ؟

ــ أهذه رائحة طبيب يغادر عيادته ٠ ألا تشم ؟ ان الطبيب الذى يفوح منه أريج العطر ، لايستحق أن يثق المرضى به ، والمريضة التى تحضر الى عيادة طبيب بهذا القــدر من العطــر والطــريقة المبتــذلة من «التواليت» لاتستحق عناء العناية بها ٠

ــ وما ذنبى أنا يا «ميمى» ؟ أترين أن أضــع على باب العيادة اعلانا أذكر فيه أننى لا أقابل من يتعطر من

السيدات . حرام عليك أن تسيىء الى نفسك والى بهذا الشكل .. انك تعرفين أننى أقابل سيدات كثيرات لاأستطيع أن أصدهن ، لاننى أرتزق منهن . انها مهنتى يا «ميمى» يجب أن تدركى هذا الوضع وأن تفهمى أن تردد السيدات على أو ترددى على منازلهن لعلاجهن أو علاج أطفالهن ، لايعنى أننى أخونك . ان اصرارك على هذه المعاملة سيدفع بى الى .... ماذا أقول ؟ الى الجنون .

وارتعد جسمها اذ ذاك ولكنها تكلفت الهدوء وسألته :

ـ لندع مافات الآن ... اننى ألاحظ أنك تغيرت .. لم تعد تطيق أن تجلس الى جانبى ساعة كاملة ، وأنا لا أريد أن أثقل عليك فأنا مازلت شابة ومن حقى أن أفكر فى مستقبلى ، كما أنك شاب ومن حقك أن تهنأ بالحياة مع امرأة تحبها، كل ما أطلبه أن أعرف المرأة التى تحبها لكى أترك لها البيت .. من هى ؟

فأطرق الى الأرض ثم قال :

ـ أجل .. لا أخفى .. اننى أحب !

ـ آه . لقد اعترفت .. من هى ؟

ـ أنت .

واختلجت أهدابها فى رجفة سريعة ، فاقترب منها وطوق ساعدها فى رفق وهو يهمس :

ـ اننى أحبك يا «ميمى» كما كنت أحبك ، برغم كل ماتفعلينه ومايثير أكثر الناس هدوءا ، ولكنى أرجوك بل أتوسل اليك أن تترفقى بى · حكمى عقلك ياحبيبتى، اننى الى هذه اللحظة التى أحدثك فيها لم أتغير قط ، ولكننى أخشى اذا استمرت هذه الحالة أن تسممى حبنا ·

ـ اذن فأنا المخطئة المتجنية ، وأنت المسكين البرىء الذى لايدرى ماذا يفعل لكى يتخلص من اساءتى · أليس كذلك ؟

ـ لم أقل هذا ياحبيبتى ،اننى أخشى على أعصابك · انك لاتحسين بما تفعلين ولا تتبينين خطورته عليك · ان حالتك لم تعد عادية ·

ـ طبعا ألست رجلا كغيرك ·· بعد أن أعطيتك كل شىء ·· شبابى وعاطفتى · واخلاصى · وصحتى ، أصبحت تفضل أية امرأة أخرى جديدة على ·

ـ دعى هذه الأفكار يا «ميمى» انها أفكار سوداء ·· فقاطعته :

ـ سوداء أو صفراء ·· ألا تعرف سببها ؟

ــ أعــرف ٠٠ السبب فيهــا أنك تستسلمين اليهــا وتستغرقين فيها لأنك لاتصرفين اهتمامك فى البيت الى شىء آخر غيرها ٠٠ فعادت تقاطعه :

ــ بم تريدنى أن أهتم ؟

ــ لم أرك مثلا تقضين بعض الوقت فى رسم صورة بيــدك ٠ أو حيــاكة ثوب لطفلتنــا ٠ أو الاشراف على الطاهية الحبشية التى أحضرتها معك من بيت أبيك ، فلم نتذوق طيلة العامين السابقين أكلة شهية واحدة ، ومع ذلك فانك مصرة على ابقائها ٠

ــ آه ٠ أنا التى لم أطبخ فى بيت أبى ولا فى بيتك عندما تزوجتك طبيبا ناشئا خامل الذكر لاتكاد تكسب عشرين جنيها فى الشهر ، تريد منى الآن بعد أن ذاعت شهرتك وأصبح لا حــديث للناس الا ذكر أرباحك آن أطبخ ٠٠ أن تفــوح منى رائحــة الثوم والبصل بينما يفوح منك أنت عطر «الهوانم» اللاتى يترددن عليك ٠٠

وخارت قواها ثم أجهشت بالبكاء ٠٠ أحست بصداع شديد ، فرفعت يدها واعتمدت بها جبينها ولكنها لاحظت أنه يحــاول جس نبضها فانتزعت معصــمها وأسرعت بمغادرة الغرفة ٠

أية امرأة لعينة استطاعت أن تسرقه منها ؟

لو أنها عرفتها لهرولت اليها وأنشبت أظافرها فى عنقها ثم مزقت وجهها بأسنانها ولكن .. ولكن كيف يمكن أن تستعيد زوجها الى جانبها وأن تسترد حبه وحنانه وعطفه ؟

اشتدت حيرتها واسودت الدنيا فى عينها وبدأت تعانى مشقة فى التماس النوم ..

لاحظت عند الوقوف فى الصباح أمام مرآة غرفتها بعد ليالى الأرق المسهدة القاسية شحوبا مخيفا يكسو وجهها . وخطوطا رفيعة رهيبة ترتسم على محياها ... هل هى التجاعيد ... كانت تطيل النظر الى المرآة لتكتشفها ؟ ومع ذلك فانها لم تكن قد تجاوزت الثالثة والعشرين ؟

وعاد أحمد ذات ليلة فوجدها تتقلب على فراشها تحاول النوم عبثا ..

دخل الى غرفتها وسألها عما بها فلم تجب ولما أضاء النور ونظر الى وجهها هز رأسه فى ألم .

وأسرع الى العيادة ثم عاد بقرص فى يد وكوب ماء فى اليد الأخرى ، وناولها الدواء وهو يقول :

ـ خـذى هـــذا الدواء ياحبيبتى لتنــامى مــلء جفنيك ...

وانحنى ليطبع قبلة طويلة على فمها ، ولما أراد أن يعود الى غرفته ، بعد أن جـذب الغطاء وستر به عنقها تشبثت به وقالت والدموع تخنق صوتها :

ـ أحمد . لو تعرف كم أحبك ـ وحدقت فى عينيه وهى تتمتم ـ وأنت ؟

فربت على وجنتيها بيديه وقال :

ـ ألا تعرفين أننى أحبك ؟ اننا نســتطيع أن نكون أسعد زوجين لو استطعت أن تحكمى أعصابك .. انك فى حاجة الى الراحة .. نامى .. تصبحين على خير .

ولما غادر غرفتها وأغلق الباب خلفه أبعدت الغطاء عن جسمها ثم قفزت الى منتصف الغرفة وأخـذت تحدث نفسها وهى تحدق فى المرآة .

« أحكم أعصابى . ولم لايغير هو طريقة معاملته لى؟ لم لايعود الى بيته مبكرا كما يفعل سائر الرجال» .

وخطر لها أن تناديه به وتصــارحه بأن يبــدأ هو باصلاح خطئه .

وتقـدمت الى البـاب ولكنها جفلت لأن الدمـوع انهمرت من عينيها ثم خارت قواها. وهوت الى الفراش.

٥

في صباح اليوم التالى دخل أحمد الى غرفتها ومعه زجاجة فلم يكد يدنى الدواء من فمها حتى أبعدته عنها فى حركة عنيفة وهى تصرخ :

ـ لا ٠٠ ماهذا الذى أصبحت تطلب منى أن أبتلعه كل يوم ؟

فابتسم ثم أجابها :

ـ ماذا يمكن أن يكون ٠ دواء أنت فى حاجة اليه ٠

ـ لم ؟

ـ لأن أعصابك مرهقة يا «ميمى» دواء مهدىء ٠

فحدقت فى قرص الدواء ثم رفعت بصرها ورمقته بنظرة مستريبة وهمست وهى تبتعد :

ـ لا ٠٠ لا أريد أن أتناوله ٠٠ لا أريد أن أتناول أى دواء ٠٠

ـ لم ؟

ـ لأننى ٠٠ لأننى لا ثقة لى فيه ٠ لا أصدق ٠٠

ـ حتى لو قدمته لك بيدى ؟

فعادت تنقل بصرها بين قرص الدواء وعينيه وقالت وهى تجهش بالبكاء فى شبه حشرجة :

ـ لم أعد أثق فيك •• أصبحت أخاف •• أخافه منك •• فلأصارحك بها بعد أن أرهقنى كتمانها • أصبحت أشك فى أنك •• أنك تريد التخلص منى •

وامتقع وجه أحمد فى صوت مرتجف •

ـ ماهذا المزاح الثقيل يا «ميمى» •

ـ اننى لا أمزح •• انك طبيب وفى استطاعتك أن تتخلص منى دون أن يستطيع أحد اثبات شىء عليك ، اذا كنت مريضة حقا فانقلنى الى بيت أبى لأعالج هناك• أعرف أنها الآن تنتظر موتى ••

ـ من هى «ياحبيبتى» ؟

ـ لست حبيبتك ، بل هى «حبيبتك» هى التى تريد أن تسمنى لكى يخلو لك الجو فتحضرها الى هذا البيت •• أريد أن أموت فى «المنيرة» • فى بيت أبى ••

فهز رأسه ووضع زجاجة الدواء على المائدة الصغيرة القريبة من فراشها ثم دنا منها وهو يقول :

ـ انك متعبة •• متعبة جدا يا «ميمى» •

ـ طبعا طالما أكدت لك ذلك فلم تصدقنى · كنت ترهق نفسك من أجل الغير ولاتعنى بى · لم يخطر لك ماعانيته من شقاء الوحدة فى هـذا البيت ·· لو كنت أدرى أننى سأعامل فى هذا البيت كما عاملتنى لتداركت الأمر منذ زمن طويل ·· لم أدرك فى بادىء الامـر أن قلبك خلا من كل رحمة ··

وارتفـع صـوت نحيبهـا وهى تخفى وجههـا فى وسادتها ·

وتأثر أحمد لحالتها فجلس على حافة الفراش ، وأخذ يربت على يدها فى رفق حتى هـدأت فاستأذن وخـرج الى عمله · ولم تكد تسمع صـوت سـيارته تبتعد حتى قفزت الى منتصف الغرفة ·

وهى تضحك بصوت عال · فقد انتصرت ·· تبينت أنها لن تسترد أحمد الا اذا وثق من أنها مريضـة وفى حاجة قصوى الى عنايته ·

ولكن كيف يمكن أن تبقيه دائما الى جانبها ؟ انه طبيب وهو يعلم أنها لاتشـكو من مـرض معين ، واذا تظـاهرت بمـرض ما ، اسـتطاع أن يكتشـف ذلك بسهولة ··

وخطرت لها اذ ذاك فكرة هائلة ..

أجرأ فكرة يمكن آن تمر بخاطر امرأة فى سنها اذ ذاك ..

خطر لها أن تتظاهر بالجنون !

ان زوجها أحمد قد انصرف عنها فسمم حياتها ، وقد تبينت أنها لن تستطيع استرداده الا اذا مرضت .. مرضا مستعصيا يثير شفقته ويوقظ غرامه القديم !

وعادت بذاكرتها الى ذلك الشهر الحالم الذى عاشاه معا عقب زواجهما فى جزيرة شدوان تحت سقف كوخ صغير ، يخرجان فى الصباح للبحث عن طعام اليوم فى قارب حارس المنارة العجوز ثم يعودان فى المساء لشوى السمك . وسماع الموسيقى والغناء كأنهما ملكان على تلك الجزيرة النائية .

تذكرت ليلة حالكة الظلام ، كانت قد جلست فيها أمام باب الكوخ الصغير ، الذى كانا يعيشان فيه وقد اعتمدت رأسها بيدها وأخذت تراقب أحمد وهو يعد « الراكية » لكى يشوى سمكة كبيرة اصطادها فى الصباح وعلقها على مقربة من باب الكوخ .

وسألها :

ـ مالك لاتتحـركين يا «ميمى» ؟ هيـــا احضرى الكبريت من داخل الكوخ وأشعلى الحطب ·

فهزت رأسها معتذرة · وعاد يسألها :

ـ لم ياحبيبتى ؟

ـ طلب منى حارس المنارة هـذا الصباح ألا نشعل النار أثناء الليل خشية أن يلتبس الأمر على احدى السفن المارة ، بين نارنا وضوء المنـارة ، فكل ربابنة الســفن التى اعتـــادت المرور من هـذه المنطقـة يعلمـون أن «شدوان» جزيرة لايسكنها أحد ·

ـ اذن خفضى النار التى ستشعلينها

ـ كم أود أن ينطفىء ضوء المنارة ·· أن ينطفىء الى الأبد ·

فنظر اليها أحمد كما ينظر الى طفلة ثم اقترب منها وسألها :

ـ لماذا ؟

ـ لكى تضل الطوافة التى ستقبل لتأخذنا بعد غد ، فلا تتبين الطريق الى «شدوان» ·

وعندئذ أرسل ضحكة عالية مرحة وانحنى عليها يغمر رأسها بقبلاته وهو يقول :

ـ هل يخيل اليك أن الحياة هنا ممكنة اذا طالت ؟

ـ أجل . ممكنة . بل سعيدة . ماكنت أتصور قط أننى سأشعر بالسعادة التى شعرت بها فى الأيام التى قضيتها هنا .. مرت كالحلم . لا أطمع فى أكثر من هذا .. لو ظل قوتى الوحيد هو السمك الذى نصطاده لما مللت .. انك تعلم أننى لم أعتد أبد فى بيت أبى أن أجلس أمام «طشت» الغسيل ، ومع ذلك أقسم لك ياأحمد أننى عندما غسلت بيدى ثوبى وثوبك كنت أغنى فرحا . أخذت أعدو وأنا أعصرهما بيدى ثم نشرتهما على سطح الكوخ لكى تجففهما أشعة الشمس . ولما عدت أنت من الصيد وجدتنى قد ارتديته .

وقد أنصت أحمد الى كلماتها فى هدوء فلما انتهت هز رأسه وقال :

ـ كنت أعلم أن الحياة هنا ستروقك ولكن الى حين .. فليس من المعقول أن يبقى الانسان فى مثل هذه الجزيرة . المنعزلة عن العالم شهورا أو أعواما . انالحياة هنا خطرة على الأعصاب . هذه الوحدة المخيفة التى

لا أنيس فيها الا صوت الماء المرتطم بصخور الشاطىء ، هى التى تنتهى بمعظم حراس المنارات الى الجنون ..

وتلفت أحمد حوله ثم انحنى عليها وقال :

ــ ألم تلاحظى حالة هذا الرجل الهرم الذى يحرس منارة «شدوان» ؟ انه ليس طبيعيا كغيره من الناس .. أحيانا يقبل عليك ضاحكا بملء فيه ، حتى ليخيل اليك أنه على وشك أن يروى فكاهة بارعة قرأها فى مجلة من المجلات التى تتلقاها مصلحة الموانى والمنائر من المتبرعين لهؤلاء الحـراس فى مناسـبة العيد ، ولكنـه لايلبث أن ينحرف عنك ويعبس ثم يلف حول شاطىء الجـزيرة .. وأحيانا أخرى تجدينه مستلقيا على الرمل يكتب عليـه أرقاما لايعرف لها الواحد أولا من آخر . ثم يجمع بعضها على البعض . ويطـرح ، ويقسـم على غير هدى ، كأنه يحاول حل معضلة معقدة . انه مريض ..

ــ وهذا المرض . أليس له من علاج ؟

ــ علاجه ليس أمرا هينا يامديحة ، ونحن لانعتبر أطباء الأمراض النفسـية ، أطبـاء بالمعنى الفنى . لأن علاجهم لهذه الأمراض قائم على التحليل لا على المشرط أو الدواء .

٦

تذكرت ذلك الحـديث الذى دار بينها وبين أحمد قبل ذلك بعامين وصممت على أن تتظاهر بالجنون ! لن يخطر بباله أنها كاذبة ..

ولشد مادهشت فى اليوم التالى عنـدما رأت أحمد يدخل غرفته متهلل الوجه وهو يقول لها :

ـ ألديك مانع يا «ميمى» من تنـاول الغـداء فى حلوان اليوم ؟

ـ دققت النظر الى عينيه ثم قالت :

ـ حلوان ؟!

فدنا منهـا ثم ربت على وجههـا فى حنـان وهـو يقول :

ـ أجل . أود أن نتناول الغداء .. أنت وأنا في أى مطعم نصادفه هناك . ونأكل أى طعام نجده كما لو كنا سائحين هبطنا مصر للمرة الأولى ثم نسير جنبا الى جنب في الحديقة اليابانية . أتعرفين أننى لم أرها منذ كنت طالبا فى كلية الطب ؟

ـ وكيف كنت تريد أن تراها بعد أن تزوجت ؟ ان هذا النوع من الحدائق قد جعل للعشاق !

ولاحظ أحمد أنها تستعد لثـورة فتكلف الابتسام وقال :

ـ من أجـــل هــذا قلت لك انى لا أود أن أذهب الا معك ٠

وفى أسرع من لمح البصر ارتدت ثيابها وهى سعيدة لهذا التغير العجيب الذى طرأ على طريقة معاملة أحمد لهـا ٠

وجلست الى جانبه ٠ وانطلقت السيارة تعبر كوبرى شـبرا وتخترق شـــوارع العاصـمة متجهة الى مصر القديمة ٠

ولما مرت السيارة بمحطة الترام القريبة من منزل أبيها فى المنيرة ، تعمد أحمد أن يبطىء السـير قليلا ، والتقت نظـراتهما ٠٠ كان يذكرها بالأيام التى كان يتظاهر فيها بانتظار قطـارات الترام فى ذلك المكان ، لكى يتمكن من اختـلاس نظرة اليهـا وهى واقفة خلف نافذة غرفتها المطلة من بعيد على شارع قصر العينى !

ولما وصلا الى حلوان ٠ أوقف أحمد السيارة أمام مطعم سورى ٠

كان المطعم خاليا ، وكانت مائدتهما هى أقرب الموائد الى نافـذة المطعم المطلة على صـحراء حلوان الممتـدة الى ما لا نهاية !

وانقضت فترة سـكون أطـالت النظر أثنـاءها الى الرمال التى كانت تبرق من بعيد تحت ضوء الشمس ثم التفتت اليه وسألته :

ـ هل جئت الى هذا المكان من قبل ؟

ـ أبدا • ولا أعرف اسم المطعم حتى الآن •

وأقبل خادم المطعم • فطلب أحمد سمكا مشويا دون أن يستشيرها • ماذا قصـد أحمد باحضـارها الى ذلك المطعم ، بعيـدا عن العـالم •• الرمال المتراكمـة •• والطعام من السمك المشوى !

لم تستطع اذ ذاك أن تتحرر من ذكرى الأيام التى قضياها فى «شدوان» • الأيام التى كانت تشـوى فيها ذلك السمك بيدها وتقدمه الى الرجل الذى كان ـ اذ ذاك ـ لها دون غيرها من نساء العالم !

ولما انتهيا من تناول الطعام ، قام أحمد فتبعته الى الخارج والتفت اليهـا وهما يهمـان بركوب السـيارة وقال :

ـ آه تذكرت .. ان زميلا ايطاليا لى يملك هنا «فيلا» تحيط بها حديقة جميلة ، وقد رجانى أكثر من مرة أن أزوره لو مررت بحلوان . ماذا ترين لو ذهبنا لزيارته ؟

فوافقت وذهبا الى المنزل الخلوى الذى اتخذه الدكتور مارسيالى عيادة ومصحة .

ولاحظت عندما انتهيا من صعود السلم الرخامى الذى يقود الى مكتب الطبيب ، أن الممرض كان يتقدمهما ، كأنما كان أحمد على موعد ، ولكنها لم تصارح زوجها بتلك الملاحظة !

ودخلت المكتب . كان الدكتور مارسيالى فى نحو الخامسة والأربعين . طويل القامة ذا لحية وشارب عنى بأناقتهما . يشيع بعض الشيب فى شعر رأسه الغزير ، وبعد أن تبادل معهما كلمات التحية العادية بدأ يوجه اليهما نظرات فاحصة دقيقة !

كانت عيناه تحدثانها بأنه على علم بالشىء الكثير عنها ، فلاشك أن أحمد قد حدثه بشأنها .

وراقبت خلسة تلك النظرات التى كان الاثنان

يتبادلانها ، وهما يشيران من طـرف خفى الى ارتعاش أطراف أصابعها !

آه ٠٠ لقد استطاعت اذن أن تخدع أحمد فصـدق أنها مصابة بانهيار عصبى ٠٠٠ أو ربما بخلل فى قواها العقلية ، وأسرع الى زميل له من الاخصائيين فى الأمراض العصبية ليستشيره فى أمرها !

كانت فرصة سانحة ، عولت مديحة توا على انتهازها لكى تستعيد زوجها ، لكى تنتزعه من أحضان مريضاته الجميلات ، اللاتى يكشفن أمامه داخل غـرفة عيـادته المغلقة الابواب ، عن صدورهن التى تفوح منها أنواع العطور المختلفة !

وتلفتت حولها اذ ذاك وفتحت أنفهـا ثم تظاهرت بأنها تشم رائحة وتمتمت :

ـ هنا عطر أعرفه ٠٠ «من أجـل رجل» ٠٠ أليس كذلك ؟ ٠٠ أتحب هذا العطر يا «دكتور» ٠

وعاد الاثنـان يتبادلان النظرات ٠ ودنا الطبيب الايطالى منها ثم قال فى لهجة يبدو التأثر عليها :

ـ انه عطر جميل ولكنك تخطئين فليس فى هـذه

الغرفة الا رائحة صبغة «اليود» ربما كان هنــاك وجه شبه بين الرائحتين !

وأحسست أنه قال ذلك لكى يجاريها فقط كأنه كان يتحدث الى مجنونه ! حتى ذلك الطبيب الاخصائى بدأ ينخدع بحالتها ٠

وسألها :

ـ أتحلمين ياسيدتى أحيانا أحلاما غريبة ؟

ففكرت ثم أجابته بدون أن يبدو عليها أنها كانت تكذب :

ـ آه ! طبعا ٠ أحيانا أرى رجــالا ونساء يسيرون على حائط غرفتى ، فلما أتحدث اليهم يجيبون ٠٠ أؤكد لك يا «دكتور» انهم يكونون غالبا فى غاية الظرف معى، الى حد أننى أغادر فراشى وأسير معهم ٠ فنظل سائرين الى أن نصل الى شاطىء الجزيرة وعندئذ يدركنى التعب فأجلس على العشب وأدلى قدمى فى الماء ثم ألتفت حولى فلا أجــد أحــدا ٠٠ ولكن العجيب أننى لا أخاف تلك الوحدة ٠٠

ألقت هذه الكلمات بهــدوء فلما انتهت من آخــر كلمة نظرت الى الاثنين لتمتحن مبلغ تأثرهمــا من ذلك

«التمثيل» الذى دهشت مديحة نفسها لتوفيقها فيه توفيقا لم تكن تتوقعه !

كان زوجها اذ ذاك يشخص اليها بعينين ذاهلتين ٠٠ كانت الدموع تنهمر منهما ٠٠ كان المسكين قد اقتنع آخر الأمر بأن زوجته أصيبت بمس فى عقلها !

وتقدم الطبيب الايطالى فضغط على جرس موضوع فوق مكتبه وفتح الباب على الأثر وظهرت ممرضة عجوز فى معطف أبيض تبدو الشدة والصرامة على قسمات وجهها ، ولم يكد يشير اليها حتى تقدمت الى مديحة ومدت يدها فأمسكت بذراعها ٠ وجذبتها فتبعتها الى غرفة مجاورة وأومأت اليها فاستلقت على مقعد الكشف ، وأدنى الدكتور مارسيالى زجاجة من أنفها وهو يقول :

ــ لاتخافى ياسيدتى ٠٠٠

واستغرقت فى شبه غيبوبة ٠ وسمعت أحمد يقول له بالانجليزية :

ــ اننى مسئول عن هذه النتيجة التعسة ، لقد خيل الى فى بادىء الأمر أنها كانت تبالغ فى تصوير حالتها ٠ ولكن يظهر أنها فى أسوأ حالات المرض ٠ فما العمل يادكتور ؟

وبعد قليل شعرت بالطبيب يدق بمطرقة معدنية على أطراف أصابع قدميها بعد أن جردهما من الحذاء والجوارب .. ثم دق على عظم ساقها وأخذ يثني ذراعها ويتركه يتدلى وكرر ذلك عدة مرات !

ولما غادرت المصحة سألت أحمد عما حدث فتكلف الهدوء والابتسام وأجابها :

ـ لاشيء . لقد انتهزت فرصة زيارتنا له ودعوته للكشف عليك .. لاشيء بالمرة .

ولكنه كان يمثل هو الآخر ، كان صوته مرتجفا وكان شكه في اضطراب قواها العقلية قد تحول الى يقين : وأرادت أن تمتحن شعوره الجديد نحوها فسألته والسيارة تنهب الطريق عائدة الى القاهرة :

ـ مارأيك في السفر الى الاسكندرية لقضاء يومين .. لقد أكدوا لى أنها جميلة في الشتاء .

ولشد مادهشت عندما أجابها .

ـ بكل سرور ياحبيبتي .

ولاحظت في مساء نفس اليوم أنه تحدث في التليفون الى زميل له يرجوه أن يمر به في صباح اليوم التالى لكي يتولى الاشراف على العيادة أثناء غيابه ؟

أى نصر !

ولما عادا من الاسكندرية ، بعد أن مكثا بها سويا ثلاثة أيام ، تبينت مديحة أن زوجها لم يفقد عقيدته فى مرضها ، اعتبر الهدوء الذى لاحظه عليها فى الاسكندرية وقتيا عارضا ، وكان من اليسير بعد ذلك أن «تمثل» الدور الرهيب الذى اختارته لنفسها !

حدث بعد عودتهما بيومين بينما كانت مستلقية في المساء على المقعد الطويل فى غرفة نومها وقد ملت من قصة كانت تقرأها فألقتها جانبا ، ان لمحت أحمد يتقدم الى الباب وهو يسير على أطراف أصابعه ظنا منه أنها نائمة ..

وخطرت لها اذ ذاك فكرة .. فبدلا من أن تلتفت اليه ، نهضت فى بطء وتقدمت الى حائط الغرفة وتظاهرت بالرغبة فى اختراق الحائط كأنها تجهل أنها لا منفذ فيها ، أخذت تهذى بكلمات لامعنى لها .. «احترقت السجادة .. من قال ان الشاى يغلى ... ألم أخبرك أن سنية رجعت ؟ آى ! كم عدد الاطفال الذين يقتلهم الترام رقم ١٥ كل يوم خميس ؟»

كانت رائعة فى تمثيل ذلك الدور اللعين .. رائعة

الى حد أنها عنـدما التفتت خلفها فجأة ، لمحت زوجهـا ينظر اليها وقد اتسعت حدقتا عينيه !

كان يتعذب ٠٠٠

ولكنها لم ترث له لانها تعذبت من قبله عذابا أشد وأقسى ٠ وفجأة غادر أحمد الغرفة وأغلق الباب خلفه ، كأنه خجـل من أن يـراها خـدم المنزل وهى على تلك الحالة ٠

ولما اطمأنت الى أنه ابتعد أطلقت عدة ضحكات ثم أخذت تدور حول نفسها وهى تصفق فرحا ٠

وتبينت أنها لم تعـد تقـوى على أن تقف دورانها السريع ٠٠

ولمحت نقطة سوداء فى سقف الغرفة ٠٠ واتسعت تلك النقطة ٠٠ ثم ٠٠
ثم لم تعد تعى شيئا ٠٠

٧

تنبهت مديحة بعـد بضـع سـاعات فتبينت أنهـا مستلقية على فراش المرض فى غرفة تطـل نافذتها على حديقة كبيرة لا يفصلها عن الصحراء الا سور حديدى تسلقته أغصان المبلاب الكثيفة !

أين ؟

وقبل أن تهم بالنهوض فتح الباب ودخل أحمد ..

كان شحوب مخيف يكسو وجهه الأسمر بمسحة من الحزن الجميل !

وانحنى عليها ثم مد يده ، وأمسك بيدها من تحت غطاء الفراش .

ـ كيف حالك يا «ميمى» ؟

فابتسمت ، ورفعت رأسها لكى تتمكن من التحديق فى عينيه الواسعتين .

لم تكن قد تمتعت بالنظر طويلا الى تلك العينين منذ غادرت «شدوان» قبل ذلك بثلاثة أعوام !؟

هل حدثت المعجزة ووفقت فى استرداده ؟!

ـ الحمد لله . ماذا جرى لى ياأحمد ؟ أين أنا ؟

ـ انت فى حلوان عند الزميل الايطالى الذى زرناه معا .. لقد رأيت أن أحضرك الى هنا لكى تستريحى . منزل هادىء تحيطه حديقة جميلة . بعيدة عن ضوضاء الترام والسيارات التى تزعج سكان شبرا . لاحظت فى المدة الأخيرة أن أعصابك مرهقة ..

فتمتمت وقد ملأت صدرها بهواء الصحراء الذى كان يتسلل من نافذة الغرفة ·

ـ مرهقة !؟

ـ شىء بسيط · ستتحسن حالتك سريعا ·

ولما تركها أحمد يومئذ تبينت أن الممرضة العجوز ذات المعطف الأبيض التى رأتها عندما حضرت مع أحمد للمرة الأولى ، تلازمها طول اليوم · كانت ترجوها كلما حاولت مغادرة الفراش أن تنام · فاذا قاومت عمدت الى «حقنة» وأرسلت فى شرايينها دواء ملونا لاتلبث بعده أن تستغرق فى النوم ·· حتى أثناء الليل ، اذا حدث أن استيقظت وبدأت تتقلب فى فراشها فانها سرعان ماتنتبه من نومها وعندئذ تسمعها تقول فى حنان ·

ـ نامى يامديحه هانم · نامى يا ابنتى · انك فى حاجة الى الراحة ·

ولكنها ملت الحياة فى تلك المصحة بعد بضعة أيام · وطلبت الى الممرضة أن تخبر الطبيب الايطالى برغبتها فى العودة الى منزلها ·

ولشد ماذهلت عندما لاحظت أنها ابتسمت ابتسامة مرة !؟

ماذا ؟

لقد تجلت أمامها الحقيقة الهائلة .. انها سجينة تلك المصحة المشرفة على صحراء حلوان .. وأقبل أحمد فى مساء ذلك اليوم كانت مديحة لاتزال طريحة الفراش، فطلبت اليه أن يعينها على السير ففعل وغادرت الفراش وهى تعتمد على ذراعه .

لقد انهمرت دموعها اذ ذاك لانها تذكرت الايام التى كانا يعدوان فيها على صخور جزيرة شدوان فاذا اعترضتهما منطقة كثرت فيها قطع الاحجار المدببة مد أحمد ذراعه فطوق به خصرها وأعانها على السير وهو يكاد يحملها حملا .

وسارت فى الغرفة بضع خطوات ، فلما لاحظ تهدج صدرها من التعب ، أجلسها على مقعد قريب من شرفة الغرفة . وعرض ساقيها للشمس ثم غطاها بغطاء سميك من الصوف .

كم كان حنونا يومئذ .

وسألته وهي تلقى برأسها على صدره :

ـ كيف حال نعيمة يا أحمد ؟

ـ بخير . انها عنـــد جدتها فقد اتفقنا على ذلك . وقد علمت أنها مسرورة من اللعب مع سعاد ابنة خالتها. وعبد الرحمن ابن عمها ، يذهبان يوميا الى منزل المنيرة خصيصا لاجل نعيمة ويبقيان معها الى مابعد الغروب .

ـ ألا تسأل عنى ؟

ـ ســألتنى فأجبتها بأنك سافرت الى الاســكندرية وستبقين عند خالها شــهرين ثم تعــودين فارتعدت ثم صرخت .

ـ شهرين . لماذا ؟ هل سأبقى هنا شهرين ياأحمد ؟ لابد أن أخرج معك اليوم . اننى لا أستطيع أن أحرم من ابنتى و ... ومنك مدة أخرى .

ـ وصحتك يا «ميمى» ؟

ـ صحتى على مايرام . لست أشكو من شىء .

فقبلها أحمد عدة قبلات سريعة ثم تركها بعـــد أن أكد لها أنه كان يمزح عندما حدد موعد مغادرتها للمصحة بعد شهرين . وأنها ستغادرها قريبا .

وانقضت بضعة أيام أخرى دون أن يحضر أحمد لرؤيتها ، واشتد ضيقها من تلك الحياة المملة المتشابهة ،

وذات يوم أرسلت ممرضة لاستدعاء الدكتور «مارسيالى» ورجته أن يسمح لها بالعـودة الى منزلها ولكنه اعتـذر وصارحها بأن صحتها فى أشـد الحاجة الى اطالة البقاء عنده ، فصاحت .

ـ الى متى اذن سأظل هنا ؟ ـ **فترددقليلا ثم تمتم :**

ـ بعض الوقت .. هل تضيقين باقامتك عندنا الى هذا الحد ؟

ـ أريد أن أعود الى بيتى .

ـ ستعودين .

ـ متى ؟

ـ وتشبثت بمعطف الطبيب وهى تتوسـل منتحبـة

ـ متى أعود الى ابنتى وزوجى ؟

ـ قريبا ربما بضعة أسابيع .

ـ كيف ؟ لقد أكد لى زوجى أننى سـأخرج بعد .. بضعة أيام .

ـ زوجك جراح ياسيدتى واسمحى لى أن أقول اننى أدرى بحالتك منه .

ـ ثم تركها تستسلم للبكاء وغادر الغرفة ·

فلما حضر أحمد فى ذلك اليوم سردت عليه مادار بينها وبين مدير المصحة وأضافت :

ـ ماذا فعلت ياأحمدحتى تمعنوا فى تعذيبى هكذا؟ كيف شخصتم حالتى ؟

لست مجنونة ياأحمد ، لم أكن فى يوم ما مجنونة اننى امرأة عادية طبيعية مثل آية زوجة تغار على زوجها، تظاهرت بالجنون ·· خيل الى أننى بذلك استرد حنانك واهتمامك وعطفك · كيف صدقتم أننى مجنونة ؟

استمع زوجها الى كلماتها وهو يهز رأسه فى حزن· كأنه يستمع الى حديث مجنونة ··

وتشبثت مديحة بكتفى زوجها ثم هزته هزا عنيفا وهى باكية ·

ـ أقسم لك بحياة نعيمة ·· ألا تصدقنى ياأحمد ؟ بماذا أقسم لك على أننى لست مجنونة ؟

أقسم بحبنا القـديم ياأحمد أننى كنت أخـدعك عندما تظاهرت بالجنون ··

ولما اتسـعت حـدقتا عينيه · وتصبب العرق من

جبينه . رجحت بأنه شخص حالتها بأنها نوبة من نوبات جنونها ، فتركت كتفه وأخذت تدلل وجنتيه بأناملها وهى تهمس :

لم تعاملوننى هـذه المعاملة ؟ ماذا فعلت ؟ تكلم . هل اعتديت على أحد ؟ هل تجردت من ثيابى وسرت هائمة على وجهى فى الطريق ؟ هل حطمت الاثاث أو الزجاج؟

وأسرعت فدقت الجرس ، ولما دخلت الممرضة العجوز هجمت عليها وأمسكت بتلابيبها وهى تصيح :

ـ من أين جاءكم أننى مجنـونة ؟ ماذا فعلت حتى أعامل هنا معاملة المجانين ؟ انطقى . هل اعتديت على أحد ؟ هل شكا منى أحد ؟ كيف أعد اذن مجنونة ؟

فنظرت اليها وقالت :

ـ اهدئى ياسيدتى فان هـذه الثورة تسىء اليك . استريحى فى فراشك .. ثم التفتت الى أحمـد وأومأت اليه أن يترك الغرفة ولكن مديحة **أسرعت فتمسكت به وهى تصرخ :**

ـ استدع الدكتور مارسيالى . أريد أن أتحدث اليه حالا . «أريد أن أتحـدث اليه حالا» أريد أن أصارحه بأننى أعده مجنونا اذا أصر على أننى مجنونة .

ثم أطلقت عدة ضحكات جافة وهى تتابع صراخها :
كيف يكون هذا الطبيب اخصائيا فى الامراض العقلية ، ثم يزعم أننى مجنونة • أنا التى تظاهرت كذبا بالجنون ؟

٨

انقضت الأيام والأسابيع والشهور ومديحة سجينة تلك المصحة الرهيبة •

عاشت تلك الفترة وسط النساء فريسات النوبات العصبية الحادة وأزمات «الهستريا» اللاتى كانت تلتقى بهن أثناء ساعات الرياضة فى حديقة المصحة •

وأقبل الدكتور مارسيالى ذات يوم لينقل اليها خبرا غريبا • وهو أن احدى الدول العربية قد تعاقدت مع أحمد على تولى انشاء مستشفى لجراحة العظام ، وأن الحكومة المصرية وافقت على اعارة زوجها لتلك الدولة مدة عامين !

وشهقت مديحة شهقة حادة !

عامان آخران فى ذلك السجن الرهيب • ولما بدأت تصرخ أومأ الطبيب الى الممرضة فأسرعت بحقنها •

لم تدر متى أفاقت . ولكنها عندما تنبهت وجدت الدكتور مارسيالى الى جانب فراشها وتذكرت صراخها عندما أخبرها بخبر سفر زوجها الى الخارج . وندمت . خطر لها أن ذلك السفر قد يحل مشكلتها . قد يقطع صلته بالنساء اللاتى انتزعنه منها . فهزت رأسها . وشاعت ابتسامة على محياها .

وسألها الطبيب الايطالى فى حنو :

ـ فيما تفكرين ياسيدتى ؟

فأجابت :

ـ لو صارحتك لما صدقتنى .

ـ ثقى بأننى سأصدقك . أتريدين أن تقولى انك تتظاهرين بالجنون ؟

ـ أجل لقد تظاهرت بالجنون وكذبت عليكم جميعا .

فابتسم ابتسامة هادئة ثم قال :

ـ أعرف أنك ادعيت الجنون . انما أؤكد لك برغم هذا أن حالتك العصبية قد تغيرت تغيرا كبيرا بعد عودتكما أنت وأحمد من رحلة شهر العسل فى «شدوان» .. ان الحياة الشعرية الهادئة هناك جعلتك تكرهين أى لون آخر من الحياة العادية بعدها . لقد أخطأ أحمد باصطحابك

الى تلك الجزيرة لانه من العسير بل من المستحيل على أى زوج أن يوفر لزوجته حياة زوجيــة مســتمرة على نمط الحياة التى عشتماها معا أثناء شهر العسل فى «شدوان» ولذلك فأنت تتبرمين بما تبينته بعد عودتك من انهماكه فى عمله وانصرافه عنك الى مرضاه وكتبه • هذا الفرق الهائل بين الحياتين جعلك تتوهمين أمورا لا أساس لها من الصحة •• توهمت أنه منصرف عنك الى عشيقاته وعبثه ولهوه • فكرة أنه يخونك مع غيرك كبرت وتضخمت الى حد أنها أصبحت مرضا •• هذه الفكرة نفسها • هــذا النوع من الغيرة مرض • اسمحى لى أن أسميه نوعا من الجنون • أعراضه ماكنت تفعلينه كل يوم من التحرى عن زوجك من كل شخص • والانصــات الى وقع خطاه فى غرف العيادة • وشم ثيابه عند عودته • والاستماع من ثقب الباب الى أحاديثه مع مرضاه وزواره •

أؤكد لك ياسيدتى أن احتمال أحمد لهــذا الجحيم الذى أحييته فيه بغيرتك ، أكبر دليــل على أن حبــه لك أعظم مما تصورت وتتصــورين • انه لم يخنك • أنت التى خنت نفسك !

أنصتت مديحــة بكل اهتمام الى ماقاله الطبيب • أحست بأن كل كلمة من كلماته تطفىء جمرة من اللهب

المستعر فى أحشائها .. اللهب الذى ظل يشوى أعصابها طيلة الأعوام الماضية .

ولما توقف الطبيب عن الكلام رفعت بصرها اليه . وتمتمت بضع كلمات لتشكره ... ولكن التأثر غلبها فأجهشت بالبكاء ...

اتضحت لها الحقيقة الرهيبة .. وهم هائل تسلط عليها . فسممت حياة زوجها . وأحالت بيتها الى جحيم .

وأثار بكاؤها شفقة الطبيب الايطالى فربت على ظهرها وهو يقول :

ـ تستطيعين أن تبرئى من هذا المرض . ليست هذه أول حالة تعرض لى . فقد قضيت فى مصر ثلاثين عاما عالجت فيها عشرات الحالات المشابهة . مادمت تعرفين منشأ المرض فان فى استطاعتك أن تتغلبى عليه . عليك أن تؤمنى بأن زوجك لم يخنك .

وانقضت شهور أخرى ...

لقد اشتد حنينها لرؤية ابنتها نعيمة . وجلست يوما تكتب الى والدتها خطابا بعد أن علمت أنها أرسلت

إبنتها الى «روضة الاطفال» القريبة من منزل أبيها فى المنيرة ·

ودخلت الممرضة فوجدتهامنهمكة فى كتابة الخطاب، وكانت مديحة قد سألتها ذات مرة عن سبب عدم تردد والدتها على المصحة لزيارتها فأخبرتها بأنها مريضة بشلل فى ساقيها يمنعها من المجىء ·

وتناولت الممرضة الخطاب منها ووعدتها بأن تضعه فى صندوق البريد ، ولكن مديحة لاحظت أنهـا كانت تخفى عنها شيئا هاما · وأن ذلك الخطاب لن يصل الى والدتها ·

وشعرت ذات يوم بحركة غريبة خارج غرفتها · وسمعت كلمتى «المحكمة الحسبية» وفهمت أن طبيبا من قبل هذه المحكمة كان يتناقش فى حالتها مع مدير المصحة ·

حاولت عبثا أن تفهم سر تلك الالغاز فلم توفق ، ومرت الايام مملة · رتيبة كئيبة · ساعات النهار تقضيها جالسة على مقعد من مقاعد الحديقة تتطلع الى الأفق البعيد منتظرة عودة أحمد كأنها جالسة على صخرة ربوة عالية من ربى «شدوان» ترقب أوبته من الصيد وقد ذهب يلتمسه منذ الصباح الباكر ·

الى أن كان ذات صـــباح • كانت مســتغرقة فى النوم •

ففتح باب غرفتها فجأة وسمعت صوتا يقول :

ـ «ميمى» أمازلت نائمــة ؟ أسرعى بارتداء ثيابك لنعود معا الى البيت • • بيتنا •

وبسرعة أبعدت الغطاء عنها وهرولت الى الباب وهى تتمتم فى ذهول «بيتنا» •

كان أحمد واقفــا • وقد حمــل نعيمــة فتناولتها وضــمتها الى صدرها • وغمرتها بقبلاتها وقــد ارتفع صوت نحيبها •

عادت ابنتها وعاد زوجها اليها •

وأجلست ابنتها على ساقها ، تضــمها الى صــدرها وتغمرها بقبــلاتها ودموعها • وأخبرها أحمــد وهمــا يغادران المصحة بأنه عاد مسرعا من الخارج بعد أن تلقى رسالة بأن والدتها توفيت وأن اخــوتها حاولوا اغتيال حصتها فى التركة منتهزين فرصة مرضها فاضــطر الى العودة مسرعا من الخارج ، وتقــدم الى المحكمة الحسبية طالبا الحجر على زوجته وتعيينه قيما •

قبل مغادرتها المصحة ببضعة شهور .

وعلمت مديحــة من الذين شــهدوا تلك الجلسة أن زوجها كان يبكى والقضاه يحكمون بالحجر عليها لضعف قواها العقلية !

ولما علمت من زوجها بعد عودتها الى بيتها ببضعة أيام بأنه طلب من محاميه أن يتقدم الى المحكمة الحسبية بطلب رفع الحجر عنها . **طوقته بذراعها وهى تقول :**

ـ لم ياحبيبى ؟ ماذا يضيرنى لو ظللت قيما على طول حياتك ؟

وعاشا فى قبلة طويلة ..

الراقصة المحبوبة

الراقصة المحبوبة

ذات صيف .. وكان اذ ذاك يرأس «نقطة شرطة» القضابة ، وهى بلدة تابعة لمركز بسيون كثرت فيها حوادث القتل بين أفراد أسرة كبيرة بها الى حد استدعى انشاء «نقطة شرطة» بها مع أنها لاتبعد عن المركز بضع مئات من الامتار ، كما استدعى أن ترابط بها فرقة اضافية من فرق الخفر لمساعدة رئيس النقطة فى حفظ النظام وتنفيذ أوامر المحافظة الصارمة بشأن ارغام الأهالى على العودة الى بيوتهم قبل غروب الشمس وعدم مغادرتها قبل الشروق .

وكان يعيش فى تلك القـرية النائية حيـاة غريبة شاذة ، فلم يكن عمل «النقطة» الحقيقى يشغله أكثر من ساعة فى اليوم كله ، ولم يكن أهـالى القرية من الطراز الذى يمكن أن ينسجم معـه شـاب كان لايزال حـديث التخرج من كلية الحقوق ، قضى عمره كله فى القـاهرة يقرأ بعض كتب الادب ويتـذوق مايعثر عليه فى مكتبة أبيه من ترجمات الى العربية لمسرحيات وأشعار أجنبية أو مايسـتطيع الحصـول عليه من كهف فى شـارع شريف تخصص فى بيع بعض المسرحيـات والقصص الأجنبية القديمة .

وأحس منذ اللحظة الأولى التى وضع فيها قدميه على محطة القضابة الواقعة على سكة حديد الدلتا «الضيقة» انه انتقل الى عالم آخر ، كانت المحطة كلها عبـارة عن كشك خشبى صغير يجلس فيه موظف ترهلت حوله بذلة صفراء ، أمامه آلة صغيرة من آلات البرق ، وعلى حائط فى ركن الغرفة التصقت آلة أخرى من آلات التليفون ، أما القرية فقد جثت خاشية تحت قدمى المحطة ..

واعتزم «هو» منذ تلك اللحظة أن يقضى المدة التى قدر عليه أن يقضيها بالقضـابة فى المطالعة حتى تقبل استقالته التى كان قد قدمها لكى يعـود الى العمل فى

القاهرة ، فاعتاد أن يغادر «النقطة» بعد غروب الشمس وأن يعود الى بسيون ، التى كان يقضى الليل فى استراحة مجلسها البلدى ، سيرا على قدميه وخلفه خفير يحمل بندقيته حتى يسلمه الى الخفير الذى يليه ، خشية أن يعتدى عليه أحد فى ظلام تلك القرية التى كانت تسيل فى طرقاتها دماء الثأر الريفى العنيد ..

وخرج من النقطة ذات ليلة كان فيها القمر يغمر القضابة الهاجعة فى نومها رغم أنفها قبل الغروب ، وسار بخطى متثاقلة على أرض الطريق الزارعى الذى يصل القضابة ببسيون ... نقيق الضفادع يتصاعد من الحقول المترامية على جانبى الطريق فى شبه موسيقى حزينة .

وكان أهالى القضابة الذين لم يشتركوا فى الصراع الدامى والذين لا جريرة لهم فيه قد أرغموا على أن يلزموا بيوتهم ، كالدجاج ، قبل الغروب ولا يبرحوها الا بعد الشروق ، ولم يكن يجرؤ واحد منهم على أن يشكو من ذلك الاجراء الرهيب ، ولكن ضفادع قريتهم انطلقت ترسل تلك الشكوى ، أنينا ، متوجعا ، رتيبا . منغما .. لا يقطعه وقع حذاء الخفير على الأرض وهو يسير خلفه بثيرا عسكريا متئدا ثم صوت كفه الغليظ وهو يدق كعب

البندقية ، وقعقعة السلاح وهو يرتفع الى كتفه ليحييه عندما تنتهى منطقته قبل أن يسلمه الى زميله الذى يليه .

وفجأة دوى صوت مزق السكون الذى كان يسود القرية وطغى على نقيق الضفادع وصوت أقدام الخفراء وقعقعة السلاح ، ووقف يتبين مصدر الصوت ، كان صوت امرأة ، وكان صادرا من منزل قريب من الطريق يصيح فى حشرجة باكية .

الحقنى يابوى .. فى عرضك يابوى .

والتفت الى الخفير يسأله :

ـ ماهذا ؟

ـ فأجابه :

ـ لا أدرى ، انما هذا بيت سيد أحمد أبو العلا ..

وكان بعد المدة التى قضاها فى الشرطة قد استطاع أن يتبين من اللهجة التى يجيب بها القروى ما اذا كان صادقا أو أنه يحاول التنصل من اجابة عن واقعة يعرفها معرفة اليقين .. تغريرا بالسائل .. أو خوفا من أداء شهادة .. أو مجاملة لقريب .. أو تسترا على متهم ، وخفراء القرية بطبيعة الحال أقارب أهلها ، وقد أحس

بأن للخفير رغبة فى أن يخفى عنه حقيقة يعرفها عن سر ذلك الصراخ الليلى ، فانتهزه قائلا :

ــ ألا تعرف من التى تصرخ ياولد ؟ ادخل هاتها لى هنا حالا .

وأيقن الخفير اذ ذاك أنه لن يترك الموضوع يمر بالبساطة التى كان يريدها له فأجابه :

ــ لابد أن تكون سكينة امرأته ، كانت متزوجة من عبد الله أبو المكارم شيخ البلد ولكنها عشقت هذا الولد فطلقت من شيخ البلد منذ بضعة أيام لتتزوج سيد أحمد .

وكان «هو» لايزال مرتابا فى أقوال الخفير ومال الى الاعتقاد أنه قريب الضارب وأنه يريد أن يوهمه بأن الأمر لايعدو أن يكون مضاربة بين زوجين ، ولكن صراخ المرأة ظل يدوى فى ظلام الليلة المقمرة ..

وتقدم الى باب البيت الذى كان يتعالى منه الصراخ ودق عليه بيده دقات عنيفة ، فسمع صوت رجل أجش يسأله من الداخل .

ــ من الذى يخبط ؟

فأجابه الخفير :

ـ افتح ياسيد أحمد ، «حضرة المعــاون» ، افتح ، جاءك خابط فى خشمك ٠

وفتح الباب بسرعة ٠٠ كانت غرفة حقيرة صغيرة قام فى ركنها فرن كبير وضع عليه مشعل ريفى يتصاعد منه ضوء أحمر باهت وقد نام حمار الى جانب الفرن ، ولمح فتاة فى نحو العشرين من عمرها ، طويلة القامة ، خمرية اللون ، ذات أنف دقيق مدبب الطرف ، وقسمات تنبىء بنــوع من الاعتزاز العنيــد ، أما عيناها فكانتا متوسطتى السعة ، ولكنه أحس وهو ينظراليهما بأنه أمام بئرين عميقين من آبار زيت ملتهب ، وأسرعت فأسدلت طرف الملس الأسود على مادون الأنف من وجهها زيادة فى احترامه ، ولكن اللهب كان لايــزال يشــع من العينين العميقتين ، ووقف لحظة يجيل بصره بين تلك الفتاة وبين الرجــل الرث الذى وقف الى جانبها وقد ارتدى جلبابا أزرق ولف وسطه بحــزام من الصوف وانكشف صــدره العريض عن كتلة من الشعر الأسود الكثيف وقد أمسك فى يده سوطا أسقطه من يده عندما رآه يجيل بصره فى أنحاء الغرفة ، واقترب من الفتاة يسألها :

ـ ما اسمك ؟

ـ فأجابته فى استكانة أحس أنها تكلفتها ، فقد كان مابقى مكشــوفا من قســمات وجههــا لايــزال ينبىء باعتزازها العنيد ٠

ـ خدامتك سكينة ٠

وعاد يسألها :

ـ انت التى كنت تصرخين ؟

فأجابت :

ـ نعم ياسيدى ـ ورمق الرجــل الواقف بنظرة ثم **ســأله :**

ـ انت ياولد كنت تضربها ؟

ـ فأجابه :

ـ نعم ٠٠ انها امرأتى يا «حضرة المعاون» ٠

ومد «هو» يده الى ثوبها فأزاح الملس عن أثر السوط على جلدها الخمرى ، ثم انتهره فى حدة ٠

ـ ألأنها امرأتك تضربها بهذه القسوة البشعة ؟ أوحش أنت أم انســان ؟ كيف اجترأت على كل هــذا ؟ واقتربت منه سكينة وهى تقول فى صوت منتحب ٠

ـ كدت أموت من الضرب ، أنا فى عرضك ٠٠

وسألها :

ـ متى تزوجت هذا الوحش ؟

ـ لم ينقض شهر واحد ٠

وهنا تمتم زوجها قائلا :

ـ اسألها متى عـرفته ، متى عشـقته ، متى بدأت مطاردته ٠٠

وتذكر ماكان قد أخبره به الخفير عن علاقة الغرام بين الزوجين قبل الزواج ، والتفت الى سكينة فوجدها تطرق الى الأرض فى حياء ريفى ، وشعر بأنه يجب أن ينتصف لهذه الزوجةالمسكينة وأن ينقذهامن ذلك الزوج الوحش الذى خيل اليه أنها خدعت فيه ، وأنها تتمنى أن تتخلص منه ، **فقال له :**

ـ خذ هذا الولد ياخفير الى «النقطة» يبيت فيها الى أن أرى فيه رأيا عند قدومى فى الصباح ٠

ووضع الخفير يده على كتف سيد أحمد أبو العلا زوج سكينة فى قسـوة ، ثم قاده الى النقطة واتجــه «هو» الى

بسيون لكى يقضى ليلته فى اســتراحة المجلس البلدى كالعادة ..

ولكنه لم يكد يخلع ثيابه حتى سمع طرقا على الباب ولما فتحه رأى عامل التليفون الذى أخبره بأن هناك امرأة عند باب المجلس تبكى وتلح فى أن تراه ، فطلب منه أن يحضرها .

ما أن رآها حتى دهش فقد كانت سكينة زوجة سيد أحمد أبو العــلا ، وظن فى بادىء الأمــر أنهــا أقبلت لتشكره ، أو لتتوسل اليه أن يفى بوعده فى أن ينقذها من زوجها ، ولكنها ارتمت تحت قدميــه وهى تصــيح باكية .

ــ وحياة أبيك ياحضرة المعاون تفرج عن زوجى ، أنا مسامحاه ــ وأطال النظر اليها .. ثم قال لها :

ــ ألا تحسين بآثار الســوط على جلدك ؟ ألا ترين الورم فى جسمك ؟

ــ انها غلطتى ، لقد ذهبت الى خالى فى الغيط دون اذنه وأنا أعلم أن هذا يغضبه ، المسامح كريم ياسيدى .

ولم تتركه سكينة ليلتذ الا بعــد أن أبلغ «نقطــة

القضابة» باطلاق سراح سيد أحمد أبو العلا لأن زوجته تنازلت عن شكواها .

وانتهت مدة انتدابه لرئاسة نقطة القضابة ، واستقال من عمله ليعود الى المحاماة ... والى تذوق اللون الذى تميل اليه روحه من حياة القاهرة ، ومرت الشهور والأعوام دون أن يسمع باسم سكينة ودون أن يعرف عنها شيئا .

الى أن ذهب ذات يوم مع زميل له الى أحد ملاهى الغناء والرقص وجلسا الى مائدة منعزلة بجانب غرفة من الغرف «الخاصة» التى أعدت لطبقة معينة من زبائن الملهى .

وظهرت على المسرح بضع راقصات شبه عاريات يؤدين رقصات متشابهة .

ووصل الى سمعه صوت صادر من الغرفة «الخاصة» ، صوت خيل اليه أنه سمعه من قبل ، وأنه يعرف صاحبته ، وتبين صوت رجل يقول :

ـ أتعرفين يا «فيفى هانم» انك مدهشة الليلة ، عيناك تشعان دفئا ساحرا ، أين مخرجى السينما . البله الأغبياء ؟ ..

وأجابته الأخرى ساخرة :

ــ لا ياشيخ ..

ــ صدقيني .

فأضافت وهي تطلق ضحكة عالية :

ــ منذ متى صدق رجل ؟ اشرب ، اشرب ــ وسمع رنين كؤوس تتلاقى ، وضحكات تعلو ، وفجأة .. ارتفع صراخ حاد .. وعادت الى مخيلته ذكرى الصراخ الليلى في الطريق الزراعى بين القضـابة وبسـيون ، وتكرر الصراخ في الغرفة المجاورة .. امرأة تصرخ :

ــ آى .. آى .. الحقـونى ياناس أما فى قـلوبكم رحمة ..

واندفع الجمهور الذى كان فى الملهى الى الغرفة وفتح بابها ، ورأى شابا يرفع أحد المقاعد ويهوى به فى ثورة جامحة ، على جسم راقصـة ترتدى ثوبا أنيقا من ثياب السهرة .

وثارت النخوة فى أحد الموجودين فهجم على الشاب يريد أن يضربه ورفع يده ليهوى بها على رأسه ، ولكنه رأى الراقصة المعتدى عليهـا تقف بسرعة لتحـول بين ضاربها وبين من يهم بالثأر لها منه ، **وهى تقول بصوت مبحوح :**

ـ لا ٠٠ دعه ٠٠ انه رفيقى ٠٠ مالك وماله ٠٠ نبه على ألا أشرب الخمـر مع من أجالسـهم وقد عصـيته ، أنا المحقوقة ٠٠

واقترب «هـو» من الزحـام ٠٠ ودقق النظـر الى الراقصة ٠٠ كانت هى ٠٠ هى سكينة زوجة سيد أحمد أبو العـلا ٠٠ قروية القضـابة ذات البشرة الخمـرية والأنف الدقيق ٠٠ والعينين اللتين كحلتهما حياة القاهرة فزادتهما فتنة واغراء ٠

وأقبلت صـاحبة الملهى تضـع على ظهر الراقصـة العارى وشاحا يخفى آثار الضرب التى تخلفت عن المقعد ثم دفعتها الى باب الملهى الخلفى فخـرجت سكينة يتبعها عشيقها ٠٠

وتفـرق النـاس ٠٠ والتقط «هـو» اعـلانا من الاعلانات الصغيرة التى توزعهـا الملاهى فى الطرقات فوقع بصره على صورة لسكينه وقد كتب تحتها «الراقصة المحبوبة الآنسه فيفى علوى» ٠٠٠

لقد تغير كل شىء فى سكينة قروية القضابة الجميلة ٠٠ حتى اسمها ٠٠ ولهجتها ، ولكنها بقيت المرأة التى تستلذ العذاب وتطمئن الى الألم ٠٠

شعراء كفر الدوار

شقراء كفر الدوار

كانت ليلة هائلة ٠٠ سنوات عديدة انقضت ، ولكن ذكراها لاتزال محفورة فى مخيلته ٠٠ ليلة من ليالى الشتاء القارص البرد الذى يعانيه أهل شمال الدلتا الذين يعيشون فى منطقة «البرارى» أو على مقربة منها ٠٠٠ وكان اذ ذاك منتدبا كمفتش مالية للتفتيش على أعمال المساحة فى مركز دسوق ، مع لجنة المساحة حتى بعد الغروب ثم أعطاه عمدة جناج ، وهى القرية التى كانت لجنة المساحة تؤدى عملها فيها ، جوادا هزيلا مع خادم قروى يعدو خلفه لكى يصحبه الى محطة سكة حديد

الدلتا . ليركب القطار الى طنطا فيقضى الليل بها ، على أن يعود فى صباح اليوم التالى لاتمام عمله ، فليس فى القرية مكان يصلح لكى يقضى فيه ليلة مريحة .. ووقف فى محطة جناج ينتظر القطار الهابط من فوه ودسوق الى كفر الدوار وبسيون حتى طنطا ..

وكانت ساعة المحطة تشير الى التاسعة والهواء يصفر صفيرا مخيفا .. الهواء القادم من «البرارى» الواسعة المترامية ، الى مابعد مدى البصر نحو ساحل البحر الأبيض .. تغطيها المستنقعات .. لاتكاد تنبت الا الحشائش التى تعلو وتتعانق أو «تتجهل» ـ كما اعتاد الفلاحون أن يعبروا عنها عندما تتكاثف وتتوحش ، ولا يكاد يسمع فيها أثناء الليل الا عواء الذئاب التى تعبث اذا جاعت ببعض القرى القائمة على حافة البرارى ثم تعود مسرعة لتختفى فى جوف غابات الحشائش .. ناظر المحطة .. وهو نفسه المعاون ، وعامل «التلغراف» ورئيس الحسابات ، قابع على مقعد خلف نظارته ذات الاسلاك المعدنية الملتوية داخل «الكشك» الخشبى الذى كان يترنح تحت ضغط الهواء البارد .

وأحس بضيق شديد وهو يسير على رصيف المحطة . اذا صح أن يسمى ذلك التل المرتفع من الطين المبلل

رصيفا • وفجأة هطل المطر فتلفت حوله عله يجد مايحتمي به حتى يصل القطار ولكنه لم يجد الا ذلك الكوخ فاقتحمه ،وأطل حضرة الناظر بعينيه فوق السلك المحيط بنظارته وحملق فيه طويلا ثم سأله هامسا :

ـ سيادتك من هنا ؟

فأجابه :

ـ لا •• أنا مفتش المالية أريد الذهاب الى طنطا • ومنتظر القطار •• وهنا وقف الرجل وأسرع بتقديم مقعد وهو يلح عليه في الجلوس برقة لم تكن تنم عليها جلسته المزهوة على مقعده ثم قال له :

ـ تفضل استرح ياحضرة المفتش •• عندى اشارة من دسوق بأن القطار سيتأخر •

وجلس •• جلس ينصت الى حديث ناظر محطة الدلتا •• الحديث الساذج الذى دار على بعض أخبار سياسية نشرتها الصحف اليومية قبل ذلك بأسبوع ، ولم يخفه عن التحدث بين كل فترة وأخرى الا الرد على دقات آلة البرق الموضوعة على مكتبه •• وظل الهواء يصفر خارج الكوخ الخشبى الذى كان لايزال يهتز بشدة وعنف وامتزج الصفير بعواء الكلاب المنوطة بها حراسة

بعض الحقـول المترامية على جـانبى السـكة الحـديدية «الضيقة» ، كانت فترة مملة كادت تخنق أنفاسه ٠٠

وأخيرا سمع صـوت القطـار قادما من بعيد ٠٠ وبانت أنواره الخافتة تطفو وتختفى ملتوية مضطربة فى ظلام الليل البهيم ٠

وتأهب لكى يكون فريسة ذلك القطار اللعين الذى اعتاد أن يرهق أعصابه كلما ركبه لمهام التفتيش فى تلك الجهات النائية ، ووصل القطار أخيرا الى محطـة جناج متأخرا كعـادته عن مـوعده ٠٠ وأسرع ناظر المحطـة فسلمه التذكرة بعد أن وقع له «استمارة» نزعها من دفتر «استمارات» السفر الذى كان يحمله ٠٠

وتقدم متثاقلا الى عربة الدرجة الأولى الوحيدة فى القطار ٠٠ يتبعه «ناظر المحطة» بمصباح فى يده ينير له الطريق مغالاة فى الرقة والكرم ٠

وصعد سلم القطار ثم فتح بابه وألقى نفسـه على المقعـد الجلدى الذى تراكمت عليه أتربة طـريق طويل شاق ٠٠ دون أن يعنى بازالة شىء من تلك الأتربة ٠ ولم يزيلها وهو موقن بأن أتربة أخرى سوف تتسلل من نوافذ القطار المحطمة وجدرانه المشققة بعد بضع دقائق !..

وتحرك القطار متجهـا الى طنطا التى لم يكن يعلم الا الله متى يصلها ٠٠ وأخذ يقلب صفحات قصة ولكنه لم يستطع أن يقطع فى القراءة بضع صفحات ٠ لم يمكنه النور الاحمر الخافت الذى كان مفروضا أن يضىء العربة من رؤية الكلمات ٠ كما أن موضوع القصة كانت تدور حول شاب دفع بصديق له الى ماء بحـيرة ليتخلص منـه فلما عاد الى منزله خيل اليه أن ماء البحيرة يعدو خلفه ٠٠ وصعد الى منزله فطارده الماء حتى الفراش ٠٠

وأحس بالضيق ففتح النافذة ، كان المطـر لايزال ينهمر بشدة فألقى بالكتاب بعيدا عنه ٠ ثم أغمض عينيه يحاول النوم ولكن خيل اليه من رجفة القطار أن عجلاته على وشك أن تنزلق وتهوى بالقطار ومن فيه الى مستنقع من مستنقعات المياه الآسنة المتناثرة على جانبى الطريق الزراعى ٠

وأخيرا وقف القطار فى محطة كفر الدوار ٠ نقطة من نقط الشرطة التابعة لمركز كفر الزيات على شـاطىء النيل ٠

ولم يكلف نفسه عناء النظر من النافذة لأن محطة كفـر الدوار لم تكن تختلف كثيرا عن أيـة محطـة من محطات سكك حـديد الدلتـا ٠ نفس «الكشك» الخشبى

ونفس «حضرة الناظر» الجالس أمام آلة البرق يشغل القائمة المعهودة من الوظائف والاختصاصات المختلفة ٠

ان ركاب القطارات قد اعتادوا أن يطلوا من نوافذها ليستقبلوا راكبا قادما ٠٠ زميلا جديدا ولكنه كان واثقا من أن محطة كفر الدوار لن تقدم له الزميل المجهول ٠ ولذلك دهش عندما فتح باب الغرفة ودخلت منه فتاة تحمل فى يدها حقيبة جلدية ٠٠ وضعتها الى جانبها فى رشاقة ثم أزالت طبقة التراب المتراكمة على المقعد الجلدى بمجلة وجلست ٠

كانت زميلته الجديدة ربعة القامة ٠ شقراء الشعر ٠

ولما تحرك القطار فتحت حقيبتها وأخرجت مجلة لبنانية أدبية كان يعرف أنها تعنى بالادب والشعر الحديث ٠٠ وبعض قصص أدباء الطليعة ٠٠ قصص اللامعقول ٠٠ ما الذى أتى بتلك الشقراء التى تقرأ ذلك الأدب الى كفر الدوار ؟

وأطال النظر الى زميلته وهو بين الدهشة والاعجاب ٠٠٠ وحاول أن يتحدث معها ، ولكنها كانت منهمكة فى القراءة ٠٠ وانتهت صفحة فرفعت بصرها بهدوء

وشملت الغرفة بنظرة فاحصة سريعة ثم تابعت القراءة في الصفحة التالية ، كانت عيناها ضيقتين ولكن خيل اليه أن فى نظرتها الوديعة عمقا خفيا لايتسنى لأحد أن يسبر غوره ٠٠ وفى حركة سريعة مد يده الى قصة البحيرة التى كان قد أبعدها عنه والتى ألقى المؤلف بأحد أبطال القصة الى مائها ثم أطلق ذلك الماء يطارده حتى الفراش ٠ وخيل اليه اذ ذاك أنه يسبح ٠٠ يسبح فى نظراتها العميقة ٠٠ على غير هدى من شاطىء أو غور !

واستمر قطار الدلتا سائرا كسلحفاة عجوز ٠٠ يقف بين كل برهة وأخرى فى تلك المحطات الصغيرة المتناثرة على طول الطريق ٠

وعاد يحاول أن يستشف سر تلك الفتاة التى أقبلت فجأة فى ظلام تلك الليلة كحلم هادىء جميل ٠

ما اسمها ؟ وماذا تفعل فى تلك الناحية من نواحى البرارى فى شمال الدلتا ؟

كانت ترتدى ثوبا أزرق ٠ كما كانت تزين معصمها بسوار أزرق وتفصل صفحات المجلة الملتصقة بقطعة من الورق المقوى الأزرق ٠ ان ذوقها الرشيق يدل على أنها

ليست قروية بل لابد أنها من مدينة أكبر من طنطا أو دسوق ، من القاهرة ؟ أو من الاسكندرية ؟

ولكن ما الذى قذف بها الى كفر الدوار ؟ مدرسة ؟ في كفر الدوار مدرسة ولكنه رجح أنها لاتحتاج الى مثل تلك الفتاة ؟ طبيبة ؟ لم يطمئن أيضا الى تلك الفكرة لانه لم يسمع أن فى كفر الدوار مستشفى ..

وفكر فى أن يبدأ معها الحديث ولكنها كانت منهمكة فى القراءة رغم ضعف النور الأحمر الخافت الهابط من أعلى الغرفة . قسمات وجهها تعبر أحيانا عن بعض المعانى التى تصادفها أثناء القراءة .. ولكن نظراتها كانت أكثر تعبيرا عن تلك المعانى .

وعاد يذكر قصة البحيرة .. صفحة الماء فيها تعكس صور الأشجار وظلال التلال المحيطة بها .. فاذا زمجر الرعد وهطلت الامطار وهبت الرياح ثارت الامواج واشتركت فى لطم الشاطىء ، واذا هدأت العاصفة وتحولت الى نسيم عليل انبسطت صفحة الماء .. مرآة تعكس لوحة الاشجار وظلال التلال المحيطة بالبحيرة ..

ومر القطار ببسيون .. وتنظيم بسيون وتهادى فى سيره عند كفر العرب .

وزاد الظلام حلكة وسوادا ، وتراكمت الرهبة على كل ماحوله حتى خيل اليه أنه يجتاز نفقا ٠٠ وفجأة حمل الهواء الى سمعه صوتا يرتل موالا مطلعه :

فيك ناس ياليل بيشكولك مواجعهم
بالله ياليـل ماتبقـاش تواجعهـم

ولم يكن قد سـمع ذلك الموال من قبـل ، ولم يكن يدرى ما اذا كان قديما أو حديثا ولا من ناظمه أو ملحنه ٠٠ ولكنه مع ذلك شعر براحة وهو يستمع الى صوت ذلك المجهول الذى كان ينشده ٠٠

واقترب من النافذة التى كان الصـوت مقبلا من ناحيتها ٠٠ فلمح سيارة من سيارات الاجـرة الريفية تسير تحت وابل المطر المنهمر فى الطريق الزراعى ٠٠ كان قائدها ينشد الموال فى نشوة ، واستمر الصوت يردد فى الهواء العاصف بقية الموال ٠

«أجريت ياليل على الخدين مدامعهم
باتوا حيـارى بطول الليل نواحين

م الخوف ياليل ليطول المدى معهم »

والتفت اذ ذاك الى زميلته الجالسة أمامه فوجـدها قد أغلقت المجلة واقتربت مثله الى ناحية النافذة وأطلت

من خلف زجاجها المهشم الى السيارة التى كانت تتأرجح على وحل الطريق .. وفجأة وجد رأسه قد اقتربت من رأسها . وحدق الى عينيها فى ضوء الغرفة الأحمر وعاد يسبح فى نظراتها .. النظرات العميقة التى كانت تعكس معانى الموال .. وكأنها تردده كلمة .. كلمة .

وعاد الصوت ينشد :

« أجريت ياليل على الخدين مدامعهم

على الخدين .. مدامعهم .. مدامعهم»

وخيل اليه أنها تغالب رغبة فى البكاء اذ أخرجت منديلا مرت به على جبينها ثم سألته فى لهجة رقيقة .

ـ من هذا ؟

وعندئذ أجابها :

ـ من أنت ؟

فاعتدلت فى جلستها وأرسلت ضحكة عالية ثم أجابته :

ـ ياسلام .. مالك تسألنى بهذا الغل ؟

ـ كيف لا أشعر بهذا الغل وأنت معى منذ ساعة دون أن أعرف من أنت ..

ـ يعنى لازم تعرف ؟

ـ لم لا ؟

ـ واحـــدة

ـ عارف .. ولكن ..

ـ ولكن ماذا ؟

ـ ولكن من هى الواحدة ؟

ـ واحدة ركبت معك من محطة وستتركك فى محطة ثانية .

وعادت تلتفت الى الطـــريق الزراعى .. وتنصت فى اهتمام للصوت المجهول الذى كان لايزال ينشد الموال .. ثم أرسلت ضحكة أخرى وقالت له :

ـ تعرف أن قطار الدلتا طيب .. لو زادت سرعته لما كنا سمعنا هذا الموال :

وكان القطار فعلا قد تباطأ فى سيره .. حتى خيل اليهما أنه انتشى من روعة الموال هو الآخر .

وفجأة تلاشى الصوت تدريجيا .. وتبين أن الطريق الزراعى قـــد افترق عن شريط القطار ... وعـــادت

زميلته تقرأ مجلتها كما عاد هو يتظاهر بقراءة القصة التى معه ٠

ولما وصل القطار الى طنطا حملت حقيبتها وأحنت له رأسها فى رقة ثم هبطت من القطار وخرجت لكى تقفز الى أول عربة صادفتها ٠

ووقف «هو» على افريز المحطة الخارجى ينظر الى شقراء كفر الدوار وهى تختفى عن بصره فى طرقات طنطا ٠٠

وانقضت على تلك الليلة بضعة أعوام ٠٠ لم ير فيها شقراء كفر الدوار المجهولة ولكنه ظل محتفظا بذكرى تلك الساعات التى قضاها يطيل النظر الى عينيها أو ٠٠ السباحة فى نظراتها العميقة المعبرة ٠٠ وكلما مرت تلك الذكرى بخاطره عجب لما حدث ٠٠ لم يتهيب من قبل مبادرة سيدة تشاركه عربة قطار أو تجلس الى جانبه فى قاعة مسرح أو دار سينما بالحديث اذا سنحت فرصة لذلك ٠٠ ولكنه ليلتئذ ليلة أقبلت شقراء كفر الدوار لتشاركه غرفة قطار الدلتا اضطرب ٠٠ وتهيب بدء الحديث معها حتى بادرته هى ٠٠ وصمم على أنه اذا التقى بها مرة أخرى فسوف يتقدم اليها ليصافحها

ويتحدث اليها ثم ·· ثم يدعوها ·· لغداء أو عشاء ·· ولكن ·· مرة أخرى ·· وعلى خلاف عادته ·· عاد يتساءل «لم لاتكون مرتبطة برجل آخر ·· متزوجة ·· أو مخطوبة ·· أو عاشقة ؟ »

وفى خلال هذه الأعوام الأخيرة حدث أن لمح مرة فتاة خارجة من باب متجر من متاجر شارع ٢٦ يوليو ، فتاة لها قامتها وشعرها الأشقر بل وقسمات وجهها ·· فعدا خلفها وحدق ·· حدق فى عينيها وعندئذ تبين أنها أخرى ·· ان عينى شقراء كفر الدوار التى سبح فى نظراتها ذات ليلة لايمكن أن يخطىء الاهتداء اليها ··

وأخيرا فى ليلة من ليالى هذا الشتاء ذهب الى حفلة من حفلات الموسيقى الشرقية يستمع الى صوت مطرب عرف بتوفره على انشاد ماجرى العرف على تسميته بالغناء القديم ··

وفجأة ارتفع صوته بالموال نفسه ·· الموال الذى سمعه فى تلك الليلة الهائلة وهو جالس فى قطار الدلتا بين كفر الدوار وطنطا ··

«فيك ناس ياليل بيشكوا لك مواجعهم» واهتزت

أركان القاعة بصوت المطرب ·· وهو يكرر «أجـريت ياليل على الخدين مدامعهم ··مدامعهم ·· مدامعهم ··»

وعندئذ خيل اليه أنه سمع أنينا خافتا فلما التفت الى مصدره لمح خلفه فتاة ربعة القامة ، ممتلئة الجسم ، شقراء الشعر ، تردد بعض كلمـات الموال وهى تدنى منديلها من شفتيها كأنها تغالب مايشبه البكاء ·

وارتجف ·· فقد تجسمت أمامه ذكرى ليلة قطـار الدلتا ، وانتظر الى أن رفعت الفتـاة الشـقراء منديلها لتصفق للمطرب ·· عيناها · عينـاها ·· نفس عينى شقراء كفر الدوار ·· ونظراتها ·· النظرات العميقة المعبرة لم يستطع فى ظلام القاعة أن يقطع بأنهـا نفس النظرات التى حملته وهو يسبح على أمواجها ·· هل هى نفس شقراء كفر الدوار ؟

التفت الى جارته أكثر من مرة ليتأكد ··

وظل المطرب ينشد الموال و «هو» لايحول بصره عن الفتاة الجالسة خلفه ·· كلما أطال التحديق كلمـا زاد اعتقادا بأنها هى نفس الشقراء التى شاركته رحلة قطار الدلتا قبل بضعة أعوام من قرية كفر الدوار الى طنطا ·

وخشى أن يتردد كما تردد ليلتئذ ٠٠ اعتزم ألا يتهيب مبادرتها بالحديث ٠

وفى فترة الاستراحة تعمد أن يدنو منها وأن يهمس فى أذنها ببضع عبارات اعجاب بالاغنية وتأثر بمعانيها ولمح فى نظراتها اعجابا متبادلا وتأثرا مستجيبا ٠٠ فزاد اقترابا منها وفى زحمة الجمهور همس فى أذنها :

ــ أذكر أننى رأيتك من قبل ؟

فرفعت رأسها فى رشاقة وسألته :

ــ آين ؟

وعندئذ تغابى وقال :

ــ جهة ما ٠٠ فى شمال الدلتا ٠٠

فقطبت حاجبيها كطفلة ثم أجابته :

ــ لا أذكر ٠

ــ ألا تذكرين أنك ركبت قطار الدلتا ذات مرة ؟

ــ أذكر أننى ركبت أحد تلك القطارات التى ألغيت منذ بضعة أعوام و ٠٠٠ ولكننى لا أذكر اننى التقيت بك من قبل ٠٠

ـ طيب ، لقد التقينا هنا هـذه الليلة ٠٠ الى من أتشرف بالحديث ؟

ـ يعني لازم تعـرف ! أنا آسـفه لأنني لم أتمالك نفسي من ترديد بعض كلمات هذا الموال ٠٠ أخشى أن أكون قد أزعجتك بهمسي وأنت منسجم مع هذا الموال ٠٠ المدهش ٠

ـ المدهشة هي أنت ٠٠

ـ لم ؟

ـ لا أعرف ٠

ـ عجيبة !

ولما عاد الى منزله ليلتئذ كان قد تواعـد مع زكية صبرى الطبيبة بأحـد مستشفيات وزارة الأوقاف على اللقاء في مساء اليوم التالى فى احدى غـرف مطعم من مطاعم شارع الهرم لتناول العشاء ٠ دون أن يتيقن تماما مما اذا كانت «زيزى» هى نفس شقراء كفر الدوار التى جلست معه بضع ساعات في قطار الدلتا بين كفر الدوار وطنطا أم لا ٠ لم يعد يعنيه ذلك فان نظرات « زيزى » الجديدة ٠٠ عادت تحمله في رفق الى الشاطىء المنشود ٠٠

شاطئ الأحلام التى ظلت تراوده خلال بضعة الاعـوام الأخيرة ..

ولما جلس الى جانبها فى تلك الغرفة الضيقة ذات النور الأحمر الخافت التى ضمتهما فى مطعم شارع الهرم .. تخيل غرفة الدرجة الأولى فى قطار الدلتا وقد أزيل عنها تراب البرارى المتراكم ، وجددت جدرانها المحطمة، وأصلح زجاج نوافذها المهشمة ..

وشرب مع «زيزى» كأسا وثانية .. وثالثة ، لم يكن يطيق من قبل الافراط فى الشراب . ومـع ذلك فانه انساق الى الشراب ليلتئذ .. كان مطمئنا الى نظراتها .. نظرات «زيزى» ..

وتحـدث حديثا قصيرا عن الشـعر ، والقصـة ، وأسرعت زيزى فحكت له قصة زواجهـا وطـلاقها .. الزواج الذى قد يجهله الكثيرات من زميلاتها وصديقاتها ومع ذلك فانها أفضت اليه بسره كأنها تعرفه منـذ أمد طويل .. وأرسلت «زيزى» تنهيدة طويلة . فشعر كأن سكينا تسل وتحـز فى قلبه ، والتقت عينـاه بعينيها . عينيها العجيبتين دائما .. لم ينتبه الا وهـو غارق فى قبلة طويلة .

وتعددت لقاءاتهما ·· وكان «هو» يزداد فى كل مرة تعلقا بها ·· وانحنت عليه ذات مرة تسأله وهى تتكىء برأسها على كتفه ·

ـ هل أنت حر ؟

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أعنى أنك لاتعرف امرأة أخرى ؟

فدهش لذلك السؤال · ان «زيزى» التى انتظرها أربعة أعوام قد بدأت تغار ، وقبل أن يجيبها استمرت قائلة :

ـ لقد ترددت كثيرا قبل أن أجىء الى هذا الموعد·· أطلت التفكير فى هذه العلاقة وفى التساؤل عن مصيرها ·· خطر لى أن أقف على الافريز فى الجانب الآخر من الشارع وأن أكتفى برؤيتك من بعيد ثم أنصرف ·· ولكننى عندما رأيتك تدخل هذا المقهى لم أشعر بنفسى الا وأنا أعدو خلفك ·· لاأذكر أننى فعلت ذلك من قبل طول عمرى ·· انما ·· ـ واضطرب صوتها فطوقها بذراعيه وسألها :

ـ ماذا يازيزى ؟

ـ لا أعرف · أنا خائفة من هذه العلاقة ·· جربت

بختى مرة واحدة من قبــل ٠٠ لا أريد أن أجــربه مرة أخرى ٠ حاذر أن تلعب بى ٠٠ ياحمدى ٠٠

وتبين من تهدج صوتها واضــطراب أهــدابها أنها قاومت لكيلا تفضى اليه بما أفضت به فلم تفلح ٠ لقــد صارحته بكل شىء ٠٠ وكان يوقن بأنها أحست بنفس الاحســاس الذى كان مســيطرا عليه ٠٠ كان يجب أن يتعارفا ويتحابا قبل ذلك ببضعة أعوام ٠٠

وتحــدثت زيزى بالتيلفون ذات ليــلة ، وعــادت فصارحته بأنها تخشى أن تتورط فى عــلاقة لاتعــرف مداها ٠ وتبين «هو» أنها تتوقع أن تسمع منه مايشجعها ٠٠ كلمة حب ٠٠ عبارة تبعث الامل ٠٠ ولكنه اقتصر على أن أكد لها أنه سعيد بلقائها ٠٠ ثم تكلف الصمت٠ وخيل اليها أن شــكوكها تحققت وأنها تغــامر فى حب ليست موقنة بأنه يبادلها اياه ٠٠ ولما قال لها ــ أكدت لك أننى سعيد اذ عرفتك ــ أجابته فى سخرية :

ــ وأنا أسعد منك !

ــ وبعد ٠٠٠

ــســأحتفظ فى صــدرى بأعز الذكريات عنك ٠ سنظل صديقين ياحمدى وسنلتقى ٠٠

ولكنه قاطعها قائلا :

ـ أرفض هذه «الصـداقة» .. أتفهمين ؟ كل شيء أو لا شيء ...

ثم وضع السماعة دون أن ينتظر جوابا منها .

ولكن القدر لم يشأ أن تنتهى قصـة حمدى وزيزى عند ذلك الحد . ففى مساء أحد أيام الاسبوع التالى كان مستمعو الاذاعة ينصتون الى صـالح عبد الحى ينشـد موال :

« فيك ناس ياليل بيشكولك مواجعهم
بالله ياليـل ماتبقـاش تواجعهـم »

ولم يكد ينتهى الموال حتى أعلن المذيع فى برنامج مايطلبه المستمعون بين أسماء من طلبوا اعـادة اذاعـة الموال .. زكية صبرى و .. حمدى عبد السلام ..

كان المستمعون يتابعون كلمات الموال .

« أجريت ياليل على الخدين مدامعهم
م الخوف ياليل ليطول المدى معهم »

دون أن يعرفوا أن زيزى وحمدى قد جمعهما حديث تليفونى .. اتفقا فيه على لقاء جديد ..

وضحيــة أخــرى

وضحية أخرى

ــ أود أن أراك .. أن أراك فقــط يارأفت .. لا أطلب شـــيئا كثيرا .. لا أطمــع فى أن تعيش معى ولا أن .. أن تحمل هم الانفاق على .. كل ما أطلبــه أن أراك .. مرة كل يوم .. كل يومين .. كل أسبوع .. مرة فى الاسبوع يارأفت أجىء اليك أين كنت لأراك ثم أنصرف ..

تساقطت هذه الكلمات على أذنه عبر الحاجز الخشبى الذى يفصل الغرف «الخاصة» التى أعــدها أحد مطاعم القــاهرة لمن يود من زبائنــه أن يتجنب قاعــة المطعــم

المحتشدة .. تساقطت الكلمات من احــدى تلك الغرف وهو يتناول طعام العشاء مع زميله على مائدة قريبة من باب تلك الغرفة .

وكان يوما غـــريبا من أوله .. بدأه فى الصـــباح بالحضور عن موكل له اتهم زوجته بارتكاب جريمة الزنا مع طـالب شاب وقد حـاول ، عبثـا ، أن يقنع موكله بالاكتفاء بطلاق الزوجة اتقاء الفضيحة في ساحة المحكمة وحرصا على مستقبل الاطفال الذين سيحملهم الحكم بادانة أمهم وزرا هم منه أبرياء ... وفى نفس الجلسة استمع الى تفاصيل قضية أخرى .. كان ظاهرها بلاغا قدمه محام أجنبى متقاعد يتهم فيه شابا مصريا باخفاء لوحات ذات قيمة فنية نادرة مسروقة من منزل المحامى العجوز فاذا بزوجة هذا المحامى ، وهى الاخـــرى عجــوز ولكن متصابية ، تتقدم لتشـــهد بأن اللوحات لم تسرق وانما أهدتها هى الى الشاب المصرى .. واذا بجو الجلسة يتقد عندما نسب المحامى الى زوجته أنها «عشـــيقة» الشـــاب الذى اتهمه بالسرقة .. واذا بها تقدم الى القاضى صورا ورسائل تدل على أن زوجها ارتكب جريمة الزنا مع احدى صديقاتها فى منزل الزوجية .. وأن اللوحات المزعوم

سرقتهـا بعض « مهـرها » الذى دفعتـــه أسرتهـا له فبدده ··

وغادر المحامى الشاب قاعة الجلســة ظهر ذلك اليوم ساخطا ·· ساخطا على نفسه لأنه جارى موكله فى اثارة فضيحة كان يمكن اتقــاؤها بالطــلاق ·· وساخطا على موكله الذى تبين له منذ أيام الزواج الاولى أنها حملت على الزواج منه وأنها لم تشعره بحبها قط وطالبته مرارا بالطلاق فأبى و ·· وأنجب أطفالا أصر على أن يلوثهم بما اقترفته أمهم من وزر ! ·· وساخطا على العجوزين اللذين لم يرحما ذكريات زوجيــة دامت عشرات السنين فتبادلا فى قاعة الجلسة أحط التهم ··

كان يومئذ ساخطا على نفسه ·· وعلى الناس ·· وحاول فى المساء أن يعمل بمكتبه كما اعتاد كل مساء ولكنه لم يستطع أن يركز تفكيره فيما تصفحه من ملفات ··· فما كاد أحد أصدقائه يزوره ويعرض عليه تناول العشاء فى ذلك المطعم حتى انصرف معه ·

وجال ببصره فى القاعة الواسعة الى مصدر الصوت الذى كان يرسل تلك الكلمات في نبرة مرتجفة ·· باكية

فلمح فتاة لفت نظره أنها تركت شـعرها الأسود يتهدل حتى ليكاد يحجب عينيها ·· فلم يتبين قسمات وجهها فى بادىء الأمر ·· الا أنه رجح بعد أن هزت رأسها لتبعد الشعر المنكوش المتهدل على عينيها أنها لاتتجاوز الثانية والعشرين ·· كانت تجالس رجـلا فى نحو الخمسين من عمره أمسك بكأس من الخمر وهو يطيل النظر اليها ·· وقد ظن المحامى الشاب أن توسـلها موجه اليه ، **ولكنه سرعان ماسمعها تتابع كلماتها المنتحبة :**

ــ أؤكد لك ياسيدى أنه لايعطينى الآن قرشا واحدا ولكننى مع ذلك أحبـه ·· ــ ودهش لتلك الفتـاة التى تسرد بصوت مسموع قصة غرامها ·

وسأل صديقه الذى اعتاد التردد على هذا المطعم ·

ــ أتعرفها ؟

فأجابه :

ــ لم أرها الا فى هذا الاسبوع · ترددت فى الليالى الثلاث الأخيرة لتناول العشاء ·· وفى كل ليلة تصـعد الى النزل اللبنانى الذى يقع فى الطابق الأول فوق المطعم ··· علمت أنها لبنانية وأنها تسكن هـذا المنزل منـذ أيام قليلة ·· وأن اسمها مادلين ·

وعاد «هو» يطيل النظر الى الفتاة .. بدأ يتبين جمال عينيها كلما أبعدت الخصلات المتهدلة عنهما .. والارهاق الذى كان يبدو على وجهها لم يخف فتنة قسماته ... وأحس بعطف على تلك الفتاة ولكنه سرعان ما استعاد وقائع القضية التى ترافع فيها يومئذ والاخرى التى استمع الى تفاصيلها ، فانصرف بصره عن الفتاة الجالسة على مقربة منه وحاول أن يلتمس حديثا عن موضوع آخر ..

وفى تلك اللحظة استأذن الرجل الذى كانت الفتاة تجالسه وانصرف .

وبقيت الفتاة ذات الشعر المنكوش المتهدل وحدها ... كانت تدخن بشراهة ، وكانت تتلفت حولها وترفع رأسها التى تكاتفت حولها سحب الدخان ثم تشهق شهيقا طويلا وكأنها تلتمس هواء نقيا جديدا .. وأطفأت سيجارتها وألقت بها الى المنفضة ثم أشعلتها ثانية .. واعتمدت رأسها على كفها .. وكأنها تاهت فى غيبوبة .. فلم تحس بالسيجارة وهى تفلت من أصابعها وتقع على غطاء المائدة الابيض لكى تحرقه ..

وأسرع «هو» فأعاد بقية السيجارة المشتعلة الى المنفضة وانتبهت هى اذ ذاك فجأة لتسأله :

ـ ماذا حدث ؟

فأجابها :

ـ لاشيء ·· ثقب صغير فى غطاء المائدة ·· هـذا خير من أن تعرضى أصابعك للهب السيجارة ·

ورفعت الفتاة رأسها اليه ثم هزتها فى بطء شديد وهى تتكلف ابتسامة وتمتمت ·

ـ أشكرك ·· قلبك أبيض !

ـ من أين جاءك ؟

ـ لم يخبرنى أحـد ·· ولكنـك تظن أن حـريق أصابعى يؤلمنى ·· ها ·· ها · ان من يحترق قلبه بين أضلعه ·· لايهتم بمثل هذه الصغائر ·· حرق أصبع أو بتره ·

وشهقت مرة أخرى شهيقا طـويلا ثم زفرت نفسا حادا ·· وحدقت اليه ·· وفهم «هو» أنها تود أن تقول شيئا ·· أو أن تكمل حديثا بدأته مع الرجل الآخر الذى كان يجالسها فانصرف عنها قبل أن تكمله ··

ولم تدعه يطيل التفكير اذ أنها أشـارت الى المقعد الخالى أمامها قائلة وهى تبتسم :

ـ تفضل ـ والتفت الى صديقه الذى كان اذ ذاك يتأهب هو الآخر للانصراف ، **وخيل اليها أنه يتردد فقالت وهى ترسل ضحكة جافة :**

ـ لاتخشى شيئا ٠٠ فقد تناولت عشائى وسددت حسابى !

وضحك «هو» الآخر لهذه الملاحظة ثم قال لها :

ـ ليس هذا ما أخشاه ٠٠ وانما أخشى أن تكونى فى انتظار أحد ٠٠

ـ أحد ! من يكون ذلك الذى انتظره ؟ من هو الذى يستحق حتى أن يخطر ببالى بعده هو ؟

ـ من هو ذلك الذى تقصدين ياسيدتى ؟

وعندئذ عادت الفتاة الى الاطراق ٠٠ ولمعت عيناها بالدموع ثم ٠٠ همست ٠

ـ ألا تعرفه ؟ على رأفت ٠٠ عجبا ؟ ٠٠ كيف لا تعرفه ٠٠ وهو الذى قدمنى اليك ٠٠

وقطب جبينه ثم حدق النظر اليها ٠٠ مندهشا ٠٠ ولكنها تابعت كلامها قائلة :

ـ هل تظن أنك كنت تعرفنى لو لم يطردنى رأفت

من بيته ؟ لقد قدمنى رأفت اليك ٠٠ والى ذلك الرجل العجوز الذى كان جالسا أمامى الآن يتجرع كأس «الكونياك» كخنزير ظمآن ٠٠ والى صاحبة هذا المطعم والمنزل الذى أسكنه فى الطابق العلوى ٠٠ ــ وأرسلت الفتاة ضحكة جافة أخرى ثم قالت :

ــ ان صديقك من المترددين على هذا المطعم ٠٠ رأيته عدة مرات فى هذا الاسبوع ٠٠ وصاحبة المطعم تعرفه ٠٠ لا أدرى اذا كانت قد رددت له ما أذاعته أمام الكثيرين عنى ٠٠ انها تذيع اننى منهارة الأعصاب ٠٠ مختلة القوى العقلية ــ ورفعت الكأس التى فى يدها وتجرعت مابقى فيها ٠٠ ثم أشعلت سيجارة أخرى واستمرت قائلة فى حشرجة :

ــ لست مجنونة أقسم لك ! ولكننى فقط أحببت رأفت ٠٠ من العجيب أن هذا الحب لايعود الى مدة طويلة ٠٠ رأيته لأول مرة منذ عام ٠٠٠ فى مثل هذا الشهر من العام الماضى ٠٠ كنت اذ ذاك أشتغل عاملة عند أحد تجار الأقمشة ٠٠ آه ٠٠لو كنت رأيت «مادلين»اذ ذاك ٠٠!٠٠ هاتان العينان اللتان لاتكاد تتبين ان كانتا مفتوحتين أم مغلقتين ٠٠ كم كانتا جميلتين ! ٠٠ نسيت أن أخبرك أننى لبنانية ٠٠ ولكننى مولودة فى مصر ٠٠

وزادت دهشته بل مال الى الاعتقاد أن تلك الصدمة العاطفية قد أخلت بقواها العقلية ولكنه مع ذلك تظاهر بأنه لم يلحظ شيئا عليها وتركها تسرد قصتها ٠٠ أنصت اليها باهتمام فقد أثرت اللبنانية الشابة عليه بعد أن عرف جزءا من قصتها ٠ أثارت عطفه ٠٠ الى حد نسى معه الشكوك التى كانت ترهق أعصابه طول اليوم ٠٠

ان رأفت ليس جميلا الى حد الفتنة ٠٠ رجل عادى ٠٠ كما أنه ليس شابا صغيرا ٠٠ أكبر منها بأكثر من عشرة أعوام ٠ فى الرابعة والثلاثين من عمره ومع ذلك فقد أحبته ٠٠ كان طيبا معها ٠٠ لقد صارحها منذ اليوم الأول الذى خرجت فيه معه لقضاء نزهة فى القناطر الخيرية أنه متزوج ٠٠ وأن له أبناء من زوجته ولكنه أخبرها أنه منفصل عن زوجته ٠٠ لاتستطيع أن تقول أنه خدعها ٠٠ ان لسانها لايطيعها لو أرادت أن تطعن فى رأفت ولكنها يجب أن تقول ان طيبته أغرتها على أن تندفع فى غرام مجنون ، غرام مجدب لا ثمرة له ٠٠ لقد ضحت بكل شىء من أجله ٠٠ ضحت بأسرتها ٠٠ انها أسرة لبنانية معروفة فى الاسكندرية ٠٠ وضحت بمستقبلها لانها كانت تستطيع أن تجد بسهولة شابا يكفل لها حياة زوجية سعيدة ٠٠ وضحت بعملها ٠٠ لأن

رأفت كان يغار عليها غيرة شـديدة ٠٠ كان يتردد فى أوقات مختلفة على المتجر الذى تعمل فيـه ليراقبها ٠٠ وحدث ذات يوم أن لمح أحد موظفى المحـل يخطف منها حقيبة يدها مداعبا فهجم رأفت عليها وأخذ يدفعها دفعا ويسبها أمام الجميع وهى تحاول عبثا أن تقنعه بأن زميلها الموظف انما كان يداعبها مداعبة بريئة ٠٠ فكانت تلك الحادثة سببا لفصلها من عملها ومع ذلك فانها لم تحقد على رأفت لانها كانت تحبه ٠ ورضيت بأن تعيش معه فى شقة صغيرة بشبرا ، عيشة ، بل سعدت بتلك العيشة ٠٠ كان مرتبه البسيط كفيلا بتـدبير مايلزم لتلك العيشة السـعيدة ٠٠ لم تكن تفـكر قط فى أسرتها ٠٠ التى ضحت بها ولا فى عملها الذى فقدته ٠٠ كانت تعد لرأفت طعام الافطار فى الصباح المبكر لكى يصل الى محل عمله ببنها فى موعده ثم تقضى بقية النهـار فى كنس البيت ٠٠ والطهى ٠٠ أو فى القراءة حتى يعـود ٠٠ فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل كان يجـدها هناك فى البيت مشتاقة للقائه ٠٠ جرب العودة فى مواعيد مختلفة ليمتحن وفاءها فكانت دائما فى البيت ٠٠ بل انه كثيرا ماكان يدعوها لمرافقته الى شرفة أحـد المطاعم بشارع ألفى حيث اعتـاد الجلوس فكانت تقبل مـرة وترفض

مرات ·· كانت تعلم أنه يعود من عمله فى بنها مرهقا وقد يكون فى حاجة الى الجلوس منفردا مع أصـــدقائه ففضلت دائما أن تتركه حرا ·

وسكتت الفتاة قليلا ·· وعادت تطرق الى الأرض ثم تمتمت :

ــ الى أن كانت تلك الليلة ·· منذ ثلاثة أسابيع ·· **وعاد رأفت الى البيت فى ســاعة مبكرة من الليل ·· وسألنى :**

ــ انت عارفة الهدوم التى جئت بها الى البيت ؟

فدهشت وسألته :

ــ هدومى ؟

ــ نعم

ــ لم ؟ ماذا جرى ؟

ــ لاشىء ، مراتى ستعود الى البيت ولا يصح أن تجد هدوم امرأة أخرى ·

وشهقت اذ ذاك شــهقة حــادة ·· وأسرعت اليه تطـوقه بذراعها وأنا أبكى ولكنه دفعنى برفق وهــو يقول :

ـ لا تتعبى نفسك يامادى ٠٠ أنا لازم أرجع امرأتى ٠٠ الواجب يحتم على أنى أرجع لامرأتى من أجل ابنى ٠٠ ابنى فكرى ٠٠ كبر ، أصبح عمره عشر سنين ، لازم ٠٠ يكون تحت ملاحظتى و ٠٠ رعايتى ٠٠

فقلت له وأنا أستجمع قواى :

ـ أنا أخدمه ٠٠ أقعد تحت رجليه يارأفت ٠٠ أنا أحطه فى عينى ٠

ولكنه أدار رأسه الى جهة النافذة لكى يخفى تأثره وأجابنى فى لهجة حاسمة :

ـ لا ٠٠ لافائدة يامادى ٠٠

ـ ماذا تعنى ؟

ـ يعنى لازم نضع حد لهذه العلاقة ٠٠ أنا أرجع لامرأتى ٠٠ وأنت ٠٠

ـ وأنا أين أروح ؟

وهنا لم يستطع رأفت أن يجيب ٠٠ فعدت أسأله :

ـ أين أروح يارأفت ؟

وعندئذ أفلت من بين ذراعى واتجه الى النافذة ٠٠ ليخفى دمعة سالت على وجنته ٠

ـ انه طيب القلب كما قلت لك ٠٠ لقد كان مضطرا أن يعود الى زوجته من أجل ابنه ٠٠ لم يخدعنى منذ البداية ٠٠ صارحنى بأنه متزوج وبأن له ابنا ٠٠ وعندما تركنى ليلتئذ كان يبكى ٠٠

وأنصت «هو» الى قصة الفتاة التى حطم الحب أعصابها ٠٠ فجعلها تهذى ٠٠ وتتحدث بسرعة ٠٠ وتنتقل ملتوية متعثرة من موضوع الى آخر كحمامة مذبوحة ٠

وكان صديقه اذ ذاك قد انشغل بمحادثة صاحبة المطعم بعد أن دعاها لتناول كأس من الكونياك ٠٠ وزادت دهشته من حالة مادلين ٠٠ اللبنانية التى ألقى بها عشيقها الى عرض الطريق ومع ذلك فهى لاتزال تذكره بكل خير وتؤكد أنه طيب القلب ٠٠

وأحس بميل الى أن يسألها :

ـ وماذا فعلت بعد أن تركك ؟

فاعتدلت فى جلستها ورفعت رأسها فى شىء من الزهو ٠

ـ لاشىء ياسيدى ٠٠

ثم أدارت رأسها ورفعت يدها تمسح بها جبينها

كأنهـا تتذكر شـيئا ·· ولحظ «هو» أنهـا شردت ·· وتمتمت بعد صمت طويل ·

ـ عم كنت تسألنى الآن ؟ ·· آه تريد أن تعرف ماذا فعلت بعد أن طـردنى رأفت ·· اننى أتلذذ من تكرار كلمة (طردنى) ·· لست أدرى لماذا ؟ لقد بحثت لى عن عمل فى نفس المتجر الذى كنت أعمل فيه من قبل وفى غيره فلم أوفق · ولذا اضطررت أن ألجأ الى «أستاذ» من أساتذة الرقص علمنى رقصة أسبانية ·· أؤديهـا مع أغنية ·· وبعد أن اطمأنيت الى ذلك حاولت أن أتصل برأفت لكى أرجوه أن يسـمح لى برؤيته فلم أوفق ·· مررت كثيرا تحت نافذة المنزل فلم أجده ·· وقفت وحدى عند محطة ترام شبرا التى اعتدت أن أنتظر معه عندها فلم يحضر ·· وأخيرا ·· بطريق الصدفة كنت خارجة من عند أستاذ الرقص فى شارع شريف فلمحته وعدوت اليه ثم قلت له :

ـ أريـد أن أراك ·· أن أراك فقط يارأفت ·· لست أطلب شيئا كثيرا ·· أريد أن أراك مرة كل يوم ·· كل يومين ·· كل أسبوع ·· مرة فى الاسبوع يارأفت أجىء اليك أين كنت ثم أنصرف ··

وسكتت قليــلا وهى تلهث كأن الحــديث أنهكها ثم تابعت كلامها بصوت خافت مضطرب ٠

ــ ولكنه لم يجبنى وانصرف ٠٠ ومن العجيب أننى لا أسرد ذلك الموقف الأخير الذى حدث بينى وبين رأفت على رجل الا وألاحظ امارات الضيق ظاهرة على وجهه ٠٠ يخيل الى أن الرجال لايميلون الى سماع امرأة تسرد قصة حبها لرجل آخر ٠٠ ان الرجال يغارون كلهم من رأفت ٠٠ يغارون لانني أحببته ذلك الحب الهائل ٠٠ ومع ذلك فان رأفت لايريد أن يقبل منى ذلك لقد طردنى ٠٠ نعم طردنى ٠٠ ها ٠٠ ها ٠٠ اننى أزعجك ياسيدى بهــذه الثرثرة ٠٠ حديثى معك انسانى ان ساقى يؤلماننى ألما شــديدا منــذ أول أمس ٠٠ لست متعودة على أداء تلك الحركات الصعبة التى تحتمها الرقصة الاســبانية التى يلقننى اياها أستاذى ٠٠ آى ٠٠ يارجلى ٠٠ لازلت أذكر ٠٠ ذات مرة كنت واقفة على كرسى أنظف مصباحا متدليا من سقف غرفة النــوم فى بيتنا ٠٠ البيت الذى شــهد حياتى مع رأفت فوقعت وقصعت ساقى ٠٠ ظل رأفت ثلاثة أيام الى جانب السرير وكلما سمعنى أتأوه سألنى بحنو يقــول «مالك يامادى ٠٠ ســلامتك ياحبيبتى» ــ وكانت الفتاة الاسبانية اذ ذاك قد وقفت ٠٠ ثم انصرفت

دون أن تمد يدها لتحييه ، غادرت المطعم وهى تكرر تلك الجملة الأخيرة فى صوت باك منتحب ٠

ـ سلامتك ياحبيبتى ٠٠ ـ ولم تكد تختفى حتى التفتت اليه صاحبة المطعم الفرنسية وهى تقول :

ـ مسكينة ٠٠! انها شابة على كل هذا الشقاء ٠٠

وانقضت بضع ليال وذات مساء ذهب «هو» الى أحد ملاهى القاهرة واتخذ مقعده فى مؤخرة القاعة يرقب البرنامج الذى كانت تؤديه راقصات مختلفات الجنسية ، واللغة ، واللون ، وفجأة أعلن الموظف المختص عن «الفاتنة مادى فى رقصة أسبانية» وكان الجمهور المتناثر فى القاعة الضيقة ٠ منشغلا بالحديث ، سابحا فى بحر من دخان السجائر المتكاتف ٠٠ وقفزت مادلين ٠٠ نفسها ٠٠ الفتاة اللبنانية التى سبق أن رآها بالمطعم الليلى ٠٠ وأدت رقصتها ٠٠ وهى تنشد أغنية فرنسية مطلعها ٠٠ «أريد أن أراك» ٠

وأنصت بكل حواسه اليها ٠٠ كان الضوء الأحمر يغمر المكان الذى لاترى فيه الا مصابيح الغاز الصغيرة المبعثرة على حيطانه الرطبة المتداعية ٠٠ وكانت مادلين تبكى وهى تلقى الاغنية ٠٠ كانت تغنى لعشيقها الغائب ٠٠ لا لذلك الجمهور المخمور الذى لا قلب له ٠

وانتهت الرقصة ·· والاغنية ·· وصفق الجمهور كما اعتاد أن يصفق فى كل مرة ·· وانحنت مادلين فى حركة خجلى ثم انسحبت الى الداخل ··

وبعد قليل سمع صوتها صادرا من غرفة «البار» ، صوت ثمل ، وكانت مقاعد «البار الأمريكى» غاصة بزبائن الملهى ·· كانت تتجرع كؤوس الكونياك بشراهة ··

واقترب منها شاب وسيم ·· ويظهر أنه دعاها لمرافقته الى نزهة بعد انتهاء عملها فى الملهى · اذ أنها ألقت كأسها والتفتت اليه وهى تدنى عينيها من عينيه وتطيل النظر الى وجهه ثم صاحت :

ـ أذكر أننى رأيتك من قبل ·· ألم تجالس رأفت أحيانا فى مطاعم شارع الالفى ؟ لمحتك فى المدة الأخيرة معه ·· كنت أكتفى بأن أمر من بعيد لألقى نظرة الى المائدة التى كنا قد اعتدنا أحياناً أن نجلس اليها لتناول العشاء ·· لم أشأ أن أدعه يرانى أو أن أقترب منه خشية أن يشيح بوجهه عنى أمام أصدقائه ·· أمامك أنت مثلا ·· لا ·· أنا لا أستطيع أن أخرج معك ·· مع صاحب رأفت ؟ ·· لا ·· لا ··

ثم عادت تتجرع كأسها .

وأقبل زبون آخر يدعوها للرقص .. وراقت مادلين أثناء الرقص لأحد رفاق ذلك الزبون فانتزعها من بين ذراعيه وأكمل معها الرقصة وهى تترنح لفرط ماشربت .. ولم تكد تنتصف تلك الليلة حتى كان اسم جديد قد أضيف الى أسماء نساء الليل الأحمر .. ضحية أخرى ..

ولما عاد «هو» الى منزله ليلتئذ تصفح ملف قضية الزنا التى اتهمت فيها زوجة موكله .. وتنقل بصره بين وقائع تهمة السرقة الموجهة الى صديق زوجة المحامى الفرنسى العجوز .. وشعر بضيق فألقى بالملف جانبا ثم تناول احدى صحف المساء فلمح خبرا عن زوجة وزير سابق اقتيدت الى أحد أقسام الشرطة لتهمة خلقية ..

ولما ألقى بصحيفة المساء الى جانب الملف كان يردد فى شبه حشرجة كلمات صاحبة المطعم العجوز .

ـ انها شابة على كل هذا الشقاء .. ضحية أخرى ..

غادة "أبو حمر"

غادة «أبو حمر»

١

لم يكن يعلم يوم ذهب ليقدم نفسه لمحافظة الغربية فى طنطا ، بعد أن التحق بخدمة الشرطة ــ أن هنــاك مدنا فى مصر ليس فيها نور ولا ماء ! ولذا دهش عندما قال له المحافظ فى ابتسامة رقيقة ٠

ــ يهمنا أن نريح الشبان حملة الليسانس أمثالك، ولذلك اخترت لك مركز كفر الزيات ياحضرة المعاون ٠٠ مركز فيه نور وماء ٠٠٠

وأرهف السمع اذ ذاك وكاد يتهم أذنه ولكن المحافظ لحظ دهشته فأضاف فى نبرة ساخرة ٠

ــ طيب ‥ تفضل سافر ‥ سترى أشكالا وألوانا من بلاد مختلفة عندما تمارس عملك الجديد ‥

وغادر طنطا الى كفر الزيات ‥ كانت تلك هى المرة الأولى التى تطأ فيها قدمه مركزا من مراكز الريف التى سمع بها أو قرأ عنها ، فقد كانت معلوماته اذ ذاك مقصورة على القاهرة التى ولد فيها ، الزقازيق التى عاش فيها والمنصورة التى أدى فيها امتحاناته ثم الاسكندرية التى اعتاد أن يقضى فيها بضعة أيام فى أشهر الصيف ٠

كان ذلك جهلا فاضحا أحس به فيما بعد ‥ ولكن لم تكن هناك حيلة لدفعه الا العمل الذى أقدم على الالتحاق به ٠

وقدم نفسه يومئذ الى مأمور المركز ‥ كان رجلا فى نحو الأربعين من عمره ، قصير القامة ‥ على عينيه نظارة سوداء علم «هو» بعدئذ السر فيها ٠ فقد كان ذلك لستر عين من عينيه فقدها أيام كان معاونا للشرطة فى أحد مراكز الوجه القبلى ، اذ كلف أحد الجنود من مرءوسيه أن يحضر له زجاجة «القطرة» فأحضر له زجاجة «صبغة اليود» التى لم يكد يضعها فى عينيه حتى فقأتها ‥

وقابله المأمور بابتسامة وضحكة . ابتسامة عريضة وضحكة جافة .. ومد يده فهز يده هزة عنيفة ثم طلب اليه أن يجلس متكلفا الرقة ، متباطئا فى القاء كلماته ، متعمدا السيطرة على نبراته .

ــ أهلا وسهلا .. تفضل .. أظن حضرتك المعاون الجديد ؟

فأجاب :

ــ نعم ...

ــ لم يسبق لك العمل فى الشرطة ؟

ــ أبدا .. خرجت من الكلية السنة التى فاتت واشتغلت محاميا .. وبعد .. لقيت بعض زملائى التحقوا بهذه الوظيفة فقدمت طلبا .. وقبلونى .

وعاد المأمور يضحك ضحكته النحاسية ثم سأله :

ــ آه .. مبروك ياأستاذ .. ولكن أنت عارف مشقة العمل عندنا ؟ ــ فخفق قلبه وأجاب فى صوت خافت :

ــ لا ..

ــ اذن . سأكلف اسكندر أفندى .. معاون البندر

أن يمرنك .. اسكندر أفندى معاون قديم .. وأنا أرغب أن تعمل معى فى البندر .. انك لاتحتمل مشقة الانتقالات هنا .. وهنا ..

ووضع يده على الجرس يستدعى اسكندر أفندى . فدخل رجل لا يقل عمره عن عمر المأمور ان لم يزد .. شاع شيب خفيف فى شعره وقد وضع «الريشة» على حافة اذنه وضم أطراف (سترته) فى أدب متهيب ، وأجاب على الامر بأن يتولى تدريبه على عمل «البندر» فى احترام دون أن يجرؤ على الجلوس أو حتى على اختلاس نظرة الى أحد المقاعد المحيطة بمكتب المأمور .

وبدأ «هو» عمله كمعاون «بندر» كفر الزيات ووضع فى الفندق الوحيد بالبلدة حقيبته المحتوية على بعض ثيابه .

ولكن لم تكد تنقضى بضعة أيام حتى أحس بالضيق .. الضيق من كل شىء يحيط به .. من البلدة التى لا حياة فيها .. والتى ليس بها من وسائل اللهو والتسلية الا دار واحدة للسينما تعمل ليلتين فقط فى الاسبوع وتعرض فيها قصص قديمة .. والا الخروج للسير على رصيف المحطة ومشاهدة القطر الهابطة الى الاسكندرية أو الصاعدة الى القاهرة والتحديق فى وجوه الجالسين

والجالسات فى عربات «البولمان» ، ثم السير على كوبرى كفر الزيات المقـام على النيـل بين محافظتى الغـربية والبحيرة ٠

وأقبل عيد الفطر ففرح لانه ظنها فرصة سـانحة يستطيع أن ينتهزها للسفر الى القاهرة ولكنـه لم يكد يدخل غرفة المأمور ليستأذنه فى السفر الى القاهرة أثناء عطلة العيد حتى رفع رأسـه وضـحك ضحكته النحاسية الجافة وأجابه وكأنه يخاطب طفلا ٠

ـ أى عيـد ياحضرة المعـاون ! نحن لسـنا كبقية المصالح ٠٠ ماعندنا عيد فطر ولا عيد أضحى ٠٠ هـل الذى يعتزم السرقة أو القتل أو الاتجار فى المخـدرات يتوقف عن العمل فى الأعياد والمواسم ياأستاذ !؟

وأحس بخيبة أمل ٠٠ واسـودت الحيـاة فى نظره عندما تخيل أنه سيقضى أيام العيد بين غرفته بالفندق الريفى والمطعم اليونانى الذى لم يقدم طوال شهر كامل الا صـنفين لا ثالث لهمـا هما : البطاطس والمكرونة ٠

ولكنه لم يشأ أن يخرج من الغرفة منهزما فقال له :

ـ ولكننى أشعر بوجع فى رجلى ياحضرة المأمور ٠٠ لا أكاد أقوى على المشى ٠

وعندئذ أسرع فأجابه مبتسما :

ـ لامانع ·· قـدم لى طلبا ·· وأنا أحـولك على الكشف الطبى ـ وقدم «هو» الطلب وأحاله المأمور الى طبيب المركز الذى قرر لساقه علاجا قدره عشرة أيام ·

وفى مساء اليوم نفسه كان فى القاهرة ·

٢

وانقضت الأيام العشرة وعاد الى كفر الزيات يحسب حسـابا لعـزلته فى الفنـدق ·· وللبطاطس والمكرونة و «البندر» المقفر من كل وسيلة من وسائل اللهو ·· ولكنه لم يكن يحسب حسابا لشىء فاجأه به نائب المأمور اذ أخبره أنه خالف تعليمات الشرطة اذ قضى الاجازة فى القاهرة مع أن تلك التعليمات تقضى بوجوب بقائه فى محل عمله أثناء الاجازة المرضية وأن المأمور ذهب ليزوره فى الفندق أثناء مرضه ·· فدهش عنـدما وجد غرفته خالية ، وعبثـا حاول «هـو» أن يفهم نائب المأمور أن أسرته كلها فى القاهرة ·· وأنه ليس من المعقـول أن يقضى أجـازة مرضـية يجب أن يعنى أثناءها بسـاقه المريضة فى فندق تعوزه أبسط وسائل الراحة ·

وفى اليوم التالى وجد على مكتبه اشـارة تليفونية

بانتدابه لرياسة نقطة بوليس بسيون بدلا من ضابطها الذى قام بالاجازة ٠٠

ففهم الصلة بين الاجازة التى انتزعها انتزاعا وبين ذلك الانتداب المفاجىء ، ولكنه مع ذلك سر من ذلك الانتداب ، لم لا يرى شيئا آخرا ٠٠ لونا وشكلا من ألوان وأشكال البلاد التى أشار المحافظ الى أنه سيشاهدها فى عمله الجديد ؟ لقد بدأ يضيق بهذا البندر الذى يمن الرؤساء على الحاق الموظفين به لان فيه نورا وماء !

وحمله قطار الدلتا المهشم الى بسيون ٠٠ وتوجه لتسلم النقطة ٠٠ فأثبت ذلك التسليم فى «دفتر الأحوال» الذى يسجل حياة النقطة ٠٠ اليومية ٠٠ ولما جرى بصره بين صفحات الدفتر ليتبين العمل فى النقطة والبلاد التابعة لها وعدد الجنايات والجنح اتضح له سريعا أنها نقطة زاخرة بطائفة مختلفة من الجرائم ٠٠ وكان «بلوكامين النقطة» قد أدرك معنى ما ارتسم على وجهه فاقترب منه وهو يتمتم :

ــ هذه نقطة كبيرة ياحضرة المعاون ٠٠ كم من مرة فكروا فى أن يجعلوها مركزا ٠٠ ولكن على أى حال حضرتك منتدب لبضعة أيام فقط ٠٠ ــ وفهم مايرمى

اليه فأغلق الدفتر واعتزم أن يحيى حياة رياضية ريفية طليقة طالما سمع بها دون أن يتذوقها .

ولما تفقد النقطة وجد في الاسطبل .. ستة جياد ، فكلف «نوبتجى الاسطبل» أن يعد له جوادا هادئا ، وأن يعين جنديين لمرافقته في دورة ليلية في بعض بلاد النقطة .

وبعد أن أنجز أعمال النقطة العاجلة صعد الى الغرفة التى أعدت له فى استراحة المجلس القروى وهى غرفة تقل تواضعا عن غرفته فى فندق كفر الزيات .. ثم تقدم الى النافذة يطل على بلدة بسيون .. كانت الشمس قد غربت .. وبدأ الظلام يخيم على البيوت الصغيرة المتلاصقة فى الظلام كأنها تحتمى من خطر .. تتوقع فى كل لحظة أن يهددها .. وتذكر اذ ذاك وصف المحافظ للمركز الذى فيه نور وماء ... كانت طرق بسيون مضاءة بقناديل صغيرة متباعدة لاتكاد تنير الى أكثر من خطوات قليلة .. وفكر فى حالته .. فكر فى ذلك العمل الشاق الذى التحق به .. دون أن يقدر تبعاته .. وفى تلك الحياة المملة الجافة الخالية من كل مايمكن أن يثير شابا مثل سنه . وفجأة سمع دقا على بابه وصوت «نوبتجى الاسطبل» يقول :

ـ حضرنا الخيل ياحضرة المعاون ٠٠

وشعر بسرور ٠ كان قد بدأ يغـــرم اذ ذاك بركوب الخيل ٠٠ الرياضة الوحيدة التى تدفع عنـــه ملل الحياة فى الريف ، وامتطى ظهر جواد أبيض جميل ثم سار فى طليعة «الدورية» الى قرية استرعى اسمها نظره من بلاد النقطة ٠٠ «كفر المنشى أبو حمر» ٠

لعل الهاما خفيا ساقه الى «كفر المنشى أبو حمر» ٠٠ فانه لم يكد يدخل القرية حتى لاحظ فيها حـــركة غير عادية ٠ شعر من تجربته القصيرة بأن هناك حادثا جنائيا قد حدث ٠٠ كان الاهالى خارج منازلهم والوقت منتصف الليل ٠٠ صراخ مختلط بنواح وعويل يطرق الاسماع ٠٠ وهرع شيخ الخفراء لاستقباله ٠٠ وهو يتكلف نشاطا يحاول أن يوهمه أنه اعتاده فى كل ليلة ٠ فلما سأله :

ـ ماذا جرى عندك الليلة ياشيخ الخفر ؟

ـ لاشىء ٠٠ بنت فلاحة من البلد دلقت حلة الملوخية على ابن ضرتها ٠٠

ودهش «هو» من تلك البساطة الساذجة التى كان يريد شيخ الخفراء أن يسبغها على حادثة أيقظت أهـــل القرية وأطلقت فيها النواح ، فعاد يســأله وقد أصــبح

يوقن بأن فى الأمر جريمة يراد اخفاؤها على عادة العمد ومشايخ البلاد والخفراء ·

ـ وابن ضرتها ماذا جرى له ؟

ـ احترق ·· وأنا أخطرت النقطة ، وحلاق الصحة ونائب العمدة وموجودون ·

وأمره أن يتقدمه الى البيت الذى وقعت فيه الحادثة ·· فلما وصل اليه وجد على بابه نائب العمدة وبعض الخفراء وأمامهم امرأتان قرويتان لم يتبين ملامحهما جيدا فى الظلام ·· احداهما قصيرة القامة تبكى وتنــوح ، والاخرى ذات قامة طويلة متناسقة وجسم رشــيق ·· ·· كانت صــامتة ·· لم تنبس بكلمــة ·· وقد رفعت الملس الاسود الى فمها احتراما عندما رأته يهبط منفوق ظهر الجواد ·

...

وسأل «هو» نائب العمدة عن الأمــر ، فاســتدعى رجلين كانا واقفين الى جانبه وأجاب وهو يشير اليهما ·

ـ بســطويسى عبد الرســول زوج البنت المتهمــة ياحضرة المعاون ·· وأخوه عبد الرؤوف ·· الذى رآها وهى تدلق الملوخية ·· ـ وسكت نائب العمدة قليلا ثم استمر فى الكلام وهو يحمل فى يده مصباحا ريفيا أحمر

باهت اللون ويتقدمه الى داخل بيت بسطويسى وزوجته أم الخير ، البيت غرفة واحدة مستطيلة فى زاويتها اليمنى فرن كبير ، ولمح الى جانب الفــرن وابورا من وابورات الغاز النحاسية ملقى بجوار حلة ضخمة سالت منها كميات كبيرة من الملوخية ..

وأطال النظر الى الســائل الأخضر المســكوب على الأرض ، وتذكر أكلة البطاطس والمكرونة والخرشــوف فى مطعم (ينى) اليونانى بكفر الزيات وهى الأكلة التى كانت بين منغصات حياته الجديدة .. والتفت الى المتهمة وهم أن ينتهرها ولكنه وقف مذهولا .. كانت أم الخير فى الثالثة والعشرين من عمــرها .. خمرية اللون فى صفاء .. واسعة العينين ، عميقة النظــرات .. دقيقة الحاجبين رفيعة الشــفتين تفيض ســمات وجههــا أنوثة ساخرة .. ومع ذلك فهى فلاحة من فلاحات كفر المنشى أبو حمر الامهات اللاتى يحملن الجرة على رؤوســهن الى الترعة .. ويقضين النهار فى تكوين أقــراص (الجلة) وطهى الطعام لأزواجهن ..

ولكنه لاحظ أن الواقفين حــوله ينتظرون كلمتــه فاقترب من أم الخير وسألها لكى يحدد الوصف الذى يمكن أن يعطيه للحادثة قبل اخطار المركز .

ــ ماذا عملت ياأم الخير ؟

فرفعت المرأة الشابة رأسها فى بطء رزين وأجابته وهى لاتزال تضع طرف «الملس» على ذقنها ٠

ــ ماعملت شيئا ياسيدى ٠٠ كنت أطبخ الملوخية لزوجى ٠ أردت أن أقلبها لما غليت دلقت ٠٠ رغما عنى ٠٠

ــ ألم ترى ابن ضرتك بجانب الحلة ؟

ــ لا وحياة عينيك ياسيدى ٠٠ لم أره ٠٠ كان نائما ٠٠ وأمه قالت لى انها ستحمله على كتفها وتروح لسلفى عبد الرؤوف أخ زوجى ولكن لما دلقت الحلة سمعت الصراخ ٠٠ ولقيت الملوخية مغرقة الولد ٠٠ فعرفت أن أمه تركته جنبى ونزلت الغيط دون أن تقول لى ٠٠

وتقدم اذ ذاك عبد الرؤوف الذى كان واقفا لايتكلم وقال له :

ــ كذابة ياحضرة المعاون ٠٠ لقد رأيتها من الطاقة وهى تنظر الى الولد وبعد أن تأكدت من أنه كان نائما تلفتت حولها ودلقت الحلة عليه ٠٠

وهنا رمقته أم الخير بنظرة احتقار ثم اتجهت اليه «هو» وصرخت فى حدة ٠

ـ لاتصدقه ٠٠ أنا تزوجت بسطويسى أخاه عن حب من أربع سنين ٠٠ كنت أخدم فى طنطا عند عائلة تملك عزبة فى بلدنا كفر المنشى أبو حمر ٠٠ وكان بسطويسى يعمل عند نفس العائلة فأحبنى وتزوجنى بغير رضا أخيه الأكبر عبد الرؤوف ٠٠ من يومها وعبد الرؤوف يحرضه ضدى حتى زوجه من ضرتى ٠٠ أم الولد الذى احترق ٠٠ كله من أجل عشرة قراريط تملكها ضرتى فى أبو حمر يزرعها عبد الرؤوف ٠٠ ياليته زوجه من هى أحسن منى ٠٠ أنظر لها والنبى ياسيدى ٠٠ هى التى تراها جالسة أمامك ٠٠ انظر لها ٠٠ كله من أجل عشرة قراريط !

وألقى نظرة الى ركن الغرفة فوقع بصره على امرأة تجاوزت الأربعين من عمرها ٠٠ المرأة القصيرة البدينة التى كان قد لمحها فى الظلام عند قدومه ٠٠

وتقدم اذ ذاك نائب العمدة فأمسك بيد أم الخير التى كانت تشير بها وأبعدها عنه وهو يقول :

ـ اخرسى يابنت ياقليلة الحياء ٠

وعاد عبد الرؤوف أخ بسطويسى يتدخل قائلا :

ـ اسأل حضرة العمدة ٠٠ كم مـرة تشاجرت مـع ضرتها ٠٠

وتبرع نائب العمدة بالاجابة اذ ذاك قائلا :

ــ دائما فى نزاع .. آخر مشاجرة كانت أول أمس ياحضرة المعاون .. ــ وفهم «هو» توا أن نائب العمدة يرمى الى تكوين فكرة عن سبق اصرار المتهمة على ارتكاب جريمتها .. فوجد من واجبه أن يخطر المركز (لاخطار النيابة بأن نائب عمــدة كفر المنشى أبو حمر ابلغنا أن أم الخير زوجة بسطويسى عبد الرسول ألقت حلة ملوخية فى درجة الغليان على ابن ضرتها البالغ من العمر تسعة أشهر فتوفى متأثرا بجراحه .. وقد ضبطنا المتهمة فلزم الاخطار) .

وبعد قليل وردت اشارة من وكيل النيابة بانتدابه «هو» لتحقيق الحادث .. بعد أن قيدت فى دفاتر مركز كفر الزيات «جناية قتل عمد ضد أم الخير ..»

٣

فى صباح اليوم التالى نزل «هــو» الى مكتبه بنقطة بسيون مبكرا وفى ضميره ثورة خفية لم يدر مصدرها..

وكان أول ما اهتم به اتمام التحقيق الذى بدأه فى الامس ودخــل العســكرى المكلف بحــراسة «الأنفــار المحجوزين» فى حوش النقطة رهن التحقيق وهو يدفــع

المتهمة أم الخير أمامه واضعا يده على عنقها كأنه يخشى أن تفلت منه ، والتفت «هو» اليه مشيرا أن يرفع يده عن المتهمة ·· وتبين اذ ذاك سر تلك الثورة المضطرمة فى ضميره فقد كان يحس رغم قيد الحادثة ضد أم الخير بأنها بريئة ·· وأن الظروف وحدها هى التى اجتمعت ضدها ·· وأعانت على أن تضع مواد القتل العمد فى قانون العقوبات قيدها حول رقبتها ·· الرقيقة ··

ولكن واجبه كان يناديه أن يحقق وأن يعامل غادة أبو حمر كما يعامل المجرمين والمجرمات الذين تحتشد بهم النقطة فى كل يوم ·· فوجه اليها التهمة وواجهها بنائب العمدة الذى شهد بأنها تشاجرت مع ضرتها قبل الحادثة بيومين ·· كما شهد عبد الرؤوف أخ زوجها بأنه رآها من الطاقة تلقى الحلة على الولد القتيل ·· وكأن أم الخير أحست بأن الادلة اجتمعت عليها وأنه لا قبل لها بدفعها ، ·· فاستندت الى حائط الغرفة الواسعة المطلة على حديقة النقطة وصمتت صمتا غريبا ·· كأنها تستجم لثأر رهيب ·· ثم انتظرت الى أن مر أخ زوجها من جانبها فرمقته بنظرة مخيفة ثم تمتمت فى حشرجة خافتة ··

ـ أنت لك ولية ياعبـد الرؤوف ·· أنا الحق على لاننى لم أقل لبسطويسى عما حاولته عندما مسكتنى فى الذره ·· منكم لله أنت وأخوك ·· لقد وافقك وتركنى أروح السجن دون أن يتكلم ـ وتهدج صوتها قليلا ثـم نزعت «الطرحة» السوداء عن رأسها فكشفت عن شعرها الاسود الطويل · وقالت وهى تجيـل بصرها بين نائب العمدة وأخ زوجها بعد أن رفعت رأسها واعتـدلت فى وقفتها تحت اللوحة الخضراء المعلقة على حـائط غـرفة رئيس النقطة التى تدلت منها مجموعة القيود والسلاسل الحديدية التى فى النقطة ـ كلكم اجتمعتم على ولية مثلى ·· انمـا أم الخير ·· سـتعرف كيف تأخـذ ثأرها من أبو حمر ··

وأرسلت فى الهواء ضحكة جافة ··

وخرج الشهود من الغرفة ·· وبقيت المتهمـة لكى تؤخذ بصمات أصابعها ·· ونظر «هو» الى أم الخير ·

كان التعب قد ظهر عليها أثر الليلة التى قضتها فى «حجز» النقطة ، وكسا الشـحوب وجهها الخمـرى ·· وانطفأ بريق نظراتها ··

ولما استدعى أحد الجنود ليكلفه أخذ بصمات أصابع

يديها وتسجيل أوصــافها والتشــبيه حملقت فيه وهى تتمتم ·

ــ ليس لى سوابق أبدا ·· انما من يعرف ياسيدى ماسوف يحدث بعد أن تسجل لى هذه السابقة ··

وأقبل الجندى فجذبها من يدها الى حيث اللوحة التى تؤخذ عليها البصمات وعاد «هو» الى متابعة عمله ·· بعد أن أصدر الأوامر المعتادة فى مثل تلك الأحــوال وأشر على المحضر ·· بتلك العبــارة التقليدية «تقيد جنــاية بالمادة ١٩٨ عقوبات ويرسل المحضر للنيــابة للتصرف ومعه المتهمة مقبوضا عليها وطيه فيش وتشبيه واشارة تليفونية ·· »

وفى مساء اليوم نفسه كان فى نافذة غرفته فرأى من بعيد قطار الدلتا الهابط الى كفر الزيات وفى احدى نوافذه أم الخير زوجة بسطويسى عبد الرســول يحرسها جنديان من جنود النقطة ··

٤

وانقضت أعوام ·· عدة أعوام لم يسمع شيئا عن أم الخير ·· وسحب الزمن ستارا كثيفا من النسيان على تلك الذكرى ·

وذات مساء كان «هو» جالسا فى شرفة فنـدق من فنادق القاهرة الكبرى يقرأ صحف المساء فوقع بصره على الخبر الآتى منزويا بين أخبار البوليس كأنه خبر عادى لايهم القراء أن يطلعوا على تفاصيله ٠

« ألقت المدعوة أم الخير فى شارع كلوت بك ماء النار على أحد أهالى بلدتهـا كفر المنشى أبو حمر مركز كفر الزيات وهو المدعو عبد الرؤوف عبد الرسول اذ انتهزت فرصة نومه فى غرفة بأحد فنادق ذلك الحى وسكبت عليه زجاجة ماء النار ٠٠ وقد قبض على الجانية واتضح أنها من ربات السوابق وأنها قد حكم عليها من محكمة جنايات طنطا فى تهمة مماثلة بالسجن أربع سنوات ، كما اتضح أن الفندق الذى ارتكبت فيه الحـادثة من الفنادق التى يراقبها مكتب الآداب» ٠

ولم يكد يتم قراءة الخبر ٠٠ حتى سالت دمعـة من عينه فقد أدرك أن التهمة التى وجهت الى أم الخير غادة أبو حمر الجميلة منذ أربعة أعوام قد انتهت بها الى محكمة الجنايات ٠٠ وأنها أدينت ٠ ثم خرجت من السجن لترتزق من الاتجار بجسمها ٠٠ وأطـال النظر الى ٠٠ الميـدان الواسع الذى تطـل عليه شرفة الفنـدق ٠٠ الاضـواء الكهربائية المختلفة الالوان ٠٠ أنوار «النيون» الخاطفة

على واجهات الحوانيت ٠٠ السيارات المندفعة في سرعة
وقد تعالت أصوات أبواقها ، نداءات الباعة ٠٠ أصداء
الاغانى التى تتصاعد من أجهزة الاذاعة ٠٠ اعــلانات
المسارح ودور الســينما التى تكاد تغطى الجــدران ٠٠
واستعرض ذكرى أيام بسيون ٠٠ وتلك الليلة الخفيــة
العجيبــة التى وقع فيهــا بصره للمرة الأولى على غــادة
أبو حمص والملوخية المسكوبة على الارض ٠٠كانت أم الخير
بريئة من تلك التهمة ٠٠ ولكن المحكمــة ــ أمام الأدلة
التى أجمع أهل قريتها على تلفيقها ــ لم يسعها الا الحكم
بادانتها ٠٠ وكانت قد توعدت عبد الرؤوف بالثأر ٠٠
لقد ثأرت غادة «أبو حمص» ٠٠٠ ولكن السجن علمها أن
يكون ثأرها هذه المرة ٠٠ بماء النار ٠٠

ابنـــة الشـــارع

قصة مصرية

ابنة الشارع

كان المهندس المقاول عثمان طلعت قد انتهى من بناء «فيلا» أنيقة أعدها لسكنى أسرته فى الروضة كلفته كل ماكان قد ادخـره من عمله فى المقـاولات ، ولم يكن الزوجان عندما انتقلا الى المسكن الجديد يعرفان أحدا من الجيران ، فقد ولدت لطيفة فى بيت أبيها بشارع خيرت واقتصرت صلاتها فى طفولتها وصدر شبابها على زميلاتها فى المدرسة السنية الابتدائية التى لم تكن تبعد عن بيت أسرتها الا بضع خطوات ، كما كان عثمان ــ منذ انتقل أبوه الى القاهرة بعد احالته الى المعاش من عمله كمهندس فى احدى المجالس البلدية فى صعيد مصر ــ يسكن شقة

باحدى العمارات فى شبرا قضى فيها سنى الدراسة بكلية الهندسة حتى عقد قرانه على لطيفه التى انتقلت الى تلك الشقة حيث قضت نحــو خمسة أعــوام لم تيسر لها أن تضيف الى زمالة الدراسة الا صداقات مع بعض قريبات زوجها كن يقطن الى جوارها فى شــبرا وكانت تتبادل معهن زيارات متباعدة ٠٠ سيدات فى مثل سنها ينتسبن الى أسر صعيدية محافظة ٠٠ فلمــا انتقلت الى مســكنها الجديد بالروضة لم تزد معرفتها بمعالم القاهرة عما ظل عالقا بذاكرتها منذ طفولتها عن «عمارة البابلى» والسيدة زينب والبغالة ، حياة رتيبة ، هادئة ، فى جو أضفى عليه والدها أحد رجال القضاء الشرعى سمة محافظة ، الا أنه لم تكد تنقضى بضعة أيام على انتقال لطيفه الى مسكنها الجديد حتى تبينت أن تفيدة ٠٠ احدى زميلات الدراسة الابتدائية تسكن شقة فى احدى العمارات تطل نوافذها كما تطل نوافذ «الفيلا» التى بناها عثمــان على أرض فضاء تفصل بينهما ، وانقضت أسابيع على انتقال أسرة المهندس عثمان طلعت الى المسكن الجديد دون أن تعرف لطيفة شيئا عن جيرانها الجــدد ٠٠ ولكن تفيدة زارتها ويبدو أنها أوعزت الى باقى الســيدات اللاتى يســكن المساكن المجــاورة بزيارة لطيفــة ٠٠ معظمهن زوجات

لبعض المزارعين أو التجار من الريف انتقلن الى القاهرة للاقامة مع أولادهن يتلقون تعليما فى جامعات القاهرة أو معاهدها العليا ٠٠ وأحست لطيفة بألفة مع جيرانها الجدد ٠٠ ردت الزيارات وعرفت أسماء الأبناء ومدى تقدمهم فى دراساتهم وأسماء البنات وأخبار خطوبتهن وأدرك أولئك البنات أن «تيزه» لطيفة لم تكن تمكنها أعمال زوجها وكثرة أسفاره خارج القاهرة من متابعة أخبار حياة القاهرة الليلية فكن يسردن عليها انطباعاتهن عن قصص السينما التى شاهدنها وآخر مايشاع عن زيجات الفنانين المعروفين أو طلاقهن ، وتوثقت أواصر الجيرة بما نشأ فى بضعة الشهور الأولى من صلات صداقة أو عمل بين زوجها عباس وجيرانه الجدد من أولئك المزارعين والتجار ٠

ونمت مع الأيام ألفة لطيفة مع الحى الذى انتقلت اليه فأضافت الى معرفتها المحدودة بمعالم القاهرة عنصرا جديدا ، ولكن بقى منزل واحد ظل سره مغلقا ٠ لم تكتشفه لطيفة هو المنزل المواجه لمسكنها الجديد ٠٠ كان منزلا صغيرا منعزلا مكونا من طابق واحد مبنيا بالطوب الأحمر ٠ وكان يبدو أن ميزانية من بناه قد خانته فعجز عن اتمام بنائه وظلت جدرانه دون طلاء ، كما أن

الارض الفضاء المحيطة به والتى كان من المفروض أن تعد لكى تصبح حديقة قد تحولت الى خرابة مقبضة ٠

وحاولت لطيفة مرارا أن تكتشف سر ذلك المنزل ٠٠ كلما نظرت اليه من نافذتها تبينت أن ساكنيه كانوا يتعمدون اغلاق نوافذهم طيلة النهار فلم تستطع أن ترى أحدا منهم ٠

وزارتها تفيدة ذات يوم فبادرتها :

ــ زارنى الجيران كلهم الا الساكنون فى البيت الذى أمامى و ٠٠٠

وقبل أن تتم كلامها صاحت تفيدة بها :

ــ ابعدى عن الشر وغنى له ٠٠ أتودين أن تلصقى بنفسك تهمة ؟ خليكى فى حالك ــ فعادت تسألها مندهشة !

ــ لم ؟

ــ ان لزوجك صلات عديدة ولابد أنه سمع بقاسمة عبد الحفيظ ٠٠ من لم يسمع بسيرة قاسمة ؟ ٠٠ واحدة ماشيه على كيفها ٠٠ مالك ولهذه الأجناس يالطيفة ٠

ولما خرجت تفيدة يومئذ تركت لطيفة تفكر فى ساكنة المنزل المتداعى ذى النوافذ المغلقة طيلة النهار ٠

وزادت رغبتها فى أن تهتدى الى سره فتعمدت أن تنتظر الى ساعة متأخرة من الليل وأخذت تتردد على نافذتها المطلة عليه تحاول أن تكتشف ذلك السر من خلف « الشيش » الى أن لمحت عربة من عربات الأجرة تقف وتهبط منها شابة قطعت الفضاء الذى يفصل السور الخارجى عن باب المنزل بسرعة يتبعها رجل ثم اختفيا فى الظلام بعد أن أوصدا الباب خلفهما ، وبعد قليل أضىء نور خافت فى احدى غرف المنزل الداخلية وساد السكون ثانية دون أن تفتح نافذة واحدة ٠

واعتادت على ذلك بعدئذ ٠٠ اعتادت لطيفة على أن ترى «جارتها» قاسمة تعود الى المنزل فى تلك الساعة المتأخرة من الليل يتبعها رجل غريب ٠٠ رجل لاتذكر أن قامته أو سمت مشيته قد تكررت ٠٠ فى كل ليلة كان يقبل رجل جديد ٠٠٠!

وذات مرة ٠٠ فى ظهر احدى الأيام لمحت قاسمة خارجة من المنزل وقد استندت الى ذراعها سيدة متقدمة فى السن ٠ يلوح على محياها أنها تنحدر من أصل تركى أو شركسى ٠٠ وتحرت حتى علمت أنها خديجة هانم والدة قاسمة التى تعيش معها فى نفس المنزل ٠ وانها كانت متزوجة بموظف فى احدى الشركات ولكنه توفى

فجأة .. ولم يترك لهما الا ذلك المنزل الذى لم يستطع أن يتم بناءه ، وقبل أن يسدد القرض الذى كان قد رهن المنزل لأحد المصارف فى مقابله .

وأحست فى بادىء الأمر بنوع من الرثاء لتلك الاسرة المنكوبة ، وأثار ذلك الشعور فى صدرها منظر الأم بشعر رأسها الأشيب وهى تخرج مستندة على ذراع ابنتها .. لقد رضخت تلك الام لحكم هائل من أحكام القدر .. اضطرت أن تعيش مع ابنتها الوحيدة التى تتاجر بجسمها لتأكل فى نفس المنزل الذى عاشت فيه من قبل عيشة شريفة مع زوجها الراحل !

ولكن المسكينة أحنت رأسها وقبلت الحكم الهائل ..!

وظلت قاسمة حريصة على طريقتها فى عدم الاتصال بسيدات الحى الذى ارتفعت فيه أسس بعض الابنية الجديدة وانتقلت اليه أسرات عديدة وترددت عليه وجوه لم يكن لساكنيه عهد بها من قبل .. ولكن قاسمة بقيت كما هى .. منزوية فى منزلها لايكاد يحس بوجودها أحد .. وحدث أكثر من مرة أن فتحت لطيفة نافذة غرفتها فوقع بصرها على قاسمة فجأة تدخل المنزل أو تغادره .. ولكنها فى كل مرة اكتفت باحناء رأسها مبتسمة ابتسامة خفيفة ، كما أنها التقت بها أحيانا فى

الطريق فلم تزد على تلك الابتسامة وأسرعت بالابتعاد لكيلا تتيح أية فرصة للتعارف ٠

الى أن أقبل ذلك اليوم ٠٠ كان يوم أحد ٠٠ وكانت فتيات الحى الاطفال قد اجتمعن فى الفضاء المجاور لمنزل لطيفة يقفزن على الحبل ويلعبن بالكرة ٠ ويرتلن بعض الأغانى ٠

وفجأة ارتفع من بينهن صوت فتاة تبكى بحرارة ٠٠ كانت لطيفة اذ ذاك جالسة فى شرفة منزلها تقتل الوقت باعداد مجموعة من قشر البرتقال للطهى تمهيدا لتحويله الى نوع من (المربة) كان يحبها زوجهـا ٠٠ وأطلت على الفضاء المجاور لتتبين مصدر البكاء فرأت طفلة صغيرة تجمع حولها باقى الفتيات يضربنها ويحـاولن انتزاع كرة صغيرة ملونة كانت فى يدها ٠٠ وأسرف أطفال الحى فى الاعتداء على الفتـاة الصـغيرة وهى تحتضن الكرة وتدافع عنها وتذرف الدمع من أجلهـا ٠٠ وأثار ذلك المنظر المؤلم شفقتها فصاحت بهن ٠

ــ جرى أيه يابنت منك لها ٠٠ لم تضربنها ؟

وابتعد الأطفال عن زميلتهن الصغيرة ٠٠ ورفعت الأخيرة رأسها الى لطيفة وهى واقفـة فى الشرفة تطـل

عليها • وانعكست الشمس اذ ذاك على عينيها الخضراوين، كانت الدموع تلمع فيهما •• وعادت لطيفة تسأل :

ـ لم يضربنك يابنتى ؟

لم تكن لطيفة قد رزقت من زوجها عثمان بابنة ولا ولد رغم انقضاء ستة أعوام على زواجهما •• واجابتها الطفلة المسكينة وهى تخفى عينيها فى (كم) ثوبها الصغير •

ـ لا أدرى يا «تيزه» •• لم أسىء الى واحدة منهن ••

وعندئذ تقدمت ابنة جارتها تفيدة وقالت لها :

ـ لا ياتيزه انها كذابة •• خالتها هى السيدة التى تسكن هذا المنزل ••

وأشارت الى منزل قاسمة •

ودهشت لطيفة لكلام الفتاة •• كانت تتحدث اليها بسذاجة ولكن كلماتها كانت تحمل معنى كبيرا •• ورددت فى صدرها تلك الكلمات :

« لا ياتيزه انها «كذابه» •• خالتها هى السيدة التى تسكن هذا المنزل ! »

ان بنات الحى يعتبرن مجرد قرابتها لقاسمة جريمة تبرر اختطاف كرتها منها وضربها اذا تمسكت بها ..

كانت بنات الحى يسمعن ولاشك من أهلهن عبارات التحقير لذلك المنزل وساكنته .. وكأن الطفلة قد أحست بأن الانتساب الى خالتها سبة يجب أن تدفعها فعادت ترفع رأسها وهى تقول بصوت منتحب :

ـ لن أبقى طويلا عند خالتى .. سأعود الى المدرسة قريبا

وارتفعت عدة ضحكات من الفتيات المتجمعات حولها ، وقالت احداهن فى لهجة ساخرة :

ـ مدرسة ؟ أية مدرسة يادريه ؟ أشكالك يروحون للمدارس !

ـ ونظرت دريه الى زميلتها نظرة طويلة ثم اتجهت ببصرها الى لطيفة مستنجدة ولوحت بالكرة الملونة التى كانت فى يدها وهى تقول فى براءة أليمة :

ـ والله خالتى قاسمة لم تشتر لى هذه الكرة ..

فسألتها لطيفة وهى أشد ماتكون رغبة فى أن تعرف سر تلك الطفلة المسكينة .

ــ من اشتراها لك ؟

ــ أبى ٠٠٠ ــ واختلج صوتها باكيا ــ أبى ٠٠ قبل أن يموت ٠٠٠

وأدركت لطيفة بعض الظـروف التى كانت تحيط بتلك الطفلة فأهابت بالفتيات اللاتى اعتدين عليها أن يبتعدن عنها ثم دعتها للصعود الى شرفتها ٠ وأجلستها الى جانبها لكى تستبين منها باقى قصتها ٠

كانت دريــه اذ ذاك فى الســابعة أو الثــامنة من عمرها ٠٠ وكانت عيناها تنمان عن دعة طاهرة ساذجة ٠ وحركات يديها تنبىء عن تربية رقيقة ٠٠ تحدثت اليها بعد أن قدمت اليها بعض البرتقــال الذى التهمته بنهم يدل على أنها كانت تعانى جوعا مؤلما ٠٠ وتبينت لطيفة ماكانت تريد أن تتبينه وعلمت بعدئذ أن دريه هذه ابنة أحد تجار الأقمشــة فى الحمــزاوى وقد تزوج والدتها عندما كان جدها عبد الحفيظ أفنــدى لايزال على قيــد الحياة ٠٠ ثم توفيت أمها أثناء ولادتها ٠ وأودعت الطفلة فى القسم الداخلى باحدى مدارس البنات ٠ وظل والدها ينفق عليها حتى توفى فاضطرت خالتها قاسمة أن تكفلها ٠٠ الى أن أقبلت الأجازة الصيفية فقدمت لتقضى تلك

الاجازة فى بيت خالتها ·· كانت تلك هى المرة الأولى التى ترى فيها ذلك البيت ··

وأحست لطيفه منذ اللحظة الأولى بعطف قوى نحو درية ·· ورجتها أن تتردد عليها كلما شاءت ·

وعاد زوجها عثمان يومئذ من الخارج فرآها تحنو على الطفلة وتتحدث اليها كأنها ابنتها فانتظر حتى عادت درية الى بيت خالتها ثم سألها :

ــ من هذه يالطيفة ؟

ــ درية بنت أخت جارتنا ·

ــ جارتنا من ؟

فترددت قليلا ثم أجابته :

ــ ساكنة البيت المواجه لنا ــ وعندئذ أدار ظهره لها وخلع «سترته» وهو يتمتم ــ لم يبق الا هــذا ·· ماذا جرى لعقلك ؟

ــ لم ؟

ــ ألا تعرفين ؟ ··· انك تسيئين فى اخر الزمن الى سمعتك ··

ـ مالى وما لخالتها .. ـ فأرسل عثمان ضحكة جافة ثم اقترب منها ووضع يده على كتفها وقال :

ـ مالك ومالها ! تردد هذه البنت علينا له عواقبه الوخيمة .. مرة تطل خالتها قاسمة من النافذة لتسألك عنها ويسمعك الجيران تتبادلين حديثا معها .. ومرة أخرى تأتى قاسمة اليك لتصحب البنت معها ويراها الجيران وهى تدخل بيتنا وتخرج منه .. ومرة ثالثة تلح عليك فى أن تزوريها ..

واستمعت الى كلام زوجها فى صمت . كانت تدرك أن عثمان أكثر منها تجربة ودراية بشئون الحياة فهو يخشى أن يثير عطفها على درية بعض الريب فى صدور الجيران الذين كانت تعلم طول ألسنتهم .

وفكرت قليلا ثم أجابته وهى تغالب رغبة فى البكاء .

ـ ولكن البنت ماذنبها ياعثمان ؟ أنا خائفة على البنت .

ـ أيرضيك أن نبلغ شرطة الآداب ؟

ـ نبلغ الشرطة !

ـ نعم ·· نذكر أننا نخشى أن تحضها خالتها على الفجور ·· أليس وضعها فى ملجأ خيرا لها ؟

فذعرت لطيفة عندما سمعت تلك الفكرة التى خطرت لزوجها ·· درية فى ملجأ من ملاجىء الأيتام ··!

وآلمتها تلك الفكرة فقد أصبحت تحب الطفلة حبا شديدا ···

ـ لم ياعثمان تفكر فى مثل هذه الأمور ؟ أنت طول عمرك قلبك طيب · ماذا جرى لك ؟

ـ ماهو المستقبل الذى تتوقعينه لهذه البنت اذا كانت خالتها بهذا الشكل ·

ـ أنا أعرف أنها ألحقتها بمدرسة وأنها معتزمة أن تعلمها لتعدها للزواج ·· يعنى هى قاسمة نفسها ياعثمان تفعل ماتفعله راضية ! انها مرغمة على هذه الحياة من بختها الأسود ·

وعندئذ هز عثمان رأسه وغادر الغرفة وهو يقول :

ـ لاتظنى أننى غير مشفق على درية ·· انما أنا عارف ان مصيرها هو نفس مصير خالتها ·

ـ حرام عليك ياعثمان ·· البنت ضعيفة وممروضة ولا تحتمل البهدلة ··

وظلت درية تتردد على منزلها خلسة فى غياب زوجها ·· وزادت محبتها لها بمضى الأيام حتى باتت لاتطيق البعد عنها ·· ولحظ زوجها ذلك فلم يسرف فى تحدى شعورها · بعد أن تأكد أن قاسمة لم تتخذ ذلك المعطف ذريعة للاتصال بلطيفة ·· بل كانت تحاول جهد طاقتها أن تشعر لطيفة بأنها لاتعلم بتردد درية عليها ·· وبأنها كانت تعطى الطفلة بعض الحلوى واللعب والنقود ·· وأقبلت درية ذات يوم كعادتها فى الصباح · وجلست حزينة على غير عادتها فسألتها :

ـ مالك يابنتى ؟

وعندئذ تكلفت ابتسامة فاترة وأجابتها :

ـ لاشىء يا «تيزه» ·

ـ لا · كنت تبكين ؟

ـ نعم ·

ـ لم ؟

وعندئذ أطرقت الطفلة الى الأرض كأنها تحاول أن تخفى فى كبرياء ألما دفينا ٠

وعادت تسألها :

ـ تكلمى يادرية ياحبيبتى ٠ ألا تحبين «تيزه» لطيفة ؟

ـ ربنا عارف ٠٠ أنا أدعو لك ٠ كلما صحبتنى جدتى معها الى السيدة زينب ٠

ـ طيب قولى لى اذن لم كنت تبكين ؟

فأجابتها وصوتها يختنق بالبكاء فى همس مؤلم ٠

ـ طالبونى بمصروفات المدرسة ٠٠ خالتى قاسمة لم تستطع سدادها ٠٠ لا مصاريف المدرسة ولا مصاريف الثياب والكتب ٠٠ عندما ذكرتها أمس قبلتنى وقالت لى انها خارجة لاحضار النقود ٠٠ خرجت ولم ترجع ٠٠ لم تجىء للغداء ولا للعشاء ٠٠ نمت دون أن أراها ٠٠٠٠ وفهمت عندما استيقظت فى الصباح أنها لم تحصل على المصاريف ، ولما رأتنى متجهة الى منزلك الآن قالت لى «اوعى تطلبى المصاريف من تيزه لطيفة هانم» ؟

وأثرت كلمات الطفلة فى لطيفة تأثيرا شديدا ٠٠ تذكرت أن الله حرمها من الامومة وخيل اليها أنه أراد أن يمتحن عواطفها نحو تلك الطفلة المسكينة ، فأسرعت بارتداء ثيابها واصطحبت درية فاشترت لها بعض الثياب ثم توجهت معها الى المدرسة فسددت لها القسط المستحق وأوصت بها خيرا ثم عادت الى المنزل ٠٠ ولكنها رأت — بعد تردد — من الافضل أن ترسل ايصال المصروفات الى قاسمة ٠٠ فأرسلته مع خادمها الصغير وبعد قليل رأت قاسمة فى احدى نوافذ منزلها تطيل النظر اليها ثم رفعت الايصال الى رأسها لتعبر لها عن شكرها وتلفتت ثم أغلقت النافذة وكأنها تخشى أن يظن أحد من الجيران أنها «جرؤت» على التحدث الى لطيفة ٠٠

وانقضت على ذلك ستة شهور ٠٠ لم تر فيها درية ولم تسمع بأخبارها ٠٠ ولكنها كانت تعلم أنها فى القسم الداخلى بتلك المدرسة تتلقى دروسها ٠٠ كانت مطمئنة بذلك على أنها بعيدة عن الجو الذى تحيا فيه خالتها ٠٠

وأقبلت العطلة الصيفية وعادت درية الى بيت خالتها مرة أخرى كما عادت الى التردد على لطيفة ٠٠ كانت قد كبرت ونما جسمها ونضج صدرها وبدأت أنوثتها تتفجر ٠

ومرت العطلة الصيفية ·

وحــدث نفس ماحــدث فى العام الذى ســبقه اذ حل موعد ابتداء الدراسة وعجزت خالتها قاسمة عن أن تدبر لها المصاريف الضرورية ·

وفكرت لطيفة فى أن تقدم لدرية تلك المساعدة كما فعلت فى المرة السابقة ·

ولكن زوجها عثمان كان مريضا وقد طــال مرضه واستعصى على مجموعة الاطباء الذين تولوا علاجه الذى استنفد كل ماكان مدخــرا من مال ·· ولما طـــال مرض عثمان ارتبكت أعمال المقاولات التى كان يزاولها والتى كانت مصدر ايراده الرئيسى ، ولكن المرض والضائقة المالية أيقظا فى لطيفة ايمانا جــديدا بأن رحمــة الله عليها وعلى زوجها أقرب لو ··لو أنها تبنت درية ونقلتها الى بيتها خشية أن تزل قدمها كما زلت قدم خالتها ·· فانتهزت فرصة تحسن صحة عثمان وصارحته ·

ـ مارأيك ياعثمان ·· درية بنت الجيران عند خالتها لقضاء أجازة الصيف وقد سمعت أن قاســمة عاجزة عن سداد مصاريف المدرسة ويظهر أنهم ينوون أن يقعدوها

في البيت ـ وكأنه أحس بما تريد أن تطلبه منه فقال :

ـ طيب وماذا تريدين ؟

ـ مادام ربنا لم يرزقنا بخلفة لم لاتجيء درية عندنا نربيها هنا وينوبنا ثواب ياعثمان ـ فالتفت اليها وأمسك بيدها ثم هزهما وهو يقول :

ـ يالطيفة عشنا بشرفنا ولازم نموت بشرفنا .. اذا كنت تريدين أن تتبنى بنتا فأنا مستعد أن أحضرها لك من الملجأ .. بنت لايعرف أحد من هو أبوها ولا من هى أمها .. أما درية فالجيران كلهم يعرفونها ويعرفون خالتها .. ماذا يقولون عنا ؟

وتبين لها اذ ذاك أن زوجها لن تجدى محاولة اقناعه بقبول انتقال درية الى منزله .. فسكتت .

وانقضت عدة أعوام أخرى .. وأصبحت درية شابة تغرى وتفتن ، قل ترددها على لطيفة وطال غيابها ذات مرة نحو ثلاثة شهور فلما جاءت وسألتها لطيفة عن سبب غيابها أجابتها بأنها كانت فى السنطه عند عمتها .

وحدث أن عاد عثمان ـ بعد أن شفى ـ الى المنزل

مبكرا ذات ليلة فوجد درية جالسة مع زوجته · وعندئذ حياها برقة ودخل الى غرفته ·

ولما غادرت المنزل اقترب من زوجته ووضع يده على كتفها كعادته كلما أراد أن يلفت نظرها الى أمر هام ثم سألها :

ـ ألا تزال هذه البنت تتردد عليك يالطيفة ؟

فأجابته :

ـ هى جرباء ؟ ماذا بينك وبينها ياعثمان ؟ بنت مسكينة تقطع القلب ·

ـ مسكينة ! انها لابسه فستان ليس عليك أنت ·

وأطرقت الى الأرض اذ ذاك تجهد مخيلتها لكى تتذكر الثوب الذى كانت ترتديه درية ·· واستمر عثمان قائلا :

ـ من أين لها ثمن هذا الفستان ؟

وفهمت المعنى الذى كان يرمى اليه · وتذكرت أنها كانت قد اضطرت الى غل يدها عن مساعدة درية منذ مرض زوجها ولكنها لم ترد أن يتسرب ذلك الشك الى صدرها كما تسرب الى صدر زوجها وفضلت أن تترك الغرفة له وهى تتكلف الغضب قائلة :

ـ انك تكره هذه البنت طول عمرك ياعثمان ٠٠ ياشيخ حرام عليك ٠٠ ربنا رحمك فلم يعطك خلفه ٠ لو كان لك ولايا لجاز عليهن ماتنسبه الى هذه البنت ٠٠

وفى اليوم التالى لتلك المناقشة كانت لطيفة تطل من النافذة ٠ فرأت سيارة فخمة تقف أمام باب المنزل المواجه ٠ منزل قاسمة نزل منها رجل وجيه المنظر عرفته توا فقد كان الدكتور سليمان عزت طبيب أسرتها منذ أيام طفولتها فى شارع خيرت ٠٠ وبعد أن غاب قليلا داخل المنزل خرج مسرعا ٠

وساءلت نفسها «من أين لهم أتعاب الدكتور سليمان ؟ »

وانتظرت حتى جاءتها درية فى صباح اليوم التالى، فعلمت منها أن خالتها قد اشتد عليها المرض ٠

فسألتها :

ـ ولم لم تستدعوا الدكتور شكرى جاركم ؟

ـ عادها ثلاث مرات ولم ينفع علاجه ٠٠ ماذا تفعل يا «تيزه» ؟ أنترك خالتى تموت !

وخجلت اذ ذاك أن تسألها كيف دبروا أجر الدكتور

سليمان الذى كانت تعلم أنه أصبح يتقاضى أجرا مرتفعا جدا فى مقابل انتقاله الى منازل المرضى ٠

وتكرر قدوم الدكتور سليمان الى منزل قاسمة ٠ ورأت لطيفة ذات مرة أكثر من سيارة واقفة أمام الباب ٠٠٠ وعلمت أن عددا من الاطباءقد اجتمعوا حول قاسمة يتبادلون الرأى فى علاجها ٠

واستعصى الشفاء على قاسمة ٠٠ ظلت طريحة الفراش عدة شهور ٠

وذات ليلة دعتها تفيدة جارتها وصديقة طفولتها لمشاهدة قصة سينمائية معروضة فى احدى دور السينما بشارع ٢٦ يوليو فاتفقت مع زوجها عثمان على أن يحضر الى السينما فى موعدخروج النظارة ليصحبها الى المنزل٠ شاهدت القصة هى وتفيدة وجاء ذكر درية بمناسبة موقف من مواقف القصة التى كانتا تشاهدانها ، فذكرت تفيدة اليوم الذى أهابت فيه لطيفة بفتيات الشارعلتدفع الأذى عن درية فقالت لها :

ـ ماذا كنت تتوقعين أن أعمل ياتفيدة ؟

وعندئذ اعتدلت تفيده فى جلستها وحدجتها بنظرة حادة ثم قالت :

ـ لو كان لك بنت يالطيفة أفكنت تمنعينها عن المشى مع دريه ؟

وخرج جمهور (السـينما) يتفرق فى الشـوارع المحيطة بالدار . الشوارع الضيقة المظلمة .. وتحركت سـيارة عثمان فى بطء متجهة نحو احـدى تلك الطرق الخلفية ..

كان الطريق مزدحما بسـيارات الجمهور الخارج من تلك الدار وغيرها من دور السينما والمسارح المجاورة وسماء القاهرة تمطر رذاذا يسقط على أرض الطريق .. أبواق السيارات تنعق كأنهـا بوم مذبوح ومصـابيحها « المنائر » تسلط اضـواءها القوية ، تلتقى وتنفصـل كأنها سيوف مشهرة تمزق ظلمة تلك الليلة الباردة من ليالى الشتاء .

وفجأة لمحت لطيفه جسما صغيرا يمر بين سيارتين واقفتين الى جانب الافريز ويتجه الى الشـارع المظلم خلف دار السينما التى غادرتها منذ لحظة

وشهقت شهقة حادة انطلقت رغما عنها

ـ دريه ! ـ وعندئذ لم تلبث ان سمعت عثمان يقول لها

ـ .. هى .. رأيتها من بعيد ..

وسلطت سيارة كبيرة نورا وهاجا غمر جسم الفتاة المسكينة فالتفتت ... مذعورة من ذلك الضوء .. كانت تتأبط ذراع رجل فأسرعت بالابتعـاد والضوء الفاضح يطاردها ... هل رأتهم

وتثلجت يد لطيفه وكادت تصيح بها .

ـ دريه ؟ تعالى معنا .

ولكنها رات زوجها عثمان ينظر اليها نظرة شامته . أرادت أن تسـتنجد بتفيدة ولكنها أدركت أنهـا هى الأخرى تشارك زوجها نفس الشماتة !

وأحست اذ ذلك بدوار .. وأغمضت عينيها لكيلا ترى ماحولها ... ولمـا فتحت عينيها كانت درية قـد اختفت .. اختفت درية ابنة الشارع فى ظلام الشارع !

لم تنم لطيفه ليلتئذ .. ظلت خلف النافذة تطل على المنزل المواجه فى انتظار عودة دريه .. انتصف الليل دون أن تعود ... ولما بزغ الفجر عادت درية فى عربة من عربات الأجرة .. كما كانت تفعل خالتها فى أكثر الأحيان ...

هبطت من العربة تتمايل لاتكاد تستطيع أن تقطع المسافة بين السور الخارجى وباب المنزل . وبعد قليل

اضيئت غرفتها بضوء أخر خافت ... وساد الشـارع مرة أخرى رهيب ! .

وفى صباح اليوم التالى كانت لطيفه تتناول طعام الافطار مع زوجها فدخلت درية الى المنزل لتحييها . وعلى وجهها شحوب . وفى عينيها ذبول ... واقتربت الفتاة من لطيفة لتقبلهاكعادتها ولكن عثمان صرخ فى وجهها .

ـ اخرجى من هنا .. أتجرؤين بعد كل ذلك على دخول بيتى ...

ووقفت دريه منتصبة القامة كتمثال تتلقى شتائم عثمان .. دون أن تتحرك شفتاها . واستمر يلوح بيده فى ثورته مشيرا الى الباب وهو يصيح .

ـ بيتى لاتدخله مثلك .. ليس لك أن تدخلى بيوت الناس .. ماينفعك غير الشوارع تلمك .. اخرجى ..

ونظرت درية الى لطيفة نظـرة طـويلة .. نظـرة استعطاف .. وحب .. ووداع . وأخـيرا فتحت فمها وقالت بصوت خافت مرتعش .

ـ أنا أسـتحق ياعمى .. ولـكن ... ـ واختفت الكلمات فى حلقها ، فأحنت رأسها ثم خرجت تبكى .

وفى المساء انتهزت درية خروج عثمان من المنزل وجاءت الى لطيفة وهى تتلفت خشية أن يراها أحد ولم تكد تطمئن الى خلو المنزل حتى أمسكت بيـدى لطيفـة تغمرهما بقبلاتها ودموعها ٠

وسادت فترة صمت ٠٠ لم يسمع فيه الا نحيب درية ٠٠ وأخيرا سألتها لطيفة ٠

ــ لم فعلت ذلك يابنتى ؟

ــ ما أعرف «ياتيزه» ٠٠ لاتغضبى اذا ناديتك كما اعتدت أن أناديك من قبل ٠٠ عمى له حق ٠٠ لايجوز لمثلى أن تدخل بيتك ٠٠ لقد جئت هذه المرة ٠٠ الأخيرة لأتوسل اليك ألا تندمى على ماقدمت الى من عون ٠٠ الله وحده يعلم ما الذى دفعنى الى أن تلمنى الشوارع ٠

وأسرعت درية بالخروج ٠٠ لم تعد بعـد ذلك ولكن لطيفة علمت أن قاسمة قد طال مرضها واستعصى علاجها أكثر من عام ٠٠ وأصيبت أمهـا خـديجة بنوبة قلبية فلزمت الفراش الى جانب ابنتهـا ٠٠ وتناقل الجـيران أخبار العسر والضـيق فى البيت المواجه ذى النـوافذ المغلقة نهـارا والتى كان يرى من خلفها بصيص نـور خافت بعد منتصف الليل ٠٠!؟

انقطعت درية عن التردد على بيت عثمـان طلعت ولكن زوجته لطيفة كانت تلمحها أحيانا عندما تعود الى المنزل فى الصباح أو عند الفجر ٠٠!

وتناقل الجيران أن قاسمة قد استردت بعض صحتها بعد العناية الفائقة التى بذلت فى علاجهـا ٠ ولاحظت لطيفة أن درية قد اختفت فلم تعد تراها ٠

ولمحت يوما سيارة الدكتور شكرى طبيب الحى واقفة أمام باب المنزل المواجه ٠

ماذا حدث ؟ هل درية مريضة ؟

وانقضى يومان آخران لم تظهر فيهما درية ٠٠ كما لم تظهر خالتها قاسمة ٠٠ لم يكن فى امكانها أن تستفسر من أحد الجيران فالجميـع لايزورون المنزل المواجـه ٠ وخطر لها أن تذهب بنفسها لتستفسر ولكنها خشيت أن يعلم زوجها بذلك ٠

وفى المساء رأت الدكتور شكرى داخـلا مع طبيب آخر ثم تبعتهما ممرضة تحمـل بعض الأدوية واشـتد قلقها فأرسلت الخادم يستفسر عن السبب فى اسـتدعاء الأطباء وعـاد يخبرها أن درية مصـابة بالتهاب رئوى حـاد ٠

ومن النـافذة رأت قاسـمة ووالدتها في النـافذة المقابلة تبكيان بحرارة ·· وأدركت أن درية في خطر يهددها ·

وكان الطبيبان والممرضة قد غادروا المنزل · فلم تستطع لطيفة أن تقاوم حتى يعود زوجها لتستـأذنه · ارتـدت معطفها ثم اتجهت الى منزل قاسـمة ·· للمرة الأولى في حيـاتها وطـأت قـدماها أرض ذلك المنزل · وصعدت الدرج بسرعة فقابلتها قاسمة ·· اقتربت ثم همست في أذن لطيفة ·

ـ درية تسأل عنك من يوم أن رقـدت ·· تود أن تراك يالطيفة هانم ·· انما لم نجرؤ على أن نتصل بك ـ وقادتهـا الى غرفة الفتـاة المريضـة ·· كانت درية مستلقية على الفراش · وقد هزلت وامتقع لونها وذبلت نضارتها ·· لم تكد تحس بدخـول لطيفـة حتى فتحت عينيها ·· وابتسمت ابتسامة شاحبة ، ثم تمتمت وهي تحاول أن تمد يدا ·

ـ «تيزه» ·· سـامحيني يا «تيزه» ·· أحس أني أموت ولا أتمنى الا حاجة واحـدة ·· وانحنت لطيفة تسألها :

ــ ماهى يابنتى ٠٠ ماهى ياحبيبتى ؟

ــ أموت عندك ٠٠ أموت فى بيتك ٠٠ لما أخرج من عندك سيقبل أهل الشارع أن يمشوا خلفى فى جنازتى ٠٠ انتى فاهمة يا «تيزه» ٠٠!

والتفتت الى خالتها وجدتها ٠٠ كانتا مطرقتين الى الأرض ٠٠ تجهشان بالبكاء ٠

وكانت لطيفة فى الواقع تفكر فى نقلها الى منزلها، ولكنها علمت من قاسمة أن الفتـاة كانت قد عـادت الى المنزل عنـد الفجر فى ليلة ممطـرة من ليالى الاسـبوع الأسبق منهوكة القوى فنامت دون أن تغلق نافذة الغرفة المطلة على الفضاء الواسع ٠٠ وأنها أصيبت بعد ذلك بمضاعفات مرض وراثى من أمراض الاسرة ٠٠ ذبحة صدرية ٠٠

وأرسلت لطيفة تسـتدعى الدكتور سـليمان عزت فحضر على عجل ودخل الى الغرفة ليفحصها ٠

وأقبل عثمان اذ ذاك ، كان قد علم بوجود زوجته فى المنزل المواجه وبكل ماحدث ، وأمسكت يده فوجدتها قد تثلجت وهمست فى أذنه :

ــ ربنا ما رزقنــا لا بولد ولا ببنت ياعثمــان ..
ادخل عندها ــ وأطرق عثمان الى الأرض ثم تقــدم الى الغرفة وبعد قليل خرج وهو يهمس فى صوت مختلج .

ــ لا أمل يالطيفة .

ولم يكد الطبيب يتحرك بسيارته من أمام المنزل حتى فاضت روح درية .. بين يدى لطيفة ..

ماتت ابنة الشارع .. بعــد أن لفظها الشــارع طفلة وشابة .. طفلة تلعب الكرة فيعتدى عليها الجميع .. أو شابة تبيع جسدها لتعول خالة وجدة .. مريضتين تتضوران جوعا .

وخرج نعشها من منزل عثمان طلعت .. ولكن أهل (الشارع) مشوا خلف النعش ... بعضهم جاء ليواسى جارهم المهندس المقاول ظنــا منهم أن صلة قــرابة كان يحرص على انكارها تربطه بالراحلة الشابة .. والبعض الآخر أدرك أخيرا أنه قسا على درية فى طفولتها وتنكر لجيرانها فى شبابها وتخلى عن معونتها ومعونة من تعول فى محنتهن ، وأنها بعد الموت تستحق السير بضع خطى خلف نعش يضم من أصبح أهل الحى لايجدون حرجا فى أن يشيروا اليها كلمــا جاء ذكرها باسم .. المرحــومة درية ..

لك يا زمـــان العجب

لك يازمان العجب

١

لم يكن فى مظهر عديلة العاملة فى حانة «الخواجة ديمترى» بمركز بسيون شىء يسترعى النظر · عندما التقت عيناه بعينيها اللتين كانتا تبرقان فى ظلام تلك الليلة من ليالى الشتاء خلف سحاب خفيف من دخان سيجارة كانت تنفثه وهى مستندة الى باب الحانة فى رشاقة ريفية ·· وفى كثير من عدم الاكتراث ·

كانت عديلة قد رأته وهو على ظهر جواده يمر فى أزقة القرية ·· وكانت تعلم أنه أحد ضباط المركز ،وأن صاحب الحانة قد مر على مكتبه ليرجوه فى أمر خاص بتنفيذ شروط الرخصة التى يدير بمقتضاها حانته ، ولكنها مع ذلك لم يبد عليها أى اهتمام ، بل رفعت

السيجارة الى فمها وسحبت نفسا طويلا فاشتعل بصيصها وتوهج ·

ومر الجواد أمام الحانة · وابتعد «هو» عن عديلة · ثم التفت فرآها لاتزال مستندة الى الباب بثوبها العارى كأنها فى تلك الليلة من ليالى الشتاء تتحدى هواءها البارد ··

وأتم دورته ثم صعد الى استراحة المجلس القروى ليقضى ليلته · ولكنه قبل أن يغفو فكر أكثر من مرة فى تلك القروية السمراء التى صادفها فى ظلام الطريق أثناء دورته الليلية ·· لم يدر لم ؟ ·· لقد أحس أن لها شخصية ·· شخصية ما تختلف عن شخصيات فتيات تلك البلدة الريفية الهادئة ·· سمة مميزة تختفى خلف دخان سيجارتها المتكاثف حول وجهها ذى القسمات الصامتة عن أى تعبير ·

وتعمد فى صباح اليوم التالى أن يسأل مرة أخرى عن تلك الفتاة ·· لقد قدمت الى بسيون قبل ذلك بخمسة أشهر مع أسرة أحد الأطباء · فلما انتقل ذلك الطبيب من بسيون فضلت البقاء بها واشتغلت خادمة عند «الخواجة ديمترى» ·· لم ترتكب منذ اشتغالها بتلك الحانة ما استدعى حضورها الى المركز · فقد عرف عنها

الهدوء رغم غرابة اشتغال فتاة مثلها خادمة فى حانة كل زبائنها من القروين الذين لم يتعودوا على رؤية فتاة تقدم اليهم كؤوس الزبيب والنبيذ مع أطباق «المزة» ..

٢

فى مساء اليوم التالى مر مهندس الرى عباس فهمى على مكتبه بمركز الشرطة بعد انتهاء عمله وطلب اليه أن يقضى السهرة معه .. فلما سأله :

ـ أين يمكن قضاء سهرة هنا فى بسيون ؟

أجابه وهو يجذبه الى خارج المركز .

ـ أيلزم السفر الى القاهرة لقضاء سهرة ؟ هنا سهرات على قدنا .. تعال :

وسار «هو» خلف مهندس الرى فى أزقة بسيون التى كانت تحولت الى برك من الطين بعد أن هطل المطر طول اليوم . الى أن وقف أمام حانة «الخواجة ديمترى» .

كانت الحانة اذ ذاك خالية من الزبائن ، وكانت عديلة واقفة خارج الحانة وقد استندت كعادتها الى الباب المظلم الذى كان يمتد الى أقصى الحقول .

وجلس «هو» وزميله الى احدى موائد الحانة

القروية المتواضعة ·· مائدة خشبية مشققة لا غطاء لها تتأرجح على سيقان كانت أربعا انكسرت احداها فى مشاجرة وبقيت الثلاث ·· ولاحظ «هو» أن خادمة الحانة لم تتحرك من مكانها ولم تحضر لترى ماذا يطلبان· فسأل زميله متجاهلا أنه سبق أن رآها ·

ــ ألا تعمل هذه البنت هنا ؟

فأجابه وهو يبتسم ·

ــ نعم ·· بنت من مصر اسمها عديلة ·

ــ طيب لم لاتجيء لترى ماذا نطلب ؟

ــ لا ·· انها هكذا ·· لاتجيء الا اذا دعيت ·· بنت عجيبة ··

وتحركت فى صدره رغبة فى أن يعرف المزيد عن تلك الفتاة فعاد يسأل :

ــ كيف ؟

فأجابه صديقه المهندس :

ــ والله ما أعرف ·· جئت الى بسيون أخيرا · وكلما مررت رأيتها واقفة بهذا الشكل على باب الحانة ·· تدخن

سيجارتها وتطيل النظـر الى نهـاية الطـريق ·· ماذا تنظر ؟ وفيم تفكر ؟ لا أحد يدرى ·

وفجأة سمع من بعيد صوت حمله الهواء البارد الذى كان يصفر فى ظلام تلك الليلة صفيرا مخيفا ـ صـوت كان ينشد الموال الذى مطلعه :

« لك يازمان العجب فى كل أحوالك »

ونظـر «هو» الى عـديلة اذ ذاك فـرآها قد ألقت بذراعها الى جانبها ورفعت رأسها الى السماء كأن الموال هابط منها ·

وأخذ صوت منشـد الموال يقترب ·· كان صـوتا صافيا ·· حنونا · يضع كلمات الموال الحزينة فى صميم القلب ·

وصفق زميله يستدعى عديلة ·· ولكنها لم تتحرك من مكانها · كانت لاتزال تشخص الى الأفق البعيد ·· وكأن سحر الأنشودة قد أنساها السيجارة المشتعلة ، فلما التهبت أصابعها ألقت السيجارة الى الأرض فى هـدوء وهى لاتزال تنصت فى نشوة حالمة الى الموال ·

ودنا صوت المنشد المجهول من باب الحانة · وسمعه اذ ذاك يردد :

لك يازمان العجب كل أحـوالك

توصل وتفصل قلوب عشاق بأهوالك

فلما وصل الى قوله :

« علمتنى قولة الآه لأجل أقولها لك »

أدارت عديلة ظهرها للطريق الذى ظلت تشخص الى أفقه البعيد المترامى طول اليوم ثم تقـدمت الى داخـل الحانة . ولمح عينيها اللتين خيل اليه ليلة الأمس أنهما تبرقان وقد لمعت فيهما الدموع فزاد بريقهما .

ومال على زميله المهندس يهمس فى أذنه :

ــ أعاشقة ؟

فأجابه :

ــ ما أعرف . بنت محيرة أهل البلد .

ثم نظر اليها مبتسما وسألها فى تخابث :

ــ أهو اسماعيل درويش ياعديلة ؟

فأجابته خادمة الحانة وهى ترفع قامتها فى زهو

ــ أظن . .

وحاول استدراجها .

ـ صوته جميـل •• ياترى آلا يـزال يعمـل فى المطحن ؟

فأجابته وهى تستحضر غطاء أحمر ممزقا وضعته على المائدة وهى تمط شفتها •

ـ من يعرف ؟

ـ بلغنى أنه اشتغل أخيرا كاتبا فى المطحن •

فقالت وهى تنحنى على المائدة لتخفى خرق الغطاء وكأن الموضوع لايعنيها ••

ـ يمكن ••

ثم التفتت اليه «هو» الى ضابط المركز الشاب كأنها لاتعرفه وسألته :

ـ ماذا تشرب ؟

فأجابها :

ـ عصير ليمون •

وانتظر أن تعلق خادمة الحانة على ذلك الطلب كعادة خدم الحانات • ولكنها هزت رأسها هزة خفيفة ثم اتجهت الى زميله الذى طلب زجـاجة من البيرة • فتقـدمت الى «البار» ثم عادت بعد قليل تحمل ما طلبا فوضعته أمامهما

وانسلتت الى الخارج لتشعل سيجارة وتستند الى الباب وهى تشخص الى الأفق الموحش البعيد ..

بعد قليل دخل شاب معمم طويل القامة . مفتول العضل . مدبب الشاربين تبدو عليه امارات الاعتزاز بقوته . كان يدب على الارض بعصى ضخمة فى يده اليمنى وضعها على المائدة التى جلس الى جانبها ثم صفق بيديه عدة مرات ولما أقبلت عديلة متثاقلة صاح بها .

ـ جزازة كونياك ياعديلة .. من يديك الحلويين

وأحضرت عديلة الزجاجة ثم جلست الى جانبه تشاركه زجاجة «البراندى» القبرصى .. كأسا تلو الأخرى .

وساد صمت لم يقطعه الا نهوض عديلة مرة لاحضار طبق من الترمس وضعته أمام ضيفها وهى تتمتم :

ـ الموجود !

ومال المهندس عباس على آذن صديقه الضابط يهمس فيها .

ـ نسيت أن أقول لك . هذا عماره سيد أحمد ..

ولد غنى من القضابة .. القرية المجاورة ورث أخيرا .. يتردد هنا كل ليلة . يظهر أنه مرافقها هذه الأيام .

ولما انتهى مهندس الرى من شرب زجاجته انصرفا من حانة ديمترى .

٣

وأقبل الصيف فارتفع النيل بسبب الفيضان ارتفاعا كبيرا هدد الشاطىء عند القضابة بالخطر . وكلف «هو» بالانتقال الى تلك الجهة للاشراف على حركة استخدام الأنفار فى درء خطر الفيضان فانتهز تلك الفرصة لزيارة مهندس الرى عباس فهمى الذى دعاه كعادته لقضاء السهرة عنده فى استراحة هندسة الرى وهو بناء يطل على النيل مباشرة .

ولما انتصفت تلك الليلة من ليالى الصيف الحارة خطر له ولزميله أن يسيرا على شاطىء النيل بعض الوقت قبل أن يأويا الى الفراش .. سارا صامتين فى ظلام الليل . خيل اليه أن النيل يفرض أحيانا ارادة الاستئثار بالحياة . لا صوت يعلو على هدير الماء المتدفق المندفع فى جبروت . الاشجار التى على جانبيه لاتقوى على اعتراضه فتتكسر وتنهار وتنجرف .. المخلوقات التى تحاول أن تعلوه

عبورا أو سباحة مستهينة بجبروته لاتلبث أن تضمها دوامة من دواماته فتلقى حتفها ·

سار الشابان على الشاطىء بجانب الأكواخ التى أقامها الأنفار المكلفون بحراسة الشاطىء حتى ابتعدا عن زمام القضابة ·· وفجأة نظر كل منهما الى الآخر دون أن ينبس أحدهما بكلمة ··

لقد سمعا اذ ذاك صوتا صادرا من جوف أعواد الذرة المرتفعة سبق أن سمعاه من قبل ينشد الموال الذى مطلعه :

« لك يازمان العجب فى كل أحوالك »

لم يكن فى استطاعتهما أن يريا أحدا · كانت ليلة من ليالى آخر الشهر التى يكاد القمر يتهالك فيها لكى يطل من سحابة صيف فلا يوفق · ولكن أحدا منهما لم يشك فى أنه نفس الصوت الذى سمعاه قبل ذلك ببضعة شهور ليلة التقيا فى حانة «الخواجة ديمترى» ببسيون ·· نفس الصوت الصافى الحنون الذى يضع الكلمات الحزينة فى صميم القلب ·

فلما وصل الى قوله :

« علمتنى قولة الآه لاجل أقولها لك »

أخذ يكرر كلمة «الآه» فى حشرجة وأنين حتى خيل اليه «هو» أن منشد الموال قد طعن بسكين ·· وكان قد نسى اسـمه فسـأل زميله هامسـا كأنه يخشى أن يعلو صوته ·

ما اسمه ياعباس ؟

ـ اسماعيل درويش ·· كان يعمل كاتبا فى مطحن القرية · ولما علم أصحاب المطحن أنه عاشق لهذه البنت وأنه طالما ترك عمله بالمطحن هنا وذهب اليها فى بسيون نبهوه ·· أنذروه عدة مرات ·· تبين أنه اضطرب فى قيد حسابات المطحن وأهمل دفاتره ·· وأصبح عشـقه لعديلة مثار سخرية العاملين معه فى مطحن أصحابه من أقدم أسر المنطقة ·· وقد عرفوا دائما بالاستقامة · ولما يئسوا من اصلاحه طردوه ·

ورثا «هو» لعاشق عديلة فعاد يسأل :

ـ وماذا يعمل الآن ؟

فأجابه :

ـ ولا حاجة ·· دائـر فى الغيطان يغنى كالمجنون وهمس الضابط الشاب مستفسرا :

ــ وهى ؟

ــ فعاد يجيبه •

ــ لما تخلص شغلها فى «البار» تلحق به •• علمت انه بين من كلفهم العمدة بالاشتراك فى حماية الجسور من فيضان النيل فى هذه المنطقة فجاءت اليه ••

ومن بعيد خرج العاشقان من بين أعــواد الذرة ــ شبحان يشفان رقة • ولما تلفتا حولهما خشيا أن يراهما أحد فأسرعا يختفيان خلف شــجرة ضخمة من أشــجار التوت •

ولما حاول «هو» أن يستمع الى بقية الموال الحــزين كان هدير المياه قد علت زمجرته • واندفع التيــار الى نتوء من الجسر فاجتاحه وجرفه • وتكسرت فروع بعض أشجار اعترضت طريقه ••

٤

فى مساء اليوم التالى تلقت نقطة شرطة القضــابة «اشارة» من عمــدة «محلة اللبن» وهى احــدى القرى التابعة للنقطة يبلغ فيها بالعثور على جثة شخص يدعى اسماعيل درويش من «الناحية» والفاعل مجهول ••

وأبلغت نيابة كفر الزيات بالحادثة · فانتقل وكيلها الى محلة اللبن وبدأ التحقيق الذى اتضح منه أن القتيل قد ذهب الى بلدته عند الفجر لاحضار طعام يكفيه طول اليوم أثناء اشتغاله على الجسر ووجه أقارب القتيل التهمة الى عمارة سيد أحمد · واستشهدوا ببعض الأهالى الذين سمعوا عمارة قبل الحادثة بيومين يقول فى سوق بسيون ·

ــ ألم يبق الا هذا الولد المفعوص يتجرأ على أخذ رفيقتى منى ··؟

وقبض على عماره فعلا ·· ولكن الأدلة لم تكن كافية ضده فأفرج عنه · وحفظ التحقيق رغم ثقة كل أهل القضابة بأن القاتل هو عماره سيد أحمد ··

فى الشهر الماضى كان «هو» جالسا فى مقعد المحامين بمحكمة جنايات طنطا · بعد أن أجلت قضية موكله · وكانت القضية المعروضة قضية قتل حدثت منذ أربعة شهور فى شارع الترعة بكفر الزيات ·· وأخذ الحاجب ينادى أسماء الشهود ·· حتى وصل الى اسم ــ عديلة ابراهيم ــ فأخذ يكرره بصوته التقليدى العالى ·· فارتعد جسمه ·· دخلت عديلة نفسها ·· خادمة حانة بسيون القروية منذ خمسة أعوام ·· وتقدمت الى

منضدة المستشارين بخطى متئدة وهى ترتدى ثوبا أسود انسجم على جسمها الذى كان لايزال محتفظا برشاقته ·

وأدلت عديلة بشهادتها ·· كانت تعاشر القاتل وهو عماره سيد أحمد فى منزل استأجره لها بكفر الزيات ·· وقد أخبرها القاتل قبل مغادرته المنزل يوم الحادثة أنه يعتزم الاشتراك فى مشاجرة كبيرة فنصحته بألا يخرج ·· ولكنه خرج ·· ولم يكد يبتعد عن الباب حتى سمعت صوت الشجار وأطلت من النافذة لترى ماذا حـدث ·· ظلت ساكنة والمشاجرة تدور أمامها حتى رأت عشـيقها يرفع «الشومة» التى كانت فى يده ليهوى بها على رأس أحد خصومه · فصرخت تناديه :

ـ عماره ···!

وعندئذ التفت القتيل ورفع رأسه اليها ·· فانتهز خصومه الفرصة وحطموا رأسه بعصيهم ·

وانتهت عديلة من شهادتها التى ألقتها فى هدوء · وعندئذ سألها رئيس الدائرة ·

ـ هل عماره كان دائم الشجار ياعديلة ؟

فسكتت قليلا ثم أجابت فى صوت متحشرج كأنهـا تستعيد ماضيا بعيدا تؤلمها ذكراه ·

ـ دائما .. كنت عارفة أنه سيموت فى شجار .

وانتظرت عديلة مع باقى الشهود خارج قاعة الجلسة . ولما انتهت المحكمة من نظر القضية قضت بحبس المتهمين مددا بسيطة متفاوتة .

وعندما غادرت عديلة دار محكمة جنايات طنطا كان «هو» يتبعها بنظره من بعيد . استندت الى سور المحكمة الخارجى كأنها تتمالك قوى خائرة وأشعلت سيجارة .. سحبت منها نفسا طويلا نفثت دخانها فى شراهة ثم رفعت رأسها وأشرقت ابتسامتها .. كانت مواكب المحتفلين بمولد السيد البدوى تتدفق فى شوارع طنطا .. موكبا فى أثر موكب .. فيضان من البشر يرفعون الاعلام والرايات والبيارق المختلفة الألوان .. دقات الطبول والدفوف وصيحات الذكر تصم الآذان . هدير يعلو على كل الأغانى التى كانت تبثها أجهزة الاذاعة فى مقاهى المدينة وحوانيتها فلا يستمع اليها أحد .. وحاول «هو» عبثا أن يكتشف أين ذهبت عديلة . لقد اختفت . جرفها فيضان البشر . ووقف «هو» وسط هذا الفيضان من الناس القادمين للاحتفال بالمولد .. يحاول أن يبحث عنها .. لم يكن يدوى فى أذنه اذ ذاك الا مقطع من الموال القديم الذى سمع اسماعيل درويش ينشده لعديلة فى ليالى بسيون والقضابة .

«اسمح وفرح فؤادى يازمن مـرة

تبقى جميلة وجوه القلب أشيلهالك»

وهى الأخـــرى لم تكن تنصت الى دقات الطبـول والدفوف وصيحات الذكر ·· كانت سعيدة لأن الزمن الذى طالما قسا عليها من قبل قد مكنها يومئذ من أن تثأر لعشيقها القتيل ·· اسماعيل درويش من قاتله عماره سيد أحمد ·· جميل من الزمن سوف تحمله فى أعمـاق قلبها ·

قبلة ذات ليلة

قبلة ذات ليلة

رسالة من شاعر الى صديقة قديمة

« سـيدتي

لعلك تدهشين اذ ترين هذه الرسالة التي أبعث بها اليك بعد أن انقطع ماكان بيننا وانقضى على هذا الانقطاع عامان ·· ماكان بيننا ! هل كان هناك حقا بيننا · بيني وبينك شيء كالذي يكون عادة بين شابين عاشقين ؟ أقسم لك انني حائر ·· فأنا أعترف بأنني أحسست نحوك بعاطفة غريبة · لست أدري اذا كانت حبا ، أو اعجابا ، أو رغبة طارئة عابرة ، وأرجو أن تعترفي أنت أيضا من جانبك بغرابة تلك العاطفة التي تربطني بك أو تربطك بي ·· لقد ارتبطنا ياريري ·

فترة ما · رغم كل تلك الثورات التى كنت أفتعلها أنا أو تفتعلينها أنت ، ارتبطنا عامين وافترقنا منذ عامين وكان يخيل الى فى آخر مرة تشاجرنا فيها أننى لن أعود اليك · · فقد كنا نتشاجر كثيرا ولكن الشجار الأخير كان شجارا عاصفا · أتذكرين ؟ كنت قد تحدثت الى بالتليفون فلم أستقبلك ببضع قبلات كما اعتدت أن أفعل · بل قلت فى لهجة مؤدبة رشيقة كأننى أتحدث الى سيدة «غريبة» ·

ـ كيف حالكم ؟

ـ وفهمت أنت توا أننى لست وحدى فى المكتب فسألتنى :

ـ أمعك أحد ؟

فأجبتك :

ـ تقريبا ·

وعندئذ أعدت « سماعتك » الى مكانها وأنت تقولين :

ـ اذا اطلبنى بعد أن يخرجوا ـ ولكننى قلت لك ·

ـ لا · اطلبونى أنتم ·

ــ متى ٠

ــ بعد ربع ساعة ٠

وانقضى ربع ساعة ، ودق التليفون ففهمت أنك أنت المتحدثة ، وعندئذ خيل الى أننى أستطيع أن أكذب عليك ولا أحرج نفسى ، فطلبت من أحد الجالسين معى فى المكتب أن يتناول السماعة ويجيبك بأن «الأستاذ خرج منذ لحظة وسوف يرجع بعد ساعة» ٠ لست أدرى الى الآن ما الذى دعانى الى أن أفعل ذلك ؟ ربما كانت هناك ناحية مزهوة طفلة فى صدر كل شاب فى سنى وقتئذ توحى اليه بأن يبدو أمام أصدقائه وزملائه بأنه مرغوب فيه من عدد من الفتيات ، وبأن يدل ويتيه فينكر وجوده ويتهرب من ملاحقتهن له ٠٠ ولكننى على أى حال لم أكن أتصور أنك فهمت بأننى كنت فى المكتب عندما أجابك صديقى ورد عليك بما لقنته له ٠٠ وانقضت ساعة ولم تتكلمى ، وأبيت أن أطلبك ، وانقضى اليوم التالى أيضا دون أن نتحادث ، وانقضت بعده ثلاثة أيام ساد الصمت فيها علينا ٠ ثم تكلمت ، فلم تكادى تسمعين صوتى حتى سألتنى فى سذاجة ظاهرة :

ــ من تريد ؟

فسألتك ضاحكا :

ـ أمعك أحد ؟

ـ أى رقم تطلب ؟

ـ رقمك أنت

ـ الرقم غلط

ثم انقطع الحديث فأعدت طلبك ولكن جرس التليفون ظل يدق مدة طويلة دون أن يجيبنى أحـد ، فلما يئست أعدت سماعتى الى مكانها وصوت الدق الخائب يرن فى أذنى كأنه نداء راع شاب على شـاة ضـالة فى صحراء مترامية الأطراف ٠٠

ذلك هو شجارنا الأخير كما تذكرين ، لم يتقدم بعده أحدنا الى الآخر بخطوة ٠٠ أبت كبريائى أن أتحـدث اليك وأبيت أنت الأخرى أن تتحدثى ٠٠ عامان ٠٠ لم أعد أسمع عنك فيهما شيئا ، لم أسمع قط الى أن أعرف شيئا عنك ، كنت أرجو فقط من صميم قلبى أن تسعدى فى حياتك لاننى أعلم أنك لم توفقى فى زواجك ، ولقد مررت ثلاث أو أربع مـرات على منزلك بحـدائق القبة فكان المنزل مغلقا فى كل مرة ، لا دليل على الحياة فيه ، وكنت أقنع بالمرور من بعيد بسيارتى وأتعمد ألا تحدث السيارة صوتا حتى لا أزعجك فى عزلتك الهادئة بتلك

الضاحية ، ثم أشيع المنزل بنظرة طويلة ، وأطلق للسيارة أقصى سرعتها عائدا الى القاهرة ، دون أن تحس بأنني مررت الى أن عدت من المجلة قبل ظهر اليوم فوجدت التليفون يدق دقاته المزعجة فلما أجبت سمعت صوتا يسألني :

ـ هل صدر كتاب «صحراء الحب» ؟

وتذكرت أن المجلة التي أعمل بها قد أعلنت عن قرب صدور كتاب بذلك العنوان يحتوي على مجموعة من شعر طائفة من شعرائنا الشبان أنا منهم فأجبتك .

ـ لا . لم يصدر بعد .

ـ أرجوك أن تخبرني . متى سوف يصدر ؟

ـ من أنت ؟

قارئة تستفسر ـ وتحققت اذ ذاك أن الصوت الذي كان يتحدث الي صوت ألفته من قبل ، مع أن عامين طويلين قد انقضيا على آخر مرة سمعته فيها ، وعندئذ قلت لك في لهفة حنون .

ـ انني أعرفك «ريري» .

ـ من أنت ؟

ـ حلمى . أنا حلمى ياريرى .

ـ انك مخطىء ياأستاذ لست تلك التى تظنها تتحدث اليك .

ـ لم تتنكرين ؟

فتهدج صوتك اذ ذاك وقلت فى اضطراب ظاهر .

ـ لا . لست أنا ، انني سيدة أخرى .

فضحكت ضحكة فاترة وقلت :

ـ لقد (أصبحت) سيدة أخرى ...

فقاطعتنى قائلة وأنت تفرين .

ـ قلت لك اننى أخرى ـ ثم انقطع الحديث مرة أخرى .

ألا تقريننى على أن العلاقة التى كانت بيننا علاقة غريبة وأنها ظلت محتفظة بغرابتها حتى بعد انقطاعها بعامين ؟ .. اننى أعود بخيالى الآن الى ذكرى اليوم الذى سمعتك فيه للمرة الأولى واليوم الذى قبلتك فيه للمرة الأولى والأخيرة ..

ليس من السهل أن أنسى ذلك يا «ريرى» ، أنت

تذكرين ذلك كله ولست فى حاجة الى من يعيده عليك ، ولكننى أحس براحة وأنا أذكره وأكرر ذكراه

كانت ليلة من ليالى الصيف ٠٠ وكنت قد تأخرت فى مكتبى لاتم قـراءة مسرحية جديدة لبرنشـين كنت اعتزم تلخيصها ٠٠ لازلت أذكر عنوانها أيضا الى اليـوم «السم» وقد راقنى من حوار المؤلف الكبير هذا الجـزء فأخذت أنقله الى العربية .

(فرانسواز ـ ايها الشرير المعبود ٠٠ احبك ٠٠ اعطنى سـيجارة ٠ سـأحكى لك حـكاية ٠٠٠ جابريل «يقدم لها سـيجارته » ـ خذى نفسـين « تدخين » ماهى حكايتك ؟)

ودق اذ ذاك جرس التليفون كنت أتلو هذه السطور التى كنت قد ترجمتها عندما نظرت الى الساعة فوجدتها قد جاوزت العاشرة ٠٠ العاشرة مساء ٠ وأجبت فسمعت صوتك وأنت تسألين :

ـ هل الأستاذ موجود ؟

ـ ودهشت من تلك المجهولة التى تسأل عنى فى تلك الساعة من الليل وقلت :

ـ من يطلبه ؟

ـ واحدة ٠

ـ ماذا تريدين ؟

ـ لاشيء ٠ كنت أريد أن أسأله فقط عما اذا كانت احدى قارئاته تستطيع أن ترسل بضعة أشعار لنشرها ٠

وكنت اذ ذاك أرغب رغبة قـوية فى أن أنتهى من تلخيص مسرحية برنشتين فقلت لك مسرعا ٠

ـ أجل ياسيدتى ٠ كل القراء يستطيعون أن يرسلوا ما يشاؤون ٠

وانتهى حـديثنا ليلتئذ ٠٠ ولكننى لم أكد أعيـد السماعة الى مكانها حتى ندمت ٠

كان صوتك غريبا ٠٠ يمتاز برنين موسيقى حنون ٠٠ ظل يغمر الغرفة مدة طويلة بعد أن انقطع الحديث ٠٠ وحاولت الكتابة بعدئذ فلم أستطع ٠ وفسرت ذلك بأننى مـرهق فغـادرت المكتب وذهبت الى المطعم الذى اعتدت تناول العشاء فيه وكانت فرقته الموسيقية تعزف كما اعتادت أن تعزف كل ليلة قطعا أحبهـا ، ولكن كل ماعزفته ليلتئذ كان «نشازا» فى أذنى لأن رنين صوتك كان يلاحقنى ٠

ولم تنقض بضعة أيام حتى عرفت كل شيء عنك ، عرفت مأساة زواجك وصـارحتنى بدقائق حيـاتك كما صارحتك بدقائق حياتى ٠٠ وأردت أن أراك فأفهمتنى صعوبة ذلك ولما ألححت قبلت على أن نلتقى برهة خاطفة فى ذلك المخزن من المخازن التجارية بشارع فؤاد الأول وذهبت للقياك هنـاك ٠ كنت تمسـكين فى يدك تلك الزهرة من زهرات (الكرنيرانتيم) وكنت تنتظريننى عند أعلى السلم تطلين بين برهة وأخرى لترينني عند صعودى واتجهت اليك توا كأننى أعرفك ٠٠ ومددت يدى أحييك ثم ضغطت عليها وتبادلنا بضع كلمـات حتى تبينا أن البائعات والباعة قد بدأوا يوجهون النظر الينا فودعتك وانصرفت ٠٠

وأخذنا بعد ذلك نتحادث كل يوم فأخبرك بما فعلته فى عملى أثناء النهار وسهرتى فى أثناء الليل وتخبريننى أنت بما مر بك أثناء اليوم كله ٠٠

وعدلت عن أن أطلب اليك أن أراك مرة أخرى ٠٠

الى أن كانت تلك الليلة ٠

لست أدرى لم أرتجف عندما أذكرها ٠٠ كنت يومئذ مدعوا للاشتراك فى احدى حفلات التكريم التى أقيمت

للاحتفال بنجمة من نجوم المسرح المعـروفات بجمـالهن الفاتن ٠٠ ولما انتهيت منها وعدت الى المنزل خطرت أنت بخيالى ، لم يكن هناك شك فى انك أقل جمـالا من تلك التى كنا نحتفل بها ولكننى مـع ذلك لم أكن أتمنى أن أفوز بها كما كنت أتمنى أن أفوز بك ٠

ولم أكد أصل الى المنزل حتى رأيتك تتحـدثين الى وتعرضين على أن أذهب لأراك فى منزلك ٠ وذعرت لذلك العرض الجرىء ولكنك ألححت ٠

ـ لاتضع الوقت ٠ تعال حالا :

وترددت ليلتئذ قليلا ولكنى لم أشعر الا وأنا أقفز الى سيارتى وأسرع بها فى طريق حدائق القبة ٠

وصعدت ذلك الدرج الرخامى العريض الذى كنت تنتظريننى عند آخره ٠٠ وتلقيتينى مرحبة فى وجل ظاهر ٠٠ ثم ساعدتينى على خلع معطفى وقدتيننى الى غرفة الجلوس ٠ ماأغرب تلك الذكرى ٠٠ كنت قادما ـ كما قلت لك ـ من حفلة كانت احدى ملكات الجمـال لاتبعد فيها عنى بضع خطوات ولكننى لما شعرت بك الى جانبى أحسست بأنك أكثر فتنة وأروع جمالا ٠٠ وأشد اغراء ٠٠ اسألتنى وأنت تتلفتين حولك خائفة ٠

ـ لقد ألححت عليك في المجيء لانني كنت اذ ذاك ضائعة الرشد .. ولكنني الآن أرتعد خوفا . كان يجب أن ترفض رجائي . لم أطعتني وحضرت هكذا على عجل ؟

ـ لانني أريدك .

وعندئذ لمعت عيناك ببريق غريب وتمتمت :

ـ أنا .. لرجل آخر ..

وشعرت اذ ذاك بخيبة تدمي قلبي فأطرقت الى الأرض المفروشة ببساط فاخر ، وكانت سيجارتي اذ ذاك ملقاة تحترق في بطء على المائدة الصغيرة التي أمامنا فتناولتها أنت وجذبت منها «نفسين» .

وتذكرت اذ ذاك مسرحية برنشتين «السم» التي كنت أقرأها ليلة سمعتك تتحدثين الى للمرة الاولى ، كان المؤلف الكبير يقصد بالسم تلك العاطفة التي تتغلغل تحت الجلد وتستقر في الدم فلا يمكن تحريره منها .. وخيل الى أنني لن أستطيع أن أعيش بدونك ..

وطال صمتنا .. ونسينا أننا نعيش برهة آثمة لا حق لنا فيها ..

ودقت الساعة الكبيرة الموضوعة فى أقصى البهو اذ ذاك تسع دقات فى جرس موسيقى وشعرت بجسمك يرتجف تحت ثوبك المذهب الذى كشف عن فتنة متأججة، وكأنك تبينت أننى شعرت برجفتك فسألتنى وأنت تقتربين منى وتضعين وسادة من ريش النعام خلفى لأستريح كأنك كنت تعلمين أننى مرهق ٠

ـ ماذا بك ياحلمى ؟

وأطلت النظر الى الاهداب المسدلة على عينيك الواسعتين وقلت فى همس ٠

ـ أريد أن أعيش الى جانبك مرة كل أسبوع ٠٠ مرة كل شهر ٠٠ ساعة ٠٠ أو نصف ساعه ٠٠

أراك ٠ وأتحدث اليك ٠ وأشم عبيرك ثم أعود من حيث أتيت لا أطلب شيئا أكثر من ذلك ٠٠ تعالى اقرئى معى صفحة من كتاب ٠٠ قطعة شعر ٠٠ حوارا فى قصة أو اسمعى معى قطعة موسيقى ٠ أو انصتى معى الى صفير فى طريق خال من الناس أجمعين ٠٠ أو شاهدى معى تجمع قطرات المطر على نافذة غرفتى ٠٠ ذات ليلة من ليالى الشتاء ثم عودى ، عودى مسرعة الى بيتك ٠٠

وعندئذ تنهدت طويلا كأنك تزيحين عن صـــدرك عبئا هائلا ·· وحاولت أن تقولى كلمة وقفت فلم تنطقى بها ، كلمة خيل الى انها · ياليت ! ، وترنح صدرك ثم ألقيت برأسك على كتفى وارتجفت شفتاك كأنهما جفنا عين تجهش بالبكاء ·· وأدنيت شـــفتى لاجفف العبرة التى خيل الى أنها ستسيل من شـــفتيك ·· وعشـــنا فى قبلة طويلة ·· ولكننى فجأة رأيتك تتخلصين منى وأنت تشهقين وقد بان الذعر على وجهك ··

ــ ماذا فعلت ياحلمى ؟ ــ فاجبتك وأنا أطيل النظر الى شفتيك :

ــ لا شىء

وعبس وجهك فى ســـذاجة طفلة ثـــم قلت وأنت تطرقين الى الارض :

ــ انك شرير · شقى ··

وعدت الى منزلى ليلتئذ دون أن أحاول التخلص من نشوة تلك القبلة ، وحدث بعد ذلك أن تناقشنا مناقشة عاصفة فاختلفنا بضعة أيام ثم تصالحنا لنعودالى التشاجر

مرة أخـرى ، وكنت فى كل مـرة تتشـاجرين تحاولين ايهامى بأنك لو تخلصـت مـن حياتك الـراهنة فانك معتزمة أن تقترنى بقريب لك تربطه بك عاطفة قديمة منذ الطفـولة ، وكنت أعرف أنك تريـدين بذلك أن تثيرينى ولعلك تذكرين يوم سألتنى عن رأيى لو أقدمت على هذا الزواج فقلت لك فى ضحكة ساخرة :

ـ سميره هانم تعشق !

لم أكن أعبأ بذلك لأننى كنت اذ ذاك فى مسـتهل حياتى الادبية ، وكنت أعب من حياة القاهرة الليلية بما يكفى شابا فى سنى وقتئذ ، فلم تكونى المرأة الوحيدة التى أعرفها وأتحدث اليها ، كثيرات غيرك كنت ألتقى بهن ، وأحادثهن ، وأضـحك معهن ، وأقضى سـهراتى حمراء حتى الصباح ، ولعل ذلك هو الذى أغرانى على أن أغلو فى العناد عندما تشـاجرنا للمرة الاخيرة ، لا أخفى عنك أن حياتى تطورت بعد أن انقطعت علاقتنا تطورا آخر . قدمت الى الكثيرات وصادفنى نجاح لم أكن أحلم به يوم أن عـرفتك ، اعجـاب قارئة فى الثـانية والعشرين بشاعر فى الخامسة والعشرين .. كان اعجابا طفلا ولاشـك ، لم تكن جهودى اذ ذلك تعدو محاولات

أولى نحو كتابة القصيدة المسرحية ، ولكننى ايضا لاأخفى
عنك ان ذكرى تلك القبلة ·· قبلتنا الأولى والأخيرة
ظلت محفورة فى خيالى فلم أوفق قط الى التحرر منها··
اننى منذ عامين لم ألتق بك ، لم أرك حتى من بعيد فى
ملهى أو محفل عام ، ولم أسمع صوتك ولكننى كنت
أحس كلما قبلت امرأة أخرى بأن هناك شيئا ينقص
قبلاتى الأخيرة ويفقدها الكثير من فتنتها وروعتها ·

اننى أكتب اليك الآن بعد أن أعدت قراءة مسرحية
برنشتين (السم) عجبا ···

أيمكن أن تكفى قبلة واحدة لكى تسمم حياتى الى
الأبد ؟

اننى موقن بأنك أنت الاخرى مسممة بتلك القبلة
لا تتكلفى الرزانة يا صديقتى ·· أربعة أعوام طوال
تكفى ولاشك لكى تحررك من كبرياء الطفلة الساذجة
التى كنتها يوم بدأت علاقتنا القديمه ··

اصارحك هنا بأننى لا اود قط أن أعود الى تلك
العلاقة ولكننى أريد أن تعترفى بأن قبلة ذات ليلة من
ليالى عاطفتنا قد كفت لكى تسمم حياتينا· لايهم اذا كنت

ستتابعين حياتك المتشابهة واذا كنت أنا سأتابع هـذه الحياة الصاخبة المرهقة بين عملى الادبى فى الصباح وتنقلاتى فى علب الليل بعد انتهاء ذلك العمل ·· ليكن لنفترق ·· ولكن ثقى مرة أخرى بأن شيئا واحدا سيذكر كلا منا الآخر ذلك هو ·· ماذا ؟ نعم هو ·· سم تلك القبلة ·· ،

مطربة مائت

مطربة ماتت

١

لم يقدمها أحد الى عبد العظيم راغب مدير صالة الاتلانتيك · بشارع عماد الدين ·

بل تقدمت هى بخطى مرتجفة وقد تدلت أطراف ثوبها المرقع الباهت حتى وقفت أمام مدير الصالة الشاب الذى كان جالسا اذ ذاك خلف مكتب صغير فى الفناء الواسع الذى اعتادت راقصات الملهى أن يقمن فيه بأداء التجارب الاولى على المسرحيات الصغيرة التى تمثل كل ليلة فيه

وكان عبد العظيم قد انحنى ليصلح من فحم ···

الشيشة المحترق . فلما رفع رأسه وقع بصره عليها فدهش

فقرها البادى وثوبها الممزق ومظاهر وذبول عينيها لم تخف جمالا خفيا وتبين مدير الصالة بنظرته الخبيرة أنها ليست كغيرها من راقصات الملاهى الشعبية ، وأنها لابد أن تكون منحدرة من أصل آخر غير الاصل المعروف الذى يورد الكثيرات من أولئك الراقصات و .. منزل من منازل الهوى أو مكتب من مكاتب التخديم ، وتنقل ببصره من رأسها الى قدميها . قدميها العاريتين اللتين كانتا ترتعدان داخل صندل من الجلد الرخيص المتهدل الذى شحب لونه حتى استحال الى لون جلود الموتى ...!

تذكر عبد العظيم توا وهو يدقق النظر الى الفتاة الواقفة أمامه حادثا قديما يعود الى أيام طفولته بحى الانفوشى بالاسكندرية ، أيام هوى الموسيقى وضحى فى سبيلها بمستقبله مع أبيه المعلم محمود راغب تاجر السمك المعروف هناك . كانت تلك الفتاة تشبه الى حد كبير فتاة أخرى التقى بها ذات يوم وقد حملت حقيبتها هاربة من منزل أبيها الثرى الذى كان يجله اهل الانفوشى ويحترمونه . عباس شوقى أحد كبار الموظفين المحالين

الى المعاش • ولقد دهش اذ ذاك لمرأى ابنة عباس شوقى تسير فى الطريق حاملة حقيبة ثيابها ، فلما سألها علم منها أنها اختلفت مع أسرتها بسبب رغبتها فى الزواج بأحد طلبة كلية الشرطة ومعارضة الاسرة لها فى ذلك

منذ ذلك اليوم لم يقع بصر عبد العظيم على ابنة جاره الموظف الكبير • او سعادة البيه كما كان يدعوه أهل الأنفوشى • ونسى ذلك الحادث القديم الذى انقضى عليه خمسة عشر عاما • ولكنه ذعر عندما وجد نفسه منقادا الى تذكره عندما وقفت تلك الفتاة المجهولة أمامه كانت فى نحو الثانية والعشرين من عمرها • طويلة القامة نحيفة تكاد تتهاوى

وفجأة تحركت شفتاها وقالت فى نبرة مضـــطربة وجلة

ـ سمعت انكم تبحثون عن راقصة لهذه الصالة

فنفث عبد العظيم دخان الشيشة الذى كان قد ملأ به رئتيه ، وهو لايزال يطيل النظر اليها ثم قال بعد أن تظاهر بتعديل لى الشيشة

ـ أجل • أهلا وسهلا • أتجيدين الرقص ؟

فاحمرت وجنتاها وأجابت وهى تنقل بصرها بينه

وبين مجموعة الراقصات اللاتى كن يصــحن ويصرخن على القرب منهما

ــ قد أجيد الغناء أفضل من الرقص

ــ نسمعك

ونهض واقفا ثم جذبها من يدها وتقدم بها الى جانب الصالة الاخر · ووقف بجانب بيانو ضخم جلس أمامه شاب كان مديرا ظهره لهما ، وقد أخذت أنامله تمر مرا رشيقا على أصابع البيانو العاجية البيض ، وهو يهتز معها هزات متوالية فى طرب ·

وعندئذ دنا عبد العظيم منه وربت على كتفه فلما انتبه قال له

ــ هذه الفتاة تود الالتحاق بالصالة · كمطربة · اسمعها يارحمى واعطنى رأيك

وشملها رحمى هو الآخر بنظرة

كان رحمى شــابا فى نحو الثلاثين من عمره · فى بريق عينيه رقة وفى صوته طيبة استراحت لها حياة عندما سمعته يجيب شقيقه الاكبر عبد العظيم

ــ حاضر ·· تفضلى

وجذب مقعدا أجلسها عليه ثم سألها عن الدور الذى تريد أن يعزفه لها لتغنيه ، فلما أخبرته به عاد يجرى أنامله على البيانو وبدأت هى ترتل انشودتها تقليدا لاحدى المطربات المعروفات ، فلما انتهت التفت الى عبد العظيم قائلا :

مدهشة · ـ وسألها ـ ما اسمك ؟

وتمتمت الفتاة ـ حياة ·· ـ ولكنها قبل أن تنطق بلقبها قاطعها عبد العظيم قائلا :

ـ لا أهمية لحقيقة لقبك · اسمك عندنا سيكون حياة شوقى

فتمتمت ـ حياة ·· شوقى · لابأس بهذا الاسم ·

ومنذ ذلك اليوم عرفت المطربة الراقصة الجديدة التى انضمت الى صالة الاتلانتيك باسم حياة شوقى ووزعت اعلانات اليد تحمل اسمها بحروف ضخمة ، وظهرت المجلات المسرحية تحمل صورة جديدة لها ، عنى رحمى راغب ملحن الصالة والعازف على البيانو فيها بأن يحصل عليها من مصور أرمنى معروف وفق فى ابراز جمالها وفى التركيز على مفاتنها

٢

وذاعت شهرة الراقصة المطربة الجديدة • وتقاطر زبائن مـلاهى الليل يحجزون أماكنهم لمشـاهدتها فى رقصتها العربية التى كانت تؤديها مصـحوبة بأنشودة أندلسية قديمة ، أجهد رحمى الفنان الشاب نفسه حتى لقنها لها فنجحت فى انشادها نجاحا باهرا •

واستأجرت حياة غرفة مفروشة فى شارع زكريا أحمد أقامت فيها بعد أن حـدد عبد العظيم لها راتبـا شهريا قدره عشرون جنيها • وأخذت تكثر من التردد على الغرفة التى كان يسكنها رحمى فى المنزل المقابل لمنزلها وتأخذ عنه دروسها الموسيقية •

وكثيرا ماكان يصحبها معه الى بعض الحفلات التى يقيمها نادى الموسيقى الشرقى ، ويشرح لها ما يلقى به من محاضرات ، ويبسط لهـا جهود أسـاتذة الموسيقى الراحلين ، حتى حفظت الكثير من أدوارهم وقصائدهم ؛ كما أنه قدمها الى الاحياء منهم فاستوعيت ماكان ينقصها فى العمل الذى توفرت على مزاولته

وكان عبد العظيم يـلاحظ ارتياح تعلق شـقيقه الأصـغر بالمطربة الجـديدة • لأنه تبين أن نجاح حياة وتدفق الزبائن على مسرحه لسماعها قد أغرى أصحاب

الملاهى الاخرى على الاتصال بها ومساومتها على ترك الصالة الاتلانتيك والانتقال اليهم فى مقابل أجر أعلى. وكان عبد العظيم يرجو أن يوفق شقيقه فى غزو قلب «حياة» حتى يضمن بقاءها معه ، ولذلك ذعر عندما اتصل به أنها انتقلت من «الغرفة المفروشة» التى كانت تسكنها فى شارع زكريا أحمد ، واشتركت مع السيد العتر أحد لاعبى «السيرك» ـ الذين عملوا من قبل فى صالة «الاتلانتيك» مدة قصيرة ثم استغنى عنهم عبدالعظيم عندما تبين أن ضمهم الى الملهى لم يفد فى زيادة ايراده ـ ذعر لأنه لم يفهم السر فى تفضيل «حياة» لعلاقتها الجديدة مع السيد العتر الذى لم يكن يدرى شيئا أكثر من ارتداء ثوب من ثياب البحر التى تظهر عضلاته ، والقفز على الحبل ، وأداء بضع حركات بهلوانية لاستجداء تصفيق الجمهور !

وانتظر حتى أقبلت «حياة» ذات يوم لاداء التجارب فانفرد بها ثم سألها :

ـ أحقا أنك انتقلت من غرفتك الى مكان آخر يا «حياة» ؟

ـ أجل . استأجرت شقة فى الفجالة . من ثلاث غرف .

ـ ولم ؟

فابتسمت المطربة الشابة وأجابت :

ــ لاشيء · كل مافى الأمر أن الغرفة التى كنت أسكنها لم تعد تكفينى ·

ــ كيف ! ألست وحدك ؟

ــ لا ·

ــ من معك الآن ؟

ــ السيد العتر

ــ أليس هو الذى كان يعمل وأخوته عندنا وفصلناه منذ بضعة أيام ؟

ــ أجل ــ فعاد يسألها فى لهجة ساخرة ·

ــ وما الذى راقك فيه ياحياتى ؟

ــ يحبنى · وقد أخبرنى أنه فى حاجة الى · أن أخوته جميعا متزوجون أما هو فيعيش وحده دون زوجة أو صديقة ·

فبدت الدهشة على وجهه وسألها :

ــ وماذا يعنى هذا ؟

ــ أنه الرجل الوحيد الذى أحبنى · لم أحس من قبل بقلب رجل غيره يخفق لأجلى ·

وتبين عبد العظيم أن من العبث اقناعها بالعدول عن تلك العلاقة ، كما أنه خشى من اغضابها فآثر السكوت ٠

وانقضت مدة أخرى ٠

وبدأت الاحلام التى كانت تداعب خيال «حياة» عن «رجلها» تتبدد ٠٠٠ أدركت أن السيد لم يكن يحبها كما توهمت فى أول الأمر ٠ كلما تعطل عن العمل كانت تمده بما يطلبه من مال فلما طالت فترات تعطله أرهقتها طلباته وضجرت تكشف العاشق الجنون عن قسوة وغلظة وانتهى به الأمر الى الاعتداء عليها كلما ترددت فى أن تجيب له طلبا ٠٠٠ الى أن حصل على عمل شبه دائم بأحد ملاعب «السيرك» فى «المذبح» فاختفى ٠٠٠٠ وعلمت «حياة» أنه كان يبدو فى كل مكان مع نساء أخريات ٠٠ ثم عاد اليها عندما فصل من العمل وتعطل ٠٠

وظلت المطربة الراقصة تشقى بالحياة مع السيد العتر لاعب «السيرك» حتى التحق بأحد الفرق التمثيلية الجوالة فى أرياف مصر ، وفرحت «حياة» لانها تخلصت منه الى حين ٠

وكان نجاح «حياة» قد وصلت أخباره الى خارج القاهرة ، ونقلت الصحف اللبنانية والسورية صورها، فنشرتها مشيرة الى ما اعتادت الصحف المصرية أن تتناقله من أخبار نجاحها • وتقدمت احدى شركات السينما تعرض عليها العمل معها •

وذات ليلة استدعاها عبد العظيم مدير «الصالة» وقدمها الى أحد زواره قائلا :

ـ الرائد عمر طاهر ، يرغب التحدث اليك فى موضوع هام • انه صديقنا منذ زمن طويل ، وقد تفضل بمساعدتنا كثيرا فى علاقتنا بشرطة المحافظة •

وتركهما فى غرفته ثم أغلق الباب وخرج ، وعندئذ التفت اليها الرجل وسألها :

ـ أتعرفين السيد العتر ؟

وحدق الضابط الشاب فى عينيها وكأنه ينذرها ألا تتهرب من الاجابة ، فارتجفت ثم تمتمت •

ـ نعم • أعرفه •

ـ منذ متى ؟

ـ من مدة •• سنتين •• أو ثلاثة •

ـ تعيشان معا ٠

ـ كنا نعيش معا ٠

ـ كيف ؟

ـ كان ٠٠ كان رفيقى ٠٠ أما الآن فأنا واحدة من كثيرات يعرفهن ٠

فابتسم الضابط الشاب ثم سألها :

ـ **تحبينه ؟**

فأجابته مسرعة :

ـ كنت ٠٠٠ كنت أحبه ٠

ـ اذا ماذا تعرفين عن حياته ؟

فاضطربت ثم أجابته بعد تفكير قصير ٠

ـ حياته ! انه يشتغل لاعبا فى ملاهى «السيرك» ٠

ـ أتظنين أن لاعبا يتقاضى بضعة جنيهات فى الشهر يستطيع أن يلبس الثياب الفاخرة التى يبدو بها ، ويتصل بثلاث عشيقات أو أربع ، ويتردد كل ليلة على الحانات ويقامر ٠٠

ـ لا أدرى ٠

واقترب منهـا ثم عـاد يسـألها وهو يضغط على الكلمات .

ـ ألا تدرين من أين له كل ذلك المال ؟

وتذكرت «حياة» اذ ذاك أنها سمعت أكثر من مرة أحاديث هامسة كانت تدور بين السيد واخوته ، ورجل من عرب الصالحية كان يتردد عليهم من حين الى آخـر لم تعلق اذ ذاك أهمية على تلك الأحاديث الهامسة التى كانت تدور فى ساعات مريبة . أحيانا فى ساعة متأخرة من الليل .. وأحيانا أخـرى فى الفجـر والتى كانت تتوقف كلما دخلت هى لتقديم قدح من الشاى للضيف .. واستجمعت شتات ذكريات أخرى .. سمعت ذات ليلة من حديث دار بين السيد وأخيه الأكبر الذى يقطن فى «أبى رواش» بمركز امبابه أن منزل ذلك الأخ هو المكان الذى توضع فيـه الاشـياء فهمت أنهم يريدون اخفـاءها وتدفقت ذكريات أخـرى ... فأطرقت الى الأرض تستعيدها وتفكر فيمـا اذا كانت تفضى بها . ولما أعاد الضابط سؤاله :

ـ من أين له ... من أين للسيد عثر هذا المال ؟

ارتجفت وأسرعت بالاجابة .

ـ من يدرينى ؟

ـ ولكن المباحث تدرى أن السيد العتر واخوته يتجرون فى المخدرات ، وأنهم يتظاهرون بالتنقل بين مراكز القطر مع الملاهى الشعبيةلتوزيع تلك المخدرات. ألا أستطيع أن أعرف منك أين يخفيها ؟

ولما لاحظ اضطرابها وضع يده على كتفها فى رفق وقال لها :

ـ لك جائزة كبيرة اذا أردت مساعدتنا .

فرفعت رأسها وأجابت فى حزم .

ـ قلت لك ياسيدى اننى لا أعرف شيئا عما تسألنى عنه . كل مافى الأمر أن ذلك الرجل كان يعيش معى ثم انفصلنا منذ مدة .

وعبثا حاول الضابط أن يثنيها عن عزمها ، فلما يئس نهض وهو يقول :

ـ كل ما أستطيع أن أقوله لك أن الحكومة مهتمة غاية الاهتمام بهذه العصابة . ويوم تستطيعين أن تفيدينى بشىء تحدثى الى «تليفونيا» .

وترك لها الرقم ثم خرج .

٣

وكان «السيد» اذ ذاك لايزال يتابع رحلته فى أرياف مصر ، ويرسل الى «حياة» رسائل موجزة فى فترات متقطعة من بعض البلاد التى يحل فيها ·

وطالت رحلته ثلاثة أشهر ··

وفى أثناء هذه المدة عرفت الدكتور عادل سرى · طبيب شاب كان قد تزوج من حسنية ابنة عمه أحد كبار موظفى وزارة الخارجية · وهى فتاة أثار ظهورها فى المجتمع المصرى ضجة اعجاب وتقدير · وتقدم لطلب يدها عدد من كبار الموظفين ذوى الرواتب العالية ، ولكنها فضلت عليهم جميعا ابن عمها عادل الذى كان الحب قد وثق مابين قلبيهما منذ الطفولة · واهتمت المجلات الاسبوعية بحفلة زفافهما فنشرت عنها الكثيرمن المعلومات والصور ·

وسعد الزوجان بالحياة عاما وبعض عام · ولكن الزوج فوجىء بمرض زوجته وشخص الاخصائيون مرضها فاتضح أنه سرطان فى الصدر ·

واسودت الدنيا فى وجه الزوج الشاب فهجر عيادته ، لم يعد يستطيع العمل وهو فريسة الحالة النفسية الأليمة التى انتابته عقب أن اكتشف ذلك

المرض القاسى فى صدر زوجته ، وقضى بضـــعة أشهر لايهدأ له بال متنقلا بين القــاهرة وبعض المستشفيات المتخصصة فى علاج هذا المرض الرهيب فى الخارج . أو محاولة علاجه . ولكنه كان فى كل مرة يعــود مع زوجته وهو متعلق بأمل واه فى شفائها الى أن استقر الرأى على تركها بالخارج بضعة أشهر لاتمام العلاج . وأخذ أصدقاؤه يضغطون عليه ليعود الى مــزاولة عمله بالعيادة . حتى وفقوا الى حد ما . ثم اســتدرجوه الى مرافقتهم فى بعض سهراتهم . اصطحبوه الى بعض دور السينما ، وبعض المسرحيات المرحة التى تعرضها الفرق التمثيلية .

وذات ليلة انتهت ســهرتهم بملهى «الاتلانتيك» . وجلس الدكتور عادل يشاهد البرنامج الذى كان يعرض على خشبة المسرح الصغير ، وهو شــبه ذاهــل ، الى أن ظهرت « حيــاة شــوقى » لتلقى انشــودتها ، انشــودة عاطفية .

كانت «حياة» تلقى الانشودة بصوت حنون عذب ، وكانت تعيشــها ، فاعجب بهــا عــادل ، وتأثر لهــا ، واستعاد معظم فقراتها . ولاحظ أصــدقاء عادل ذلك فأسر أحدهم فى اذن مدير «الصالة» أن يدعوها .

وبعد قليل كانت «حياة» جالسة الى جانب الطبيب الشاب . خيل اليه بعد حديث قصير أن نوعا من الالفة تدنيه منها وتربطها به .. كان ثملا فقد تجرع قبل مجيئه الى الملهى بضع كؤوس على غير عادته .. ولذلك لم تكد تسأله :

ـ أهذه أول مرة تشاهد فيها برنامجنا ؟ ـ حتى أسرع باجابتها :

ـ هذه أول مرة أدخل فيها ملهى من أى نوع منذ زواجى .. منذ خطبتى .. منذ أربعة أعوام ـ وتهدج صوته ، فاختنقت الكلمات فى حلقه ، وعندئذ وضعت «حياة» يدها فى رفق على يده التى كانت تهم برفع كأسه وسألت وهى تعيد تلك الكأس الى مكانها على المائدة وتجيل بصرها فى أصدقائه .

ماذا به ؟

وحاول أحد أصدقائه أن يتدخل لتغيير مجرى الحديث ، وهم عادل بالاجابة ولكن حياة مدت أناملها الى فمه تمنعه من الكلام وهى تقول :

ـ أنت متعب . استرح أنت هنا لتنسى همومك .. كل منا يحمل همومه بين جنبيه .

أتظن أنني لا أحمل هما ·

وأقبل اذ ذاك من يهمس في اذن «حياة» أن الراقصة التي كان عليها أن تظهر على المسرح قد تغيبت وأن عبد العظيم مدير الملهى يطلب منها أن تحل محلها ، فلما نهضت منصرفة سألها عادل :

ــ الى أين ؟ ــ فانحنت على كتفه في دلال وقالت هامسة وهى تربت على وجنته :

ــ لقد غنيت من قبل للجمهور · كان ذلك واجبا أؤديه كل ليلة · أما الآن فسأغنى لك · لك أنت وحدك ·

وأسرعت فاعتلت المسرح وأخذت تلقى أغنيتها وهى متجهة بكل بصرها اليه ·· وحده ·

وتردد الدكتور عادل سرى بعد ذلك أكثر من مرة على «صالة الاتلانتيك» · ولكنه أصبح يقبل بمفرده دون أن يصحب أحدا من أصدقائه · كان يجلس في ركن منزو من أركان الملهى يشاهد «حياة» حتى تنتهى من غنائها فتسرع اليه وتجلس بجانبه حتى ينتهى موعد العمل وكلما ثمل تطرق حديثه الى زوجته المريضة وغرامه القديم بها ·· وذكرياته معها خطيبا وزوجا ·· آلامه التي تمزقه أثناء زياراته لها في المستشفى الذى

يتولى علاجها فى الخارج .. كانت «حياة» تقبل عليه مهتمة مصغية .. عرفت أن ذلك الحديث عن زوجته يخفف بعض ألمه .

وشعرت مع توالى الليالى بعظم الفارق بينه وبين الرجل الذى كانت تعرفه . تبينت أن عادلا كان فى حاجة الى امرأة يرتبط بها حتى تشفى زوجته فتعود الى منزله ويعود هو اليها . كانت «حياة» واثقة من أن زوجته حسنية عائدة الى منزلها اذا تم شفاؤها .

ولكن «حياة» ، مع ذلك ، لم تستطع أن تقاوم ميلا الى عادل . ورغبة فى أن تلقاه ليلة بعد أخرى ... وألفة فى الانصات الى شكواه .. لقد ملأ فراغا فى حياتها .. هل أحبته ؟

كلما خطر لها هذا السؤال ارتجفت .. لم تكن تدرى اذا كانت فعلا قد أحبته ولكنها أحست دائما أنها لم تكن تقوى على الاستغناء عنه أو حتى الابتعاد عنه .. كانت دائما فى حاجة الى لقياه ..

كانت «حياة» تعلم أن الدكتور عادل سرى مشغول بحب امرأة أخرى .. ولكنها حاولت أن تنسى ذلك أو تتناساه ..

كان يكفى أن يمر عادل بمنزلها بعد انتهائه من عملة بالعيادة وقبل أن تغادره هى الى عملها لكى تحس بأنها سعيدة .. أسعد من جميع زميلاتها فى «الاتلانتيك» بل أسعد من جميع من لقيتهن فى حياة الليل التى تمارسها .

كانت الليالى التى قضاها معها بتلك الشقة الصغيرة التى كانت تقطنها بأول شارع الفجالة أسعد ليالى عمرها . كانت تعد له العشاء بيدها .. وعاء كبير ممتلىء بحساء ساخن . وقطعة من اللحم المشوى . ومجموعة من الخضر .. وانشود هادئة ترسل موسيقاها «اسطوانة» تدور على «جرامافون» موضوع فى أقصى غرفة الطعام ..!

وهبته «حياة» كل مايمكن أن تهبه امرأة لرجل . طالما رفضت دعوات العديدين من المعجبين المترددين على «الاتلانتيك» فى أن تقضى بقية الليل معهم .. وفضلت أن تقضى بقية هذا الليل معه .. مع عادل .. أو مع رسائله القصيرة التى كان يرسلها اليها من الخارج كلما سافر للاطمئنان على تقدم علاج زوجته . أو من القاهرة إذا لم يتمكن لسبب ما من لقائها فى موعد اتفقا عليه ...

٤

حدث ماكانت تتوقعه ...

فقد تلقى عادل خبرا عن تماثل زوجته حسنية للشفاء وعن وجوب سفره الى الخارج ليصحبها فى العودة الى مصر .

كانت «حياة» تتوقع تلك النهاية لعلاقتها له ، ومع ذلك فانها لم تكد تسمع ذلك الخبر حتى ارتعدت .. وأحست بأن الأرض تميد من تحتها .. وأنها توشك على السقوط .. وخشيت أن يلحظ عادل اضطرابها فاستجمعت قواها وهنأته بشفاء زوجته ، وتمنت له و .. لها كل خير ..

ولم تكد تخلو «حياة» الى نفسها حتى أحست بوحشة فراغ رهيبة .. ماذا تفعل بعد أن يرحل عادل ؟ هل يمكن أن تعيش بدون أن تلقاه . أو تتحدث اليه . أو ... حتى أن تستمع الى شكواه وأنينه من مرض زوجته .. حسنية ؟

ومرت الأيام والليالى . عادل « خياة » تعيش حياة المطربة الراقصة التى تبيع صورتها ومفاتن جسمها كل ليلة لجمهور السكارى الصاخبين الذين يترددون على ملهى «الاتلانتيك» .. أرقت في الليالى الأولى التى تلت

سفر عـادل فاذا غمضت عينهـا فترة لاتلبث أن تنهض مذعورة ...

عادل يفتح باب شقتها ويستحثها على ارتداء ثيابها لكى يصحبها ..

عادل يقرأ برقية وردت اليه بأن زوجته .. حسنية قد ساءت حالتها ..

عادل يكتب اليها رسالة يطلب اليها فيها أن تكف عن العمل فى الملهى على أن يكفل لها حياة هادئة . ولكنها سرعان ماتتبين أنها كانت تحلم .

وتضعف صحة «حياة» . فقدت شـهيتها للطعـام وهزل جسمها وشحب لونها ولما استشارت أحد الأطباء شك في اصابتها بمرض فى قلبها ونصحها بأن تستريح قليلا من العمل المرهق المستمر والسهر المتوالى ، ولكنها ابتسمت ساخرة وغادرت عيادته الى الصالة .

وعاد السيد العتر اليها بعد أن انتهى من رحلته في الأرياف فقبلت عودته الى منزلها مرغمة ..

وكان السيد قد سـمع الشيء الكثير عن عـلاقتها الأخيرة بالدكتور عادل سرى ، فقد أفشت فتيات «صالة الاتلانتيك» سر تعلق حياة بالطبيب الشاب أثناء غياب

السيد ، ولكنه لم يصارحها بأنه عــرف شــيئا عن تلك العلاقة •

كان قــد أنفق كل ماعــاد به من الرحلة • وكان رجال المباحث الجنائية كانوا يتعقبونه فى كل مكان • وضاقت الدنيا فى وجهه ، فاضطر أن يعقد الاجتماعات التى كان قد اعتاد أن يعقدها فى منزل أخيــه الاكبر «بأبى رواش» فى منزلها هى بالفجالة •

وكانت «حياة» تتظاهر بالنوم وتنصت فعرفت كل شىء عن العصابة التى كان عشيقها الســابق رئيســها وواضع خططها •

وعادت ظهر ذات يوم فوجدت الســيد جالسا فى غرفة نومها وأمامه «الشيشة» التى اعتــاد أن يدخنهــا وزجاجة «الزبيب» الذى أدمن على تعاطيه • ولم يكد بصرها يقع عليه حتى تبينت أنها أصبحت تكرهه حتى الموت •

والتفتت لتخلع معطفها فلم تشعر الا والسيد يقوم من مقعده ويطوقها بذراعه ثم يغتصب منها قبلة ••• وعندئذ تخلصت منه بسرعة وهى تقول فى تهدج •

ــ ابعد ــ فترنح قليلا ثم قال لها :

ـ منذ متى تجرئين على مخاطبتى هكذا ؟ أنسيت أننى عشيقك ؟

فصرخت ·

ـ أخرس ! لم أعد أطيق أن أرى وجهك · أخرج من بيتى · وأفعل ماتشاء أنت وأخوتك بعيدا عنى ···

ولكنه لم يثر كما كانت تتوقع ·· بل تمالك نفسه ثم قال لها فى لهجة تكلف رقتها :

ـ يظهر انك مرهقة الاعصاب من العمل يا «حياتى» أيخيل اليك أنك مهما قسوت أستطيع ؟ التخلى عنك ؟

ـ اننى أكرهك ·

ـ مجنونة ! كنت على وشك أن أدلك على فكرة رائعة نربح منها مبلغا كبيرا ·

ـ لاتحاول عبثا اغرائى · أنا لايمكن أن أشترك معك واخوتك فيما ترتكبونه ·

فقال لها فى صوت هامس بعد أن تلفت حوله ·

ـ كم أنت مخطئة · اننى أحدثك عن موضوع آخر

فقد عثرت اليوم هنا على بعض رسائل الدكتــور عادل سرى اليك • رسائل مكتوبة على بطاقات عيادته •

وذعرت حياة لدى سماعها ذلك وتراجعت الى الخلف ثم سألته :

ــ وماذا تريد منها ؟

ــ لقد عاد الى زوجته • وغدر بك • لم لانستفيد من هذه الرسائل ؟ لقد خطر لى أن أرســل الى الدكتور وأخبره بأن هذه الرسائل تحت يدى •

ــ نذل • قذر !

فابتسم ابتســامة ماكرة ثم قال لهــا وهو يتظاهر بالهدوء :

ــ لاتثورى • ان الرسائل معى ولن أسلمها الا ••

ــ انت واهم • لن تستطيع استغلالها مادمت حية •• أتسمع ؟

ــ كيف ؟ سأتصل غدا بالدكتور عادل • أنا واثق من أنه لن يسمح بأن تعرف زوجته أنه اتصل بك عندما كانت مريضة فى الخارج • أى مبلغ نحصل عليه منــه أفضل من عينه •

ـ لن أمكنك من ذلك قط ٠

ـ ستعرفين غدا أنك بلهاء ـ ثم تركها وغادر المنزل ٠

وأخذت «حياة» تدور فى الغرف ٠ لم تحتمل قط فكرة السماح بتهديد عادل لابتزاز ماله ! واعتزمت أن تفعل المستحيل لكى تمنع تنفيذ السيد لخطته ٠٠

وتذكرت اذ ذاك الاحاديث الهامسة التى كان السيد يتبادلها مع اخوته عن المكان الذى اعتادوا أن يخفوا فيه المخدرات المهربة فى منزل «أبى رواش» ٠ وتذكرت الضابط الذى قدمه لها عبد العظيم ذات يوم فى «الصالة» ولكنها كانت قد نسيت اسمه ، فأسرعت بوضع معطفها على كتفها وغادرت المنزل عائدة الى «الصالة» فلم تجد عبد العظيم بل وجدت شقيقه رحمى ٠ فسألته عن اسم الضابط ، ولما أجابها أسرعت الى التليفون وطلبت اليه أن يسرع بالحضور الى «الاتلانتيك» فلما حضر الصاغ عمر طاهر اختلت به وأسرت اليه بكل ماتعرفه عن عصابة السيد العتر ٠٠٠

وصدرت صحف اليوم التالى تحمل أخبار القبض على السيد العتر والعثور على كميات كبيرة من الأفيون والحشيش مدفونة فى منزل منزو بناحية «أبى رواش»

وأثار الخبر ذعر راقصات «الاتلانتيك» ودهشة المترددين عليه ، وتحدث الجمهور عنه ، بأن سر تبليغها سينكشف وبأنها ستدفع ثمن ذلك غاليا ٠

٥

وفى مساء اليوم التالى ذهبت الى «الصالة» قبل الموعد الذى اعتادت أن تذهب فيه اليها ٠ وجلست وحدها الى جانب « البيانو » على المقعد الذى جلست عليه يوم تقدمت الى عبد العظيم راغب مدير «الاتلانتيك» تعرض عليه العمل بالملهى ، ولم تكد تنقضى بضع دقائق حتى هرول اليها عبد العظيم وقد بدا على قسمات وجهه الفزع الشديد وسألها فى صوت مرتجف ٠

ـ ألا تعرفين ماذا فعل السيد العتر بنفسه ؟

فرفعت حياة رأسها فى بطء شديد وهزته وهى تتمتم فى صوت خافت :

ـ لا ! ٠٠

ـ لقد انتحر قبل اعادته من نيابة المخدرات الى السجن ظهر اليوم ٠ انتحر بالقاء نفسه من الطابق الثالث فى دار النيابة ٠

ثم تلفت حوله وانحنى عليها وقال فى صوت أشد خفوتا •

ــ هــل أفضى أخى رحمى بسر تبليغك الى أخــوة العتر ؟

فعادت «حياة» تهز رأسها وأجابته :

ــ ماذا عساه يفضى به ؟

ــ لا أدرى • الا أننى لاحظت أن أخـــوى العتر ترددا على الملهى اليوم ثلاث مرات للسؤال عنك • وقد رأيتهما أمس يغادران احدى حانات «قنطرة الدكة» مع رحمى • أخشى أن يكون أخى قد وشى بك •

فتكلفت ابتسامة هادئة ثم عــادت تهز رأسها فى استسلام رهيب وقالت :

ــ لا أدرى •

ولكنها بدأت تشك •• فقد كان رحمى جالسا الى جانب البيانو عندما جاء الصاغ عمر طاهر بنــاء على طلبها • وعندما أفضت اليه بسر عصابة السيد العتر ، ولذا لم تندهش ليلتئذ عندما وجــدت شقيقى الســيد ينتظرانها على باب الملهى ويدعوانها لمصاحبتهما بحجة اعادة بعض مايخصها من أوراق لدى شقيقهما المنتحر •

وخطر لهـا أن ترفض ولكنهـا كانت لاتزال تأمل أن تسترد رسائل عادل · ولم تكد تتحرك السـيارة حتى تبينت «حياة» أنها كانت تنطلق بسرعة خائفة خارج القاهرة ·· الى طريق الهرم · وبعد صمت طويل قال الأخ الاكبر ·

ــ اخبرنا رحمى أن الصاغ عمر طاهر قابلك أمس ·· ماذا قلت له ؟

فاستجمعت «حياة» قواها وأجابته :

ــ لم أقل شيئا ·· لا أعرف شـيئا أقوله ·· ماذا قال لكم رحمى ؟ كنت واثقـة من أن رحمى لن يسكت عن الثأر منى لاننى هجرته واتصلت بأخيك ··

فقاطعها أخو السيد الأصغر قائلا :

ــ وجاء الدور على أخينا السيد فغدرت به ··

وخطر لحياة أن تقاوم أو تستغيث ، ولكنها عدلت عن هذا الخاطر سريعا · كان الرجـلان يحيطان بها ، وقد مـد كل منهما يده وقبض على ذراع من ذراعيهـا فاستسلمت ·· كانت السيارة تنهب الطريق الزراعى الموحش الخالى ·

وظلت السيارة منطلقة وبدأت تقطع طريقا زراعيا ملتويا لم تعرفه «حياة» من قبل ·

وأدركت «حياة» أن حياتها مهددة بخطر ·· ومر بخيالها ماصادفته منذ التحقت بعملها فى ملاهى الليل ·· رحمى الذى عطف عليها عقب التحاقها بذلك العمل وتعلق بها وحاول أن يتخذها عشيقة ولكنها لم تستطع أن تحس نحوه بأكثر من عرفان الجميل ·· السيد العتر الذى أضفى عليها حمايته فخيل اليها أنها أحبته ولكن قسوته عليها واستغلاله لها كشفا لها أنها كانت واهمة وأنه لم يكن الرجل الذى طالما حلمت بأن يشاركها الحياة ···

وأخيرا غادل الذى كانت تعلم أنه يحب زوجته ومع ذلك فقد ملأ فراغ حياتها · وآثرى أنوثتها واعتزازها بنفسها ورد اعتبارها أمام زميلاتها ···

وهاجمتها اذ ذاك نوبة القلب التى كانت تشكو منها بين وقت وأخر والتى نصحها الاطباء على أثرها بأن تستريح من العمل فلم تفعل ، وأحست بألم شديد خيل اليها أن قلبها قد نزف كل مافيه من دم ، فأرادت أن تصرخ من هول الالم ، فتحت فمها وحركت يديها ولكن الرجل الذى كان جالسا الى جانبها أهوى بيده على رأسها فأطبقت شفتيها وسكتت · وانقضت بضع دقائق أخرى ووقفت السيارة الى جانب شجرة كبيرة من

الاشجار التى تظلل الطريق الموحش فى الليل البهيم ، ومد الرجل الذى كان جالسا الى جانب حياة يده اليها فلم يكد يلمسها حتى صرخ

ـ هيا بنا ننزل

وسأله الاخر الجالس خلف عجلة القيادة

ـ ماذا جرى ؟

فأجابه فى صوت مرتجف :

ـ ماتت . ان يدها مثلجة .

ـ كيف ؟

ـ كانت تعرف ماسوف نفعله بها فماتت من شدة الخوف .

وانقشعت اذ ذاك سحابة كثيفة كانت تحجب القمر فظهر وجه «حياة» ـ وقد فاضت روحها ـ شاحبا ذابلا .

وسادت برهة صمت رهيب تبادل أثناءها الاخوان نظرة طويلة ، ثم حملها أحدهما وألقى بها الى جانب الشجرة الضخمة . ثم رفع ذراعيها الباردتين وضمهما الى صدرها العارى .

وعادت السحابة الكثيفة تحجب ضوء القمر .

. . . .

. . . .

. . . .

ولما اختفى صوت السيارة عائدة الى القاهرة كان ذئب من ذئاب تلك الضاحية النائية من ضواحى القاهرة يعوى من بعيد .

نصف أرملة

نصف أرملة

١

كانت أنعام قد دخلت منذ برهة الى مكتب الشاعر ممدوح عادل وتلفتت حولها كأنها تريد أن تتحقق من أن أحدا لم يكن ينصت الى حديثها ، ثم قالت :

ــ لاتندهش ياسيدى من هذه الجرأة . جرأة امرأة لاتعرفها . ولم تسمع من قبل باسمها تقبل اليك فى مكتبك لتكشف لك عن أسرار حياتها .. ومع ذلك ..

وابتسم ممدوح ابتسامة وديعة ، ومال على المائدة الصغيرة التى كانت تفصله عن زائرته الشابة ثم قال فى رقة :

ـ أراك مضطربة ياسيدتى .. فتمتمت .

ـ أقبلت موقنة بأنك الرجل الوحيد الذى يمكن أن أكشف له عن آلامى ومع ذلك ترددت بعد أن وجدتنى وجها لوجه أمامك ـ فسألها عادل مبتسما :

ـ ولم ؟

ـ وعندئذ استجمعت أنعام بعض شجاعتها وأجابته :

ـ لاتغضب اذا صارحتك . لقد استمعت الى اذاعاتك خلال الشهر الماضى . الاذاعات التى تحدثت فيها عن الوحى الذى يلهب خيال الشعراء فى مصر . ويلهمهم الكثير من أعمالهم . لاتزال ترن فى أذنى كلماتك وأنت تقول بصوتك المتهدج «ان حياة الكثيرات من نسائنا . زوجاتنا وفتياتنا مأساة دامية . من حقها أن تسجل فى عمل فنى . هناك عبرات تسيل كل يوم على وجنات أكثر من امرأة فى أكثر من بيت ، دون أن يحس بها أحد من الغرباء عن ذلك البيت . بل دون أن يحس بها بعض أهل هذا البيت» .

وسكتت أنعام قليلا كأنها تستعيد قواها ، ثم دققت النظر الى الشاعر الشاب واستمرت قائلة :

ـ سمعتك تقول هـذا الكلام · وخيـل الى أنك توجهه الى دون غـيرى ـ وسـادت فترة صـمت قطعها ممدوح بقوله :

ـ انك الوحيـدة التى أقرتنى على ذلك · لقـد انتهيت منذ لحظة من قراءة مقـال هاجمنى فيـه كاتبه باحدى المجلات الكبيرة ، لأننى قلت ان هذا الحزن الذى نحسه فى الكثير من الاغانى ليس بدعة كما يدعون وانما هو صدى مشاعر تضطرم فى قطاعات من مجتمعنـا · وقد سخر منى لأننى استندت الى القطعتين القديمتين اللتين لايزال يرتلهما مطربو العهد القديم ـ فقاطعته :

ـ أجل ، أذكرتينك القطعتين · أليس مطـلع الاولى :

صبحت من عشـقك أبكى   حتى انجرح جفن عينى

والثانية ·· انتظر ·· طالما غنيتها وحـدى وأنا أبكى · تذكرتها ·· ان مطلعها :

القلب قال للعين   انتى سبب ذلى

فابتسم ممدوح ، وسألها وهو يقدم لها سيجارة :

ـ اذن فأنت ··· ـ ثم تردد ولم يتم جملته ·

فقالت وهى تعتــذر بحــركة رشيقة عن تنــاول السيجارة :

ــ تريد أن تقول اننى لابد أن أكون عاشقة حتى أبكى من سماع هذا النوع من الاغانى أو من ترتيلها . لا ... أؤكد لك . تجاوزت الخامسة والعشرين ، ومع ذلك فاننى لم أحب بعــد . مــاذا تريد ؟ اننى لا أثق برجل .. حتى أنت ! ..

فضحك ثم سألها وهو يشعل سيجارته :

ــ ماذا فعلت حتى تثورين على ؟

فأجابته :

ــ لم تفعل بعد شيئا . ولكن .. لا أدرى .. طلبت منك منذ برهة ألا تغضب اذا صارحتك بأثر لقائك فى نفسى ــ فلما سألها ممدوح :

ــ ماهو هذا الأثر ؟ اننى شغوف بأن أعرفه .

ــ عمست أنعام .

ــ ماذا ؟ رجل كغيرك .. لا أظن أنك تختلف عن آلاف الرجال الذين أكرههم ..

ــ وعاد يسألها :

ــ وماذا كنت تنتظرين قبل أن ترينني !

ــ لم أكن أتوقع أن أراك تبتسم وأنا أخبرك انني طالما غنيت قطعة :

القلب قال للعين انتى سبب ذلى

ــ وماذا فى هذه الابتسامة ؟

ــ ان معناها لم يغب عنى . انكم جميعا ، حتى انت ، تظنون أن أية امرأة تجاوزت العشرين لابد أن تكون قد أحبت ، ان لم يكن فى سن مبكرة عن العشرين فعلى الأقل فى هذه السن . وان لم يكن عدة رجال فعلى الأقل رجلا واحدا . ولكنكم واهمون . أقسم لك أن قلبى لم يخفق بعد بحب رجل .

واغرورقت عينا الزائرة الشابة بالدموع . وأسرعت ففتحت حقيبتها لتخرج منها منديلا تجفف به عبراتها . ثم قالت فى صوت منتحب خافت :

ــ ومع أننى لو أحببت رجلا آخر لما أجمع الناس على لومى ..

وتمتم ممدوح ــ رجلا آخر ... ؟ ــ فاندفعت أنعام تقول فى صوت متهدج :

ـ بدأت حديثى معك بأننى أقبلت لأكشف لك عن سر المأساة التى تدمى حياتى . لانى وحيدة هنا فى القاهرة ، أهلى جميعا فى الاسكندرية ، وقد تزوجت من اسماعيل يسرى المهندس ابن ثابت يسرى الثرى الكبير . خطبنى كما تخطب كل فتاة ، وأغرت شهرة أبيه وثروته ابى فزوجنى منه . ولكننى تبينت بعد الزواج انه كان زوجا لامرأتين قبلى . وهو أمر أخفاه عن أسرتى ، احتملت ذلك ، وتعزيت عن هذه الصدمة التى هزت خيالى السابق عن رجل أحلامى الذى لا ماضى له ، والذى كان مقدرا فى ذلك الخيال أن يهبنى عاطفة لم يسبق أن وهبها لفتاة أخرى . تعزيت عن ذلك بالعناية بابنه من زوجة سابقة . ورضيت بهذه الحياة الذليلة الى جانب رجل لا أحبه . ولا يحبنى بضعة أعوام . ولكن القدر أراد أن يمعن فى اذلالى . ففوجئت فى الشهر الماضى بخبر أنه تزوج من خادمة تعمل فى منزل أحد أقاربه . تزوجها خفية منذ بضعة شهور

فسألها باهتمام :

ـ وماذا فعلت بك هذه الصدمة الجديدة ؟

وعندئذ أجابته :

ـ تحملتها كسابقتها . اننى أعيش معه تحت سقف

بيت واحد ، ولكن قد تنقضى بضــعة أســابيع دون أن نتبادل حتى ولا كلمة واحدة • هذه هى «قسمتى» يجب أن أنحنى أمامها • ومع ذلك فــلا تنس أننى من أسرة رجعية محافظة ، لاتسمح حتى بالاشارة ولو من بعيد الى فكرة الطلاق • افترضت اننى تزوجت ثم مات زوجى، لست أول أرملة !

وضحكت أنعــام ضــحكة فاترة ثم أتمت جملتها قائلة :

— اننى أختلف عن الأرامل الأخريات بأن زوجى حى أمام الناس وميت أمامى • نصف أرملة !

وماكادت تنطق بالكلمتين الاخــيرتين حتى ارتجف جسد ممــدوح •• لقــد أوحت اليــه هاتان الكلمتان بفكرة قصيدة جديدة •• ونهض مسرعا ثم تقدم اليها وأمسك بيدها ، وأخذ يحدق النظر فى وجهها •• عينيها السوداوين الواسعتين ، وأهدابها المنسدلة فى رفق على وجنتيها ، وشفتيها الممتلئتين ، كان كل ذلك يعبر عن جمال عربى صميم • وكأنها أحست بما كان يجول فى خاطره ، فضغطت على يده وقالت :

— أتوسل اليك •• لاتكرر الكلمــات التى اعتاد

الرجال أن يقولوها لكل امرأة يصادفونها في وصف شعرها وعينيها وفمها ، لاتكن كغيرك ·

ــ لن أقول شيئا ، ولكن عندى سؤال واحد ·

ــ وما هو ؟

فقال لها :

ــ هل أراك مرة أخرى ؟ · · ·

فسألته وقد ارتجفت أهدابها ·

ــ لماذا ؟

ــ وعندئذ قال لها وهو لايزال يطيل التحديق فى عينيها :

ــ خطرت لى فكرة قصيدة جديدة أنت وحيها · ·

٢

وتكرر تردد أنعام على مكتب الشاعر ممدوح عادل · · ·

لقد اكتشفت أن نظراتها تحمل ذلك الألم المكبوت الذى يشع من عيون أنصاف الأرامل · النساء اللاتى عليهن أن يتظاهرن أمام الناس بابتسامة زائفة · بينما

عيونهن تنطوى على ذلك الألم الدفين · ألم المرأة التى تحمل اسم رجل لايحبها ولا تحبه !

ولما انتهى الشاعر من قصيدته كان قلب أنعام قد بدأ يخفق بعاطفة لم تعهدها من قبل ·

ذات ليلة لاحظت أنه كان يحدق فى قسمات وجهها، واتجاه نظراتها ، والتجعـدات الخفيفة التى بكرت فى التجمع على جبينها الشاب ، وان سيجارته قد احترقت كلها وبدأت تلهب شفته دون أن يحس فابتسمت ، ثم نهضت وأسرعت اليه لتنتزع جمرة السيجارة من فمه · وعندئذ صاح بها :

ـ لم فعلت هذا ؟ · · ·

فأجابته :

ـ كادت السـيجارة تحـرق فمك دون أن تحس ! وأطلقت ضحكة مرحة عالية فقال لها :

ـ وتضحكين أيضا ؟

فقالت له وهى تحاول كتم ضحكاتها :

ـ شرير ! أكتب على أن أظل حزينة ؟! · ·

فتمتم :

ـ الى أن انتهى من قصيدة هذه الأغنية !

ولما صحبها ليلتئذ الى منزلها بحدائق القبة ، شهدت احدى أشجار الضاحية ليلتئذاثنين يتبادلان قبلة طويلة، كلها وله ، وشغف ، وحنان ..

ولم يكد ممدوح يعود الى منزله كان جرس التليفون يرن فى تلك الساعة المتأخرة من الليل .. فلما رفع السماعة ، سمع من الجانب الآخر تسجيلا للاغنية التى مطلعها :

القلب قال للعين انتى سبب ذلى

فعرف من الذى أراد أن يسمعه تلك الاغنية فى تلك الساعة ، وأعيدت سماعة الجانب الآخر فى رقة بعد انتهاء الاغنية دون أن يتكلم أحد .

. . . .

وتوثقت العلاقة بين ممدوح وأنعام ..

واشتد تعلق أنعام بالرجل الذى ظهر فجأة فى أفق حياتها .

وتكررت حوادث الغيرة التى كانت تثور فى صدر أنعام كلما تبينت أن ممدوحا ـ بحكم عمله ـ يقابل

غيرها من النساء • ويتصل بغيرها • وتبين ممدوح أن انعام وحى أغنيته الناجحة انمـــا هى امرأة كغيرها ، تغار لسبب ولغير ماسبب ، بل انها لاتفكر قبل أن تصرخ قائلة :

ـ اننى أغار من كل امرأة تمر أمامك ، أو تتحدث اليك ، أو يصل عطر ثيابها من بعيد الى أنفك • لا أنكر أننى أغار حتى من ابنة خالتك التى رأيتهـا ذات يوم هنا تتحدث اليك عن خلاف قضائى بينكما على حصة فى وقف • لا أنكر شيئا من هذا ، ••• ماذا تريد ؟ أعترف بأننى أحيانا أتمنى أ نتمرض لكى لاترى امرأة أخرى فى الخارج ولأظل أنا وحدى الى جانبك • بل أتمنى أحيانا أن تعمى عيناك فجأة وأنا الى جانبك حتى أكون آخر امرأة وقع عليها بصرك !

وحدث ذات يوم أن انتظر بسـيارته أمـام باب احدى «العمارات» الحديثة حتى أقبلت فتـاة كان على موعد معها لكى يصحبها الى أسـتاذ أجنبى من أسـاتذة الموسيقى ، قدم الى مصر فى زيارة •

كانت الفتاة احدى زميـلات ممدوح ، وكان قـد ارتبط بالموعد • وقد سألته أنعام ـ كما اعتادت كل

يوم ـ عما سوف يفعله بعد الظهر فادعى أنه سيتناول الغذاء فى الجيزة عند خاله ٠

وشاءت المصادفة أن تذهب أنعام لتناول الغداء عند احدى قريباتها ٠ وكانت تسكن فى شقة أخرى بنفس «العمارة» التى هبطت منها زميلة ممدوح ٠٠ وشاهدته وهو يقف بسيارته على مقربة من الباب وقفة مريبة ، ثم وهو يفتح الباب لفتاته ، ثم وهى تقفز لتجلس الى جانبه ٠٠

واسودت الدنيا فى عينى أنعام ٠٠ كانت تعتقد أن الرجل الوحيد الذى لم يعرف الكذب هو ممدوح ٠

وظلت الى جانب «التليفون» تسأل عنــه عشرات المرات ٠٠ حتى عثرت به ٠

وكانت ثورة ٠٠ ثورة هائلة وضعت فيها كل حبها وغيرتها ٠٠

ولما أعاد ممدوح سماعته الى مكانها ، كانت آخــر كلمة من كلماتها لاتزال تدوى فى فضاء الغرفة التى أوحت له فيها بكتابة قصيدته «نصف أرملة» ٠

ـ نذل !

ومد يده فانتزع الصفحات التى سطر عليها قصيدة «نصف أرملة» وألقى بها الى درج يضم بعض الأوراق المهملة ·

وأغلق الدرج · ثم اتجه الى فراشه ·

٣

انقضت اربعة أعوام على ذلك الحادث ·

لم لم يلتق ممدوح بأنعام قط · ولم يعد يسمع شيئا عنها · اللهم الا خبرا اتصل به مصادفة عن طلاقها ·

الى أن كانت تلك الليلة التى أقيمت فيها حفلة لاحدى الجمعيات الخيرية بأحد النوادى الرياضية فى طريق الهرم ·

وذهب ممدوح كغيره ليشهد الحفلة · ووقف الى جانب «البار» يتناول قدحا من «الويسكى» ويدقق النظر الى المارات ··

وفجأة لمحها ·· هى ·· أنعام تسير فى ثوب من ثياب السهرة كشف عن معظم جسمها ، وقد أخذت تنفث دخان سيجارتها بشراهة مخيفة ، ولم تكد تراه

حتى أقبلت فحيته بحرارة ثم قفزت فاعتلت المقعد المجاور له ، وصفقت تطلب كأسا من «الويسكى» .

وذهل ممدوح لهذا التغير العجيب ..

لم تكن انعام تلك الفتاة الخجول التى تسعل كلما دخن أحد الى جانبها سيجارة ، والتى تتقلص عضلات وجهها اشمئزازا كلما مرت من بعيد أمام حانة جلس الناس حول موائدها .

وتبادل الاثنان حديثا عاديا سريعا .. ونادى المذيع يعلن عن «مباراة الجمال» . وأخذت المتباريات يمررن أمام الحكام يستعرضون أجسامهن وثيابهن ، وأسلوبهن فى السير .

وأخذت أنعام تعلق على الفنانات ، وهى تصيح فى مرح ، وتضغط على ذراع ممدوح لتوجه نظره .

ــ أنظر يامممدوح .. ما أجمل خصر هذه السمراء .. وصوتها .. صوتها مدهش يامممدوح .. اذهب واعرض عليها أن تغنى احدى قصائدك .. ماهذا التردد ! أؤكد لك أنها فكرة مدهشة ..

وتركته ثم عادت بعد قليل لتقدم له السمراء ذات الخصر النحيل .. والصوت الجميل .

وصفقت تطلب كأسا أخرى .. ومر أكثر من شاب حياها بابتسامة ، فردت تحيته ، واعتذرت لأحدهم بأنها لم تستطع مراقصته لان قدمها رضت أثناء أول رقصة، وللثانى بأنها لم تستطع أن توافيه الى الموعد الذى اتفقا عليه لتناول الشاى لأنها كانت قد سافرت فجأة الى « رأس البر» ، وتواعدت مع الثالث على العشاء بالاسكندرية مساء اليوم التالى .

وذهل ممدوح وفهمت انعام ماكان يدور بخلده فقالت له وهى تتناول يده وتضغط عليها ..

ـ انك تتساءل الآن ماهذا التغيير الهائل فى حياة هذه المرأة» ؟ لاشىء .. لقد كنت عندما عرفتنى نصف أرملة ، لأننى كنت أحمل اسم رجل لا أحبه ولا يحبنى .. فلما أحببتك أحسست بأننى «نصف امرأة» لاننى تبينت أنك لم تكن تحبنى ،ان كانت كبريائى قد منعتنى من أن أصارحك بذلك وقتئذ فاننى أصارحك الآن .. لاتظن أننى حانقة عليك .. كان لى قلب خفق مرة واحدة بحب عظيم ، ثم صدم ، فعاد لايخفق الا بالعواطف التافهة التى لا قيمة لها . ومع ذلك فقد لاحظت أن الرجال يعدون خلف النساء .. اللاتى

لا قلوب لهن .. اننى أصادف نجاحا عجيبا منذ ثلاثة أعوام كما ترى ..

وأرسلت ضحكة عالية ، ثم قالت وهى تتأهب للابتعاد .

ــ يخيل الى الآن أن كل هؤلاء الرجال الذين يتقربون منى ، ويتوددون الى «أنصاف أرامل» هم الآخرون . لايشعرون بالحب فى بيوتهم ، فيحاولون تلمسه مع امرأة مثلى .. لا قلب لها !

وبينما كانت سيارة الاستاذ ممدوح عادل تعود به فى طريق الهرم ، مرت به سيارة أخرى تقل رهطا من الشبان توسطتهم امرأة كانت تغنى بصوت متهدج .

انت سبب نوحى وذلى ومحبتك وعد على

انها لم تره لانه تعمد أن يهبط فى جوف السيارة حتى لاتراه ولكنه عرفها .. كان الشبان يصرخون مطالبين باعادة هذا المقطع ، وكل منهم يظن أن كلام الاغنية موجه اليه !

دعيني أحبك

دعينى أحبك

« دعينى أحبك ..

« فلن يدوم غرامنا الا ليلة واحدة

« هبينى هذه اللحظة ..

« انها اللحظة التى أنتظرها

« دون أمل فى الفوز بها »

من أغنية «تانجو مانيلا» ألقيت ذات ليلة فى مرقص «جوكى» بمونبارناس .

بدأت سماء مونبارناس منذ الغروب تمطر طرقاتها بوابل من الماء المنهمر . وكانت قطرات المطر تتأرجح فى رشاقة باريسية صميمة على المصابيح الدقيقة التى تفننت مقاهى «بولفار مونبارناس» فى تزيين واجهاتها بها .

وكنت قد انتهيت من تناول العشاء فى مطعم روسى صغير هو مطعم «دومينيك» الذى يقع فى أحد الأزقه الملتوية المنحدرة من الطريق الكبير خلف تمثال «بلزاك» .

ولم أكد أغادر المطعم الصغير حتى هاجمنى مطر باريس . لم أفعل مايفعل الباريسيون فى مثل تلك الظروف . لم أحتم بمظلة من المظلات الثابتة المنصوبة أمام أبواب الحوانيت حتى تهدأ السماء . ولم أكن أحمل مظلة أنشرها اذا مادعت حالة الجو الى ذلك . كما أننى قد غادرت الفندق فى الصباح المبكر فلم أحمل ذلك المعطف الواقى من قطرات المطر ، ومع ذلك فقد تقدمت الى «بوليفار مونبارناس» بملابسى العادية دون أن أفكر فى عاقبة التعرض لذلك السيل المنهمر من الماء اذا ماتشبعت به تلك الثياب . وظللت أسير على غير هدى فى الطريق الكبير وأنا أشاهد من بعيد تلك السيقان

الباريسية الرشيقة التي تجردت من جواربها تعدو في خطواتها القصيرة التي كان يخيل الى أن صاحباتهن كن يرسمن في عدوهن «نوتة» موسيقية لقطعة من قطع «الفوكس» وهن يلجأن بمظلاتهن الصغيرة الى «الكوبول» و «الروتوند» و «الدوم» وغيرها من مقاهي مونبارناس لكي يحتمين هن الاخريات بالدفء المنبعث من أنفاس الجالسين في داخل تلك المقاهي ، والأنفاس المتشبعة بدخان سجائر «الجولواز» ورائحة «البيرنو» ·

وفيما كنت أتابع سيري توقفت فجأة أمام باب صغير وضعت على جانبه بعض صور لراقصات في أوضاع فنية مختلفة ، وانفجرت من الداخل ضجة موسيقية تعزف قطعة من قطع «الكوكارتشا» · فاستنتجت أنني أمام «علبة» من علب مونبارناس الليلية ، ورأيت أن خير ما أفعله لانقاذ نفسي من ذلك المطر المنهمر على كتفي أن أسرع بالدخول فدخلت ·

كان المكان ضيقا · ضيقا يلفت النظر ويخنق النفس · أما سقفه فكان منخفضا الى حد أنني اضطررت أن أحني قامتي أثناء الدخول ، وكان مزدحما ازدحاما تعقدت معه سحب الدخان في جوه الى درجة مرهقة لأكثر الاعصاب قوة واحتمالا · ووقفت برهة

أجيل بصرى علنى أجد مكانا أجلس فيـــه فلم أوفق • وعندئذ فضلت أن أقف الى جانب أحد مقــاعد «البار الأمريكى» العالية وأنا أتمتم لنفسى •

ـ يظهر أننى سأختنق هنا

نطقت بهذه الكلمات وأنا مطمئن الى اننى اتحدث بلغة لن يفمها أحد من زبائن ذلك المرقص الشعبى الذى يقوم فى حى الفن بمدينة النور •

ولكن لشد ما كانت دهشتى عندما رأيت يدا تمتد الى كتفى ووجها يدنو من وجهى وصوتا ثملا يسألنى فى فرنسية ركيكة

ـ ألست مصريا ياسيدى ؟

ودققت النظر الى الوجه الذى كاد يلتصق بوجهى • كان شابا فى نحو الثلاثين من عمره تهدلت خصـــلات عديدة من شعره على جبينه ، ونمت شعرات طويلة فى ذقنه ، تدل على أنه اهمل حلاقتها منذ يومين أو ثلاثة أما صدره فقد غطاه قميص رخيص من قمصان العمال تناثرت عليه بعض بقع ملونة وتوسطته ربطة سوداء عريضـــة من ربطـــات العنق التى اعتاد أهل الفن أن يتميزوا بها • وأخذت أسائل نفسى عمن يكون ذلـــك

الاسمر المجهول الذى فهم من تلك الكلمات القليلة التى تفوهت بها فى همس خافت أننى مصرى . وخيل الى أنه اسبانى وأخيرا أجبته

ـ أجل . اننى مصرى ، وأنت ؟

وعندئذ رفع كأس الفوتكا البيضـاء التى كانت أمامه وأفرغها فى جوفه وهو يهز رأسه قائلا

ـ روسى . ولكننى أعرف مصر جيدا

ـ متى رأيتها ؟

فابتسم ابتسامة ارتعد لها جسـمى . ابتسـامة كتلك التى كان ديستوفسكى يضعها على شفاه المعتوهين وأنصاف المجانين فى كتابه الخالد . ذكريات بيت الموتى وتذكرت اننى كنت قد تهورت قبل ذلك بلحظة أثناء تناولى العشـاء بمطعم دومينيك الروسى فى مهـاجمة طغيان الحكم القيصرى ، فخطرت لى فكرة ساذجة هى أن يكون ذلك الروسى قد سمعنى هناك فتبعنى الى المرقص ليتم المناقشة بالطريقة التى يفضلها وحاولت أن أبتعد ولكنه مد يده وأمسك بكتفى وهو يقول

ـ لم أرها . ولكننى أعرفها منه .. من رمزى . ألا تعرفه ؟ رمزى صديقى ، وترنح فى وقفته ثم عاد

فرفع كأس الفوتكا التالية وأفرغها ، فى حركة روسية مرة واحدة فى جوفه ، وأدار لى ظهره وهو يشيح بوجهه عنى متمتما بكلمات روسية لم أفهم منها شيئا ٠

وانتهت جوقة الموسيقى الزنجية من عــزف قطعة الكوكاراتشا وتفرق الراقصون والراقصات عائدين الى أماكنهم ، وأخذت أدقق النظر الى سقف المرقص المنخفض فاكتشفت شيئا غريبا ٠٠ اكتشفت أن ذلك السقف مغطى بصور مختلفة لطائفة من مشاهير نجوم السينما ٠ صور ملونة باليد لجاربو وديتريش ولمبارد ودلريو وجابل ومارش ونوفارو وياريمور وغيرهم ٠

وكان يبدو جليا ان كل صورة منها قد رســمتها ريشة مختلفة عن الريشة التى رسمت الصورة الاخرى ٠

وعزفت الموســيقى قطعة أخرى تختلف عن الاولى اختلافا تاما لأنها كانت قطعة من قطع التانجو ٠

وأطفئت أنــوار المكان ولم يبق الا بعض أنــوار حمراء خافتة ٠ وأخذ الراقصون والراقصات يتقدمون فى بطء الى حلقة الرقص ٠ وانســابت اقدامهم وفق انغام التانجو التى كانت تغمرنا جميعا ٠

وزاد الموسيقى روعة صوت الزنجى رئيس الفرقة

العازفة الذى كان يرتل بصوته الحنون الممتلىء كلمات الأغنية التى مطلعها :

دعينى أحبك

فلن يدوم غرامنا الا ليلة واحدة

وتنبهت حواسى كلها وأنا أستمع اليه • كان صوته يتماوج فى الحيز الضيق بين سقف المرقص وأرضه الخشبية ، ويمر على جبينى فى دعة كأننى فى حلم ملكى هانىء توقظنى منه لمسة رقيقة من يد احدى الجوارى السود •

وكانت شفتاه السوداوان تنفرجان عن أسنانه البيض اللامعة وكلمات الاغنية الموقعة وفق أنغام التانجو فتوحيان بفكرة عن أنامل خفية تلعب على تلك القطع السود البيض من قطع العاج المتراصة المتلاصقة فى بيانو فخم وارتفع صوته وهو يرتل

هبينى هذه اللحظة

انها اللحظة التى أنتظرها

دون أمل فى الفوز بها

وراعتنى الموسيقى كما راعنى الشعر فاقتربت منه وسألته عن اسم قطعة التانجو • وكان الزنجى ظريفا

الى حد أنه انتحى بى جانبا ، وأعاد كلمات الاغنية على سمعى فى بطء حتى مكننى من تسجيلها فى مذكرة صغيرة كنت أحملها

ولم أكد أعود الى مكانى حتى رأيت جارى الروسى قد تجهم وجهه وأمسك بذراعى ثم أخذ يهزهما بشدة وهو يصرخ :

ـ لم أنكرت أنك تعرفه ؟ أنك تعرف رمزى ولو .... فيه ، ولكنك تتظاهر بأنك لاتعرفهما .

وتهدج صوته بالدموع ثم قال لى وهو يلوى عنقه ويلقى برأسه على صدرى فى اعياء ظاهر .

ـ أستحلفك بالله أن تقول لى . أين هو ؟ اننى أبحث عنها فى كل مكان .

وأيقنت توا أن الرجل قد ثمل الى حد أفقده الصواب . فقد كان يهذى هذيانا لم أفهم له معنى . ولو أننى استطعت أن أهتدى الى أنه كان ينطق اسم فتاة تدعى «لطيفة» رغم شذوذ مخارج ألفاظه . ثم لم ألبث أن تبينت أن الرجل كان يضيق صدره بقصة من أغرب قصص الحب التى لايمكن أن تخطر لقصصى ببال . فقد انتظر حتى هدأت حركة الرقص فجذبنى

من يدى الى زاوية المرقص وأجلسنى الى جانبه ثم أخذ يسرد لى تلك القصة فى صـوت مـرتجف متهـدج وهو يتشبث بى بين كل فترة وأخرى كأنه يحتمى بى من شىء يخيفه .

ـ قد تعتقد أننى أهذى وقد تكون من الساخرين بفكرة وجـود الاشـباح ، ولكننى أقسم لك أن كل ما سأسرده عليك الآن قد حدث لى تماما مع مواطنك رمزى اسماعيل . لا أستطيع الآن أن أذكر كم انقضى على ذلك الحادث . ربما عامان أو ثلاثة أعوام أو أكثر ، ولكننى على أى حـال أسـتطيع أن أؤكـد لك أننى أذكـر كل تفاصيله كأنها تحصل أمامى الآن . ان كلا منا يحاول أن يفسر الاصوات التى يسمعها والروائح التى يشمها، ولكن حدث لى ولرمزى أننا سمعنا أصواتا تصعد درج السلم فى العمارة التى كنـا نقطن غـرفة فى دورها التاسع . أنها ليست بعيدة من هنا فهى فى آخر شارع «فوجيرار» . سمعنا تلك الاصـوات فكنـا نظن أنهـا أصوات القطط التى تستخدمها مدام كونشيتا الايطالية التى كانت تدير بنسيونا فى الدور الثامن لكى تقـوم عنها بتنظيف المنزل من بقايا المطبخ . وكنـا نسـمع أحيانا حفيف ثوب سيدة تمر قريبا منـا فكنـا نظن أن

الهواء يحرك الستائر المسدلة على نافذة الغرفة ، ولكن اتضح لى أخيرا أن تلك الظنون كلها كانت وهما ... وأن هناك أشباحا كانت تقطن معنا فى نفس الغرفة .

لقد عرفت رمزى ذات ليـلة فى مقهى «السورس» بالحى اللاتينى ، ولم يكن من العسير أن نتصـادق لانه كان قد قدم الى باريس من القاهرة لكى يدرس الرسم بالزيت والرسم بالباستيل ، وكنت أنا الآخـر قـدمت لنفس الغرض وعلمت منه بعد حوار قصـير أنه يقطن فى شارع «سان جاك» وكنت آنا أقطن فى مونمارتر ، فاتفقنا على أن ننتقل الى تلك الغرفة فى الدور التاسع من عمـارة بشـارع «فوجيرار» بمونبارناس .. كنـا فقيرين أنا ورمزى .. كانت أسرته فى القاهرة ترسل له نحو خمسمائة فرنك فى الشهر وهو مبلغ لايكاد يفى حتى شظف العيش فى بلد كباريس . وعندما وافق على أن نعيش معا تلا على مثلا كان يسمعه فى مصر كثيرا ، وذكر لى أنه يقال عندكم لتشجيع الشبان على الزواج : «الاكل الذى يعمل لشخص واحد يكفى اثنين» .

ولم يكن رمزى موفقا فى بادىء الامـر فى عمله الفنى . فقد حاول عرض لوحة له تمثل غروب الشمس عند سفح الهرم ولكن اللوحة لم تنل نجاحا يذكر وبيعت

ببضع عشرات من الفرنكات ، وخطر له بعد ذلك أن يراسل بارى سوار ببعض مقالات نقدية عن معارض الصور ، فدفعت له الجريدة أجر مقالين أو ثلاثة ثم ردت له الباقى معتذرة • ولكنه كان يؤكد لى أن اليوم الذى سيرتفع فيه نجمه ويخلد اسمه قريب • وأن لوحته المنشودة التى ستضج لها صحف باريس ويقوم لها نقادها ويقعدون تختمر فكرتها سريعا فى خياله • ولقد حفظت كلماته التى كان يكررها على أذنى عشرات المرات فى كل يوم • حفظت نفس الكلمات التى تفيض حماسة ويقينا برغم انه كان يلقيها بالعربية التى لم أتعلمها ولا أفهم منها شيئا حتى اليوم : سترى غدا ياديمترى • سترى الصورة التى سأرسمها ، صورة ، لطيفة ، لقد تركتها فى مصر ولكن صورتها هنا • وكان بعد كل مرة يرفع اصبعه ثم يضعها على جبينه فى حركة عصبية ثائرة •

وانقضت على انتقالنا الى شارع «فوجيرار» بضعة أيام وخصصنا مدخل الغرفة الواسعة للرسم ، ففصلنا بينه وبين الفراش بحاجز حتى لايبدو الفراش الذى كنا نتقاسمه للزائرين • ووضعنا فى ذلك المدخل الذى تحول بارادتنا الى «ستوديو» حاملة الصور وبضع ريش وعلبة ألوان •

وحدث ذات يوم أثناء صعودى الدرج أن التقيت بمسيو فرنشيسكو زوج الايطالية العجوز صاحبة البنسيون الذى فى الدور الثامن ، فلم يكد بصره يقع على حتى جفل قليلا ، ولما تقدمت اليه لأحييه سألنى وهو يحاول اخفاء شىء من الاضطراب :

ـ هل سيدى مستريح من مسكنه الجديد !

فأجبته : ـ أجل . ولكننى أريد أن أطمئن الى أننا لم نغلب فى تقدير الاجر .

فابتسم الايطالى وقال :

ـ أظن أن المالك لم يشتد معك فى ذلك .

ـ لا .. صحيح انه لم يشتد قط . لم ذلك ؟

ـ لأن الغرفة التى أجرتها ظلت خالية مدة طويلة .

ـ ما السبب ؟ انها غرفة واسعة تصلح تماما لكى تكون «ستديو» رسام ناشىء فى مونبارناس .. فأطرق الايطالى الى الارض ثم أجابنى وهو يتأهب لدخول شقته واغلاق الباب .

ـ لست أدرى . أنت تعرف ثرثرة هذا الحى .. يذيعون أشياء غريبة عن هذه الغرفة .

ـ وماهى ؟ أخبرنى فقد يكون لزميلى رأى آخر ··
انه متشبث بوجوب البقاء ·

ـ أرجو منك ياسيدى ألا تحرجنى · الى اللقاء ·

فأسرعت اذ ذاك وأمسكت به ثم أعدت سؤالى :

ـ ماذا يعيب الغرفة حتى تظل خالية كل هذه المدة
رغم ضآلة ايجارها ! هل حدثت جريمة فيها ؟ قتل ؟

ـ لا

ـ ماذا اذا ؟

ـ لست أدرى · كان ذلك قبل أن أسكن هنا ·

ـ ولكنك سمعت ولا شك ·

فقال لى وهو يحاول الافلات من يدى ·

ـ هذا كلام الناس ياسيدى · يقولون ان هذه
الغرفة كان يقطنها رسام تركى منذ مدة طويلة ·
عشرين عاما · وكانت تشاركه فيها عشيقةشابة لايزال
بعض أهل «فوجيرار» يحكون القصص عن جمالها ·
وكان الرسام الشاب منهمكا فى رسم صورة لها وفجأة
اختفيا · لم يعد أحد يعلم عنهما شيئا ··· أستأذنك
فى الذهاب الآن لاننى أشعر بأنه لم يكن من الواجبأن

أتكلم ، خصوصا بعد أن عرفت أنك وحدك فى الغرفة ·
الى اللقاء ياسيدى ·

ولما صعدت الى الغرفة قصصت على رمزى ما أخبرنى به مسيو فرنشيسكو ، وصارحته بأننى بدأت أشعر بنوع من الضيق عقب انتقالنا الى تلك الغرفة فأجابنى بأنه يشعر هو الآخر بشىء من الخوف عندما يجد نفسه وحيدا فى الغرفة ، وأن خوفه يزداد عندما يطل أحيانا من نافذتها فيجد الضباب قد حجب بينه وبين أنوار الطريق البعيد · وأمسك بيدى ثم حدق فى عينى طويلا وقال :

ـ ألا تشاركنى الشعور بأننا هنا كأننا نعيش فى عالم آخر ؟ اننى أحس بشىء يتحرك داخل عظامى · شىء كدودة كبيرة كلما أمسكت بها أفلتت مسرعة الى مكان آخر ·

وأشعل كل منا سيجارة وظللنا نتحدث حتى انتهينا من التدخين وعاد رمزى يؤكد لى أنه كاد ينتهى من تصميم صورته الخالدة وأنه سيبدأ فى انجازها حالا ·

وكرر لى كلماته التى سبق أن انحفرت فى خيالى :

«سترى · أحس بأننى سأرسم صورتى الخالدة فى

هذه الغرفة • انتظر يومين أو ثلاثة أيام • وبعد ذلك أقرك على الانتقال الى مكان آخر •

وخلع كل منا ثيابه وتمددنا على الفراش ورحنا فى سبات عميق •

وفى منتصف الليل استيقظت على سماع صوت خافت الى جانبى خيل الى أنه حفيف ثوب نسائى ، ففتحت عينى ودققت النظر الى زوايا الغرفة ولكنى لم أر شيئا • وسمعت رمزى يغط فى نومه فناديته صائحا :

« رمزى ! رمزى »

ولكنه لم يجب •• ومددت يدى لأوقظه ، ولكنه لم يكن الى جانبى • وكان بصرى قد تعود ظلام الغرفة فعدت أدقق فى الجزء الذى خصصناه للاستوديو فشهقت مذعورا • كان رمزى قد ارتدى معطف الرسوم ووقف أمام حامل الصور يرسم ! ونهضت ثم تقدمت اليه وصحت :

« رمزى ! رمزى »

ولكنه لم يجب أيضا • كانت عيناه مفتوحتين وقد أخذ يحدق ببصره الى اللوحة التى أمامه ويراقب فى

دقة نادرة حركات ريشته وهى تنتقل مسرعة راسمة الصورة التى أرادها • صورة فتاة مصرية خمرية اللون • ذات شعر أسود فاحم ،وعينين واسعتين عميقتين وأهداب ملتوية تيرتطم على وجنتيها فى تراخ شرقى ذاهل •

وكدت أجن • فقد كانت الصورة فى خطوطها الأولى تنبىء بلوحة فنية رائعة • ولم أصدق بصرى فصرخت : «ماذا تفعل ؟»

ولكنى لم أحظ بجواب • وظللت أسمع صوت تنفسه كأنه يغط فى النوم الى جانبى فعدت أصرخ :

ـ ألا تريد العودة الى الفراش يارمزى ! ان الفجر على وشك البزوغ وهذه الوقفة تنهك قواك ••

وظللت عاجزا عن أن أدفعه الى الكلام فحركت أصابعى أمام عينيه المفتوحتين ولكن أهدابه لم تنسدل وتحققت من أنه كان لايزال نائما ، كما تحققت من أنه كان يرسم صورته المنشودة التى ظل يحلم برسمها طول حياته ، والتى كان يعلق عليها آماله الباسمة فى مستقبله الفنى •

كانت صاحبة الصورة رائعة الجمال ، ذلك الجمال

المصرى الذى يسحر ويفتن ، ولكن شفتيها كانتا تعبران عن ألم دفين ·· كان رمزى قد قص على كل قصتها ، فقد زوجوها بعد سفره الى باريس رغما عنها الى ضابط من ضباط الجيش يدعى «على» · وكان رمزى يكره ذلك الاسم كرها عظيما الى حد أننى كنت ألاحظ امتناعه عن تحية كل مصرى فى باريس يحمل هذا الاسم ··· وكنت كلما دققت النظر فى تينك الشفتين المطبقتين على الالم والحسرة تدفقت الى أنفى رائحة عطر شرقى لم أكن قد شممته من قبل ·

ولكنى أستطيع الآن أن أتبينه بين الآلاف من أنواع العطور الأخرى ·

ودقت الساعة الرابعة فرأيت رمزى يضع ريشته جانبا ويخلع معطف الرسم ثم يعود وهو لايزال يتنفس كأنه يغط فى نومه الى الفراش ويستلقى الى جانبى ·

ولم أدر فى بادىء الامر ماذا كان يجب على أن أفعل · ولكنى فضلت ألا أدعه يقف على سر مافعله أثناء نومه فنهضت متسللا ورفعت الصورة ثم أدرتها ووضعتها الى جانب الحائط مقلوبة ، أى أننى تعمدت أن أخفيها عن نظره عند يقظته فى الصباح ·

ولما استيقظنا معا سألته كيف قضى ليلته فأجابنى انه حلم أحلاما غريبة ، وسألنى عما أحسست به أنا فى تلك الليلة فأسرعت اذ ذاك بقولى :

ـ أوه ! لاشىء ولكننى أفضل يارمزى أن نغادر هذه الغرفة . اننى أصبحت أمقتها مقتا .. فربت على كتفى وقال : لاتكن سخيفا اننى لم أنته بعد من تكوين فكرة كاملة عن صورتى التى طالما حدثتك عنها .. صورة لطيفة .. ولكننى واثق من أننى سأنتهى من تصميمها بعد يومين أو ثلاثة ، ولن ينقضى أسبوع حتى تراها كاملة .. سترى .

ان ذكرى ذلك اليوم لاتزال تهاجمنى دون أن أنسى حتى تفاصيلها الصغيرة . لم يستطع واحد منا أن يرسم شيئا أثناء النهار فغادرنا الغرفة وقضينا بضع ساعات نجوب شوارع الحى اللاتينى ومونبارناس . ولما عدنا فى المساء كان التعب قد أخذ منا .. ولقد ترددت طويلا فى أن أصارحه بما رأيته فى الليلة السابقة ، ولكننى فضلت أن أحتفظ بسر تلك الليلة الى اليوم التالى لأرى ماذا يمكن أن يكون منه ازاء صورة لطفية التى بدأ فى رسمها وهو يغط فى نومه . واستلقينا على الفراش بعد أن خلع كل منا ثيابه ، وقاومت أنا مقاومة هائلة

لكى أظل مستيقظا ، وما كدت أطمئن الى أنه استغرق في نومه حتى انسللت بخفة وأعدت الصورة الى مكانها السابق على الحامل الخشبى ثم رجعت واستلقيت الى جانبه في الفراش ، وبعد قليل تحرك رمزى وتقدم في حركة آلية فارتدى معطف الرسم ووقف أمام الصورة ثم تناول الريشة وبدأ يرسم ..

واشتد ذعرى عندما سمعت صوتا يتحدث في الغرفة . لم يكن صوت رمزى صديقى وزميلى وشريكى في تلك الحياة البوهيمية التى كنا نحياها في « مونبارناس » وقتئذ ، بل كان صوتا آخر يعلو وينخفض الى حد الهمس الخافت كأنه حوار بين شخصين . ولم أستطع في بادىء الأمر أن أفهم كل ماكان يدور من كلمات في ذلك الحوار ، ولكننى لا أزال أذكر أننى سمعت رجلا يقول في ظلام الغرفة :

« هذه هى الهدية الوحيدة التى أستطيع أن أقدمها لك . سترين فيما بعد عند عرض صورتك أنها ستصبح حديث الناس ومحل اعجابهم وتقديرهم » .

وسمعت بعد قليل صديقى رمزى يزفر نفسا عميقا ثم صعد من أقصى الغرفة صوت ناعم رقيق يقول :

«أيهون عليك أن يقف غيرك أمامى ليحــدق فى عينى طويلا كما تفعل أنت الآن ؟ »

وسادت فترة صمت . وعاد الحوار بين الاثنين . فسألها :

ـ كيف ؟ لاتقولى مثــل هــذا الكلام . انك لابد عائدة الى . لان الصورة يجب أن أنجز رسمها غدا .

فقالت فى لهجة لم تخل من سخرية :

ـ أتتوقع أن تنجزها غدا ؟

ـ أجل . ليس أبعد من الغد .

ـ لا أظن ذلك .

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ لن أحضر غدا . من يدرى أين سترانى فى المرة القــادمة . ربمــا كان لقــاؤنا فى البيت الذى خلف «نوتردام» .

ـ لا أستطيع أن أفهمك الليلة .

ـ ســوف تفهم . لم تلح على فى العــودة الآن ؟ غن لى .

ـ ماذا تريدين أن تسمعى ؟

ـ كأنك لاتعرف !

ـ آه ! تذكرت

وابتدأ رمزى يغنى هذه القطعة التى سمعناها معا الليلة .

« دعينى أحبـــك
« فلن يدوم غرامنا الا ليلة واحدة
« هبينى هذه اللحظة
« انها اللحظة التى أنتظرها
« دون أمل فى الفوز بها »

وأخيرا انقطع الغناء ووضع رمزى ريشته جانبا ثم عاد وتمدد الى جانبى . وكما فعلت فى الليلة السابقة نهضت ورفعت الصورة من مكانها ثم أدرتها ووضعتها مقلوبة الى جانب الحائط ولكن بعد أن اشتدت دهشتى . فقد لاحظت أن قسمات وجهها قد زادت وضوحا وجلاء . يا الهى . لم أر فى حياتى أعمق من الحــزن الذى كان يرسب راقدا فى أعماق عينيها والذى كان يبــدو فى انطباق شفتيها .

لاشك أنها كانت تحفته الخالدة و «قطعته السائدة» التى لم يوفق من قبل الى رسم مثلها .

وصممت على أن أصارحه عند استيقاظه فى الصباح بما رأيته فى الليلتين السابقتين • وأخذت أتخيل دهشته عندما يتضح له صدق قولى ثم فرحه الشديد عندما أتقدم اليه لأقبله وأهنئه تهنئة الصديق والزميل القديم • كانت هذه هى الخواطر التى تواردت على خيالى عندما عدت لأتمدد الى جانب رمزى حتى الصباح • ولكننى عندما استيقظت فى اليوم التالى تلفت حولى فلم أجده ، وصحت أناديه ولكنه لم يكن موجودا ، وأسرعت بارتداء ثيابى ثم هبطت الطريق لأبحث عنه • لم أدر فى بادىء الأمر أين يمكن أن أهتدى اليه ، فأخذت أجوب طرقات «مونبارناس» والحى اللاتينى أسأل عنه زملاءه المصريين دون جدوى ، وأخيرا تذكرت ذلك الهمس الذى كان يدور فى ظلام الغرفة أثناء الليل ، عندما قالت له ، ربما كان لقاؤنا فى البيت الذى خلف «نوتردام» •

وفهمت اذ ذاك أن الصوت الذى كان يهمس بذلك انما كان يقصد معرض الجثث المعروف فى تلك الجهة «بالمورج» فأسرعت اليه ، وهناك رأيت رمزى متمددا على المنضدة الرخامية وعلمت أنه اصطدم باحدى السيارات فى «بوليفار مونبارس» وأنهم نقلوه الى هناك حتى يهتدى اليه أحد من أقاربه ••

أوه ! لا فائدة ياسيدى من أن أذكر لك شيئا عن سيل الأسئلة التى وجهت الى فى معرض الجثث ، فاننى لم أجب الا على القليل منها . لم أخبر أحدا بما رأيت . لاننى كنت اذ ذاك فريسة حالة من حالات تبكيت الضمير ، اذ تيقنت أننى مسئول عن النهاية التعسة التى انتهت اليها حياة رمزى لكتمانى عنه خبر توفيقه فى رسم تلك اللوحة .

ولما عدت فى المساء الى غرفة شارع «فوجيرار» كنت من الاعياء الى حد أننى استغرقت توا فى النوم ولم أفق الا فى الصباح التالى على صوت يقول لى : «استيقظ استيقظ ياسيدى» .

ولما فتحت عينى رأيت الايطالى فرنشيسكو أمامى ينقل بصره بين الريشة فى يدى اليمنى وعلبة الألوان فى يدى اليسرى .

كنت اذ ذاك جالسا أمام صورة لطفية أتم رسمها .

اننى أرتعد الآن كلما سمعت هذا «التانجو» . يخيل الى أنه يحمل معه الآن آلاف الشياطين أتعرف ؟ أننى لاأزال أذكر وجه الفتاة . كانت تنظر الى . ولكن علامات الحسرة التى كانت قد وفق رمزى فى اضفائها

على قسماتها قد زالت · كانت نظرتها الى غامضة باهتة لا حياة فيها ·

ولكن صورة لطفية قد انتهى رسمها · انها هنا الآن · · ·

وأشار الى صورة ملتصقة فى سقف المرقص الشعبى تائهة بين مئات الصور الأخرى !

شبح اللقاء

شبح اللقاء

١

ـ انك تفكر فى أمر يقلقك ياحمدى

ـ أبدا من أين جاءك هذا الوهم ؟

ـ اذن انظر الى . انظر الى عينى . لاتخف . أعرفك عندما تخاف النظر الى عينى .

ـ ماذا دهاك ياراجية ؟

ـ فى عينيك شىء لا أحبه .

ـ ماهو ؟

ـ لا أدرى .

ـ لم تسألينى اذن ؟

ـ سكت ..

دار هذا الحديث القصير بين الاستاذ حمدى ماهر أحد المدرسين الشبان بالجامعة وبين راجيه فى شهر من شهور الصيف الماضى وهما جالسان الى جانب احدى الموائد المنزوية تحت ظل شجرة كرم متدلية فى ذلك الفندق المنعزل الذى يصادف المار فى الطريق الزراعى الى المرج عند «عزبة النخل» .

كانت حديقة الفندق خالية الا منهما . وكانت الشمس قد غربت منذ قليل . وبدأ نسيم تلك الضاحية النائية يغمر ذلك المكان كأنه يعد للعاشقين فترة راحة هنيئة فى تلك الليلة من ليالى الصيف . وعاد السكون يخيم من جديد على المكان بعد ذلك الحديث وأطرق كل منهما الى الأرض .

كان هناك «شىء» غريب يجثم على صدر تلك الليلة .. شىء لم يعتادا أن يحسا به من قبل . ولكن أحدا منهما لم يشأ أن يصرح بدخيلة نفسه . فلما سألها حمدى :

ـ ماذا يزعجك ؟

رفعت رأسها وهزت شعرها الاسود الغزير اللامع

الذى كان قد تهــدل على جبينها عنــدما أطــرقت الى الأرض . رفعته فى هزة واحدة سريعة ثم قالت وهى تطلق ضحكة قصيرة جافة ارتعد لها جسم حمدى .

ـ يزعجنى ! أيمكن أن يــزعجنى شىء وأنت الى جانبى ؟

ولكن السكون لم يلبث أن خيم مــرة أخــرى على الحديقة .

كان كل منهما يقاوم ليتكلم .

كانت راجيه موقنة بأن حمدى قد اعتزم الاقدام على أمر لن يرضيها لو علمت به . فلم يكن من اليسير عليها أن تنطلق هانئة . مرحة كما اعتادت أن تفعل كلما لقيته . وكان هو قد اعتزم فعلا أن يقدم على ذلك الامر الذى لم يكن يشك فى أنه سيغضبها .. كان قد اعتزم السفر الى الخارج .. الى باريس لقضاء أجازته . طالما سمع من زملائه الذين قضــوا فيها سنى الدراسة الكثير من مباهجهــا .. وحيــاتها الليلية وفتنتهــا .. ولكنه لم يرها فخطر له قضاء فترة وجيزة فيها قبل أن يربط حياته بحياة الفتاة التى أحبها وهى راجيه .

كان يوقن أنه لو سافر بعد الزواج مع راجيه فانه

لن يتمكن من التمتع بباريس كما تمتع بها زمــلاؤه ٠ فاعتزم أن يــراها ويودعهــا قبل الزواج ٠ نزوة من نزوات الشــباب لم تســتغرق وقتا طــويلا فى التسلط عليه ٠

ولما اقترب بسيارته الى منزلها بهليوبوليس امتدت يده فى حركة آلية وضغطت على يدها طــويلا ٠ وقبل أن تغادر السيارة ضمها الى صــدره ثم طبع على فمها قبلة لم يستطع أن يقاوم رغبتــه فى اطالتها كأنها قبلة الوداع ٠٠ الى حــد أنها ســألته بعــد أن تخلصت من ذراعيه ٠

ـ انك تقبلنى كأنك لن ترانى !

وعاد حمدى الى لتكلف ـ تكلف الابتسام والهدوء ٠ ثم أسرع فتحرك مبتعدا ولكنه التفت خلفه فى حركةآلية فرآها !! رأى راجية واقفة فى الظــلام بثوبها الابيض تشيعه بنظراتها وحركات يديها كأنها تودعه ٠

هل أحست هى الاخرى أنها لن تراه الى حين ؟

لقد احتقر نفسه اذ ذاك ٠

لم يخف عنها عزمه على السفر ؟ ماذا يكون شعورها عندما تفاجأ بهذا الخبر ؟ لم لاتفسره بأنه هروب نذل

من وعود عديدة ارتبط بها . أنها الفتاة التى أعـدها منذ الطفولة لكى تحمل اسمه رغـم كل العقبات التى كانت تعترض زواجهما .. لم يعـد خافيا أن والدها الدكتور عبد الله موسى قد عارض معارضة شديدة فى اعلان خطـوبته لها ـ انه كان يعـدها للزواج من ابن أخيه الدكتور سامى . الطبيب الشاب الذى كان قـد عاد أخيرا من انجلترا يحمل عدة ألقاب علمية عالية . فاستقبلته الأوساط الطبية فى مصر استقبالا رائعا .

ورنت فى اذن حمدى هذه الكلمات التى قالتها له راجيه عندما علمت انه اتصل به خبر عزم أبيها على تزويجها من غيره (لاتخش ياحمدى . أنا لك . لك أنت وحدك . لاأستطيع أن أكون لغيرك . بل لا أتصور أن أكون لغيرك)

وقبل أن تتركه يومئذ أعطته قطعة شعر «لجيرالدى» يقول فى مطلعها :

« ... دائما ... مدى الحيـاة ... أجل هذه الكلمات .... هذه الكلمات السخيفة .

يجب أن تعيديها وتكررى اعادتها

أنفترق . نحن الاثنان .. تكلمى .. أيمكن أن نفترق ؟

ان هذا يبدو جنونا ٠٠ أمرا شيطانيا ٠٠ آه ٠٠٠
تكلمى ثانية

اننى فى حاجة الى أن أثق من خلودنا
ومع ذلك فاننى عندما يؤكد لى صديقى قائلا :
« انها هى شريكة حياتك ٠ ماذا تخشى ؟
لن تحب امرأة أخرى ٠٠ سيبقى كل منكما للآخر
أشعر بشىء من خيبة الامل ٠

لقد قرأ ذلك الشعر وأعاد قراءته بعد عودته ليلتئذ وساءل نفسه ماذا تقصد باعطائى هذا الشعر ؟ وانتهى ليلتئذ الى الاقناع بأن راجيه لا تزال تعتقد رغم ما يبديه دائما من الرغبة فى تبين وفائهما له والحصول على اعترافها بحبه أن خلود ذلك الحب غير موثوق به وأنه ككل رجل آخر ـ يشعر بضيق كلما تصور أنها ستظل ملتصقة الى جانبه مدى الحياة ٠

٢

ـ لاتنظر الى هكذا ٠
ـ لم ؟
ـ لأنك تخيفنى بهذه النظرات ٠
ـ كيف ؟

ــ لست أدرى • اننى لم أشعر من قبــل بمثل هذا الشعور الذى شعرت به منذ تقدمت الى وانحنيت أمامى لتدعونى الى الرقص • ألم تخبرك امــرأة قبــلى بشىء كهذا ؟

ــ لا • أسمعه للمرة الأولى •

ــ خبيث !

ــ ربما

ــ أو أن النساء جميعهن غبيات •

ــ عندما تنتهى هذه «الرقصة» سيتملكنى غــرور جديد •

ــ أنت تغيظنى بهذه اللهجة الساخرة

ــ لن أتكلم

ــ وأدر رأسك • ان عينيك تقولان أشياء كثيرة •

ــ مثــلا

ــ تقولان لى «انك تحاولين ايهامى بأننى وحدى قد أثرت اعجابك • ولكنى أعلم أنك تقولين هذا لكل قادم الى هذه الحانة» •

ــ تغالين

ـ أرجو ذلك .

دار هذا الحديث بين الاستاذ حمدى وبين راقصة فرنسية شقراء فى احدى حانات مونمارتر بعد أن وصل الى باريس . كان قد رآها تجلس منفردة فى ركن من أركان الملهى الراقص وأمامها كأس من «البرنو» .

لقد أبى ليلتئذ أن يرقص مع أية فتاة أخرى .

كان الملهى غاصا بفتيات عديدات متناثرات على مقاعد «البار» الامريكى العالية . أو جالسات حول الموائد الصغيرة الرشيقة التى كانت تضفى عليها أنوار الحانة الضيقة جوا شاعريا خلابا . ولكنه لم يشعر بميل الى التحرك لطلب واحدة منهن . كان فى كل منهن شىء يذكره براجيه فتاة أحلامه التى تركها فى مصر والتى كان يعد الساعات لكى يعود اليها .

وضجت الموسيقى بالعزف تدعوه وتدعو غيره الى الرقص .. ولكنه كان ذاهلا يفكر فى شىء آخر .. كان يفكر فى ذكريات غرامه الطويلة المتصلة براجيه .. أول كلمات تبادلاها .. وأول قبلة طبعها على أطراف أناملها .. رسالة غرامه الأولى .. جلستهما الاخيرة فى ذلك الفندق الريفى بعزبة النخل .. ووقفتها الرائعة

بثوبها الابيض وهى تودعه بتحريك يديها بعد أن أوصلها الى منزلها .. تلك القطعة الشعرية التى تتحدث عن خلود الحب والتى يسخر صاحبها «جيرالدى» من ذلك الخلود فى آخرها .

ولم يكد يصل الى ذلك الحد من التفكير حتى جذب ورقة من أوراق الرسائل المصورة الملونة التى اعتادت ملاهى العواصم الاوروبية الكبرى أن تتبرع بارسالها فى البريد دعاية لها . ثم كتب لراجيه هذه الرسالة الموجزة .

« حبيبتى راجيه

أعرف أنك ستثورين وتسخطين لأننى أناديك هكذا بعد الاثم الذى خيل اليك أننى اقترفته فى حقك .. لقد سافرت دون أن أقول لك . كان يجب أن تكونى أول من يعلم . خشيت . خشيت يا «جيجى» أن أصارحك برغبتى فى السفر فتأبين ذلك ومع ذلك أصر على السفر رغم مشيئتك . لم أرد أن أوجدك وأوجد نفسى فى هذا الموقف . لم أشأ أن أحتمل سماعك وأنت تقولين لى فى صوت مرتجف «اذا كنت تحبنى حقا فلا تسافر» كنت قد ارتبطت مع زملائى على أن نلتقى هنا . أنا أعرف أنه لم يكن هناك أمر هام خطير يحتم سفرى ولكننى مع ذلك

سافرت وأنا واثق من أن هـذا سيغضبك • أتذكرين • لقد كنت تحسين عند مقابلتنا الاخيرة أننى مقدم على أمر سيثير غضبك • حاولت عبثا أن تعرفيه • فجبنت عن أن أصرح لك به ولكن ما أستطيع أن أقوله لك الآن بعد أن رأيت باريس • ان ظفر أصبع واحدة من أصابع قدمك اليسرى الصغيرة يساوى عندى أجمل هؤلاء النساء اللاتى أراهن فى كل ثانيـــة • لقـــد أبيت حتى أن ارقص هذه الليلة •• مع أنى أكتب اليك من مرقص • ان كلا منهن تذكرنى بك •

كم أخشى الآن أن تكونى ساخطة على الى حد لم يكن فى حســبانى •• هل كرهتنى لأننى ســافرت دون أن أستأذنك ؟

ومع ذلك فلم تثورين ؟ أتذكرين ليلة تشــاجرنا بسبب ما اتصل بى من احتمال اعلان خطوبتك لابن عمك الدكتور سامى •• ماذا أعطيتنى ليلتئذ ؟ أما كانت قطعة شعر «لجيرالدى» • اننى عثرت اليوم على قطعة شعر أخرى لنفس هذا الشاعر الذى استعنت به على ذات ليلة •

أتدرين ماذا يقول فيها ؟

أنه يقــول بعــد أن وصف شــجاره المســتمر مــع حبيبته :

« أعتقد أنه من الافضل لنا أن نقلل من لقائنا . أتفهمين ؟

اننا متحابان . هذا نعرفه . ولاشك فيه .

ولكن اطالة الحديث عن الحب ترهق الاعصاب وتثيرها .

يجب أن نقلل من لقائنا . اذ ذاك . عندما تقبلين للقياى . تكون هناك أشياء قد جدت لم يسبق أن تحدثنا عنها . وعندئذ سترين ياحبيبتى .. سترين أننا سنكون سعيدين . فى غاية السعادة» .

أترين ؟

ان شاعرك الذى تحبين ينصح أن ينفصل العشاق الى حين . لذلك سافرت .

لن تصدقى الآن .. ولكنك ستنتهين بتصديقى . أقبلك والى اللقاء القريب .

ثم دفع بهذه الرسالة الى خادم الملهى ليلقيها فى صندوق البريد . ورفع رأسه يجيلها ثانية فى الحانة الراقصة . وعندئذ وقع بصره على تلك الشقراء الصغيرة التى كانت أناملها تحرك كأس «البرنو» فى عصبية ثائرة .

لم تكن راجيه شقراء كما أنها لم تكن قصيرة القامة كتلك الفرنسية ٠ لو تقدم ورجاها أن تراقصه لن تذكره براجية ٠

وبعد تردد طويل نهض وتقدم اليها ثم انحنى فى رقة وطلب اليها أن تسمح بمراقصته ٠

وكان ذلك الحوار :

وأوصلها حمدى الى مقعدها ثانية ٠ وهم بالعودة الى مقعده ولكنها سألته :

ــ أمعك أحد ؟

ــ لا ٠٠ اننى وحدى ٠

ــ أمصر أنت على أن تظل وحدك ؟

وتردد حمدى قليلا ٠ وعندئذ مدت «سيمون» يدها وجذبته قائلة :

ــ هل بدأت تشعر بالغرور ؟

ــ ربما ٠

ــ هذا الركن قليل الضوء ٠٠ لن تخيفنى عيناك ٠ لو أنك حدقت بهما الى هنا ٠٠ هاأنذا ٠٠ أنظر الى ٠

ــ مغرورة !

عجبا · انك تغلو فى الاعتزار بنفسك ·· اسبانى ؟

ــ لا ·· مصرى ·

فشهقت · شهقة حارة طويلة

ــ مصرى · أقسم لك أننى كدت أقول انك مصرى· لولا خشيتى من أن أكون مخطئة ·· يظهر أن الظروف تخدمنى

ــ كيف ؟

ــ لأننى مسافرة الى مصر

ــ متى ؟

ــ فى الخامس والعشرين من هذا الشهر ·

ــ ولم ؟

ــ تعاقدت على العمل هناك ·

ــ أين ؟

ــ فى الاسكندرية

وسكت حمدى قليلا وكره الصدفة التى قادته الى ذلك المكان

وكان شعور غريب يهاجمه اذ ذاك ·· لم يكن يود مطلقا أن يلتقى فى مصر · فى البلد التى ترك بها راجيه

بامرأة أخرى شاءت الظروف أن يعرفها ويتحدث اليها ويجالسها ويرقص معها

وخيل اليه أن القـدر أراد أن يثأر منه اذ شاء أن تعمل هذه الراقصة الفرنسية فى مصر بعد أن عرفها فى باريس . وبعد أن أغراه جو تلك الحانة الضيقة من حانات الطرق المتفرعة من ميدان بلانش على أن يتحدث اليها حديثا لم يسبق أن خطر له امكان الاجتراء عليه مع أية فتاة أخرى غير راجية

وسكت قليلا ثم سألها

ــ متى تسافرين ؟

فأجابت :

ــ فى الخامس والعشرين من الشهر القادم من مارسيليا

وحبس حمدى شهقة كانت تغالبه . لتنطلق من صدره اذ كان قد حدد هو الاخر موعد سفره على نفس الباخرة

كيف يمكن أن يحتمل الحياة خمسة أيام بين السماء والماء الى جانب هذه الفرنسية التى عرفها والتى تحدثت اليه عن عينيه حديثا لو سمعته راجية لانفجرت اعصابها لقد كان يعتزم فى صميم نفسه أن يراقصها تلك الليلة ثم ينصرف دون أن يخطر له بعد ذلك أن يراها . أو حتى أن يفكر فيها

ماذا يفعل لكى يتقى تلك النكبة ؟

يعود مع فتاة أخرى ·· من فرنسا الى مصر ··· تلزمه اللياقة بأن يجيب عن أسئلتها · وأن يرشدها الى مايجب عليها أن تفعله منذ وصولها الى الاسكندرية الى الساعة التى تبدأ فيها عملها اجراءات الجمرك ·· الفندق الذى تنزل فيه ·· المطعم الذى تتناول طعامها به ·· المشاكل التى تعترضها فى المحافظة لقد علمت منه أنه أحد المدرسين الشبان فى الجامعة ·· ربما لجأت اليه فى فتوى بشأن تعاقدها مع ذلك الملهى المصرى وهى تجهل اللوائح والنظم السارية فى مصر

ماذا يفعل ازاء ذلك كله ؟ أنه لا يستطيع اطلاقا أن يصل الى مصر وهو الى جانب هذه الفرنسية الشقراء ·· من يدرى ؟ ربما رأته احدى صديقات راجيه اللاتى يعرفن سر علاقته بها ·· أو أحد أقاربها الذين يعرفون سر معارضة أبيها فى تزويجها منه · ان من أيسر الامور اذ ذاك · أن ينقل ذلك الخبر الى راجيه

ياللهول !

حمدى يعود مع راقصة فرنسية شقراء !

وارتجف جسده وهو يتخيل ذلك · ونهض متأهبا للانصراف وأسرعت سيمون فتعلقت بذراعه قائلة :

ـ ماذا حدث ؟ لم تسرع بالانصراف ؟

وعندئذ تكلف ابتسامة مغتصبة وقال :

ـ لاشيء .. أشعر بتعب

ـ متى أراك ؟

ـ انني راحل غدا الى الريف الفرنسى .

ـ متى تعود الى باريس ؟

ـ لا أدرى .

ـ اذن الى اللقاء ذات يوم فى مصر . ماعنوانك هناك ؟

فارتبك حمدى وهم بالابتعاد ولكنها أطلقت ضحكة ساخرة وقالت :

ـ هل نسيت ياطفلى الكبير أنك أخبرتنى عندما كنت أرقص معك أنك مدرس فى الجامعة . وأن اسمك حمدى ؟

وعض حمدى على شفته السفلى .

كان قد نسى حقا أنه صارحها بذلك قبل أن يعرف أنها تعتزم السفر الى مصر .

من ذا الذى يخطر له أن تلك الشقراء الصغيرة

الجالسة فى ذلك الركن المظلم المنزوى من احدى حانات مونمارتر ستكون فى مصر بعد بضعة أسابيع ؟

ولكنه مع ذلك لم يدر ماذا يفعل فهرول يغادر الحانة بينما صيحات الراقصة الشقراء تلاحقه كأنها لعنات مصبوبة على رأسه !

ولما احتواه ميدان «بلانش» كانت «نساء الرصيف» قد بدأن عملهن الليلى فأخذن يحمن حول ذلك الشاب الاسمر الطويل القامة • المترجل القسمات • البراق العينين •

وأجال حمدى بصره فيهن جميعا •• ثم تذكر الرسالة التى كان قد أرسلها قبل ببضع دقائق •

«ان ظفر أصبع من أصابع قدمك اليسرى الصغير يساوى عندى أجمل نساء باريس» •

هل كان يكذب ؟ هل بدأ يغرر براجيه كما يفعل الرجال الآخرون •

وأسرع يهبط الى جوف الارض ليركب «المترو» وتعمد أن يقف وسط العربة ويتعلق بذلك المقبض الجلدى المتدلى من سقفها كان يريد أن يهرب من الجلوس الى جانب الناس حتى النظرات المتطفلة لم يكن يطيق أن يوجهها

الى أحد خشية أن تصادف امرأة • امرأة • لايهم من هى مادامت غير راجيه •

وأخذ «المترو» يندفع فى سرعته الهائلة وتمايل جسم حمدى وهو لايزال متشبثا بالمقبض الجلدى •

لم يدر ماذا كان يدور حوله • لانه كان يفكر فى راجيه • كيف يلقاها بعد مافعله ليلتئذ ؟• ماذا يقول لو أنها سألته عما يفعل فى باريس ؟ •• أيعترف لها بما حدث فى تلك الليلة • —

الكلمات التى تبادلها مع «سيمون» • عدد كؤوس «البيرنو» التى شرباها معا ؟

كان شبح اللقاء الأول بعد رحيله المريب يخيفه •

٣

— هيا بنا نرقص ياراجيه

— هنا ؟

— أجل • ان حلقة الرقص هنا فى كازينو «الشاطبى» جميلة •

— ولكنها خالية

ــ مالنا وللناس

ــ أيضايقك أن نجلس ونتحدث ؟

ــ كما تشائين ياحبيبتى ٠

وبدأ الدكتور سامى ابن عمها عقب هذا الحوار يقص عليها بعض ذكرياته القديمة عن باريس ٠ لم تطلب منه راجيه ذلك قط منذ اعلان خطوبتها ٠٠ ولكنه تبرع بذلك لكى تعرف كل شىء عن ماضيه ٠٠ وتركته يحكى لانها كانت تريد أن تعرف مايغرى الشبان على أن يقصدوا باريس مهما بذلوا فى سبيل ذلك من تضحية ٠ والتفتت اليه بعد أن انتهى من سرد احدى ذكرياته وسألته :

ــ ألا يمكن الحديث عن باريس هذه الا اذا كان مقترنا بسير الراقصات والحانات الراقصة والخمر ٠ أليس للشبان هناك هم الا هذا العبث ؟

ــ غالبا

ــ لقد اشمأزت نفسى «من باريس ــ وبعد أن أطرقت قليلا الى الارض عادت فسألته : هل كل الرجال يصبحون على شاكلة واحدة اذا خلا لهم الجو فى باريس ؟ »

ـ أعتقد ٠

وأرادت راجيه أن تؤكد وجود شواذ لتلك القاعدة التى أراد خطيبهـا الدكتـور سامى أن يقررها ولكن الكلمـات وقفت فى حلقها وزاغت عيناها ٠ فقد دخـل حمـدى اذ ذاك من باب مطعم «الكازينو» متـأبطا ذراع فتاة شقراء ٠٠ كانت تسير الى جانبه ٠ وهى ترفع رأسها بين كل برهة وأخرى لتنظر الى عينيه ٠٠ وهـو يتحدث اليها باشا مبتسما ٠ كان حديثها يشغله حتى عن النظر الى أى شىء عداها ٠٠ وجلسا الى جانب مائدة من موائد المطعم ٠

والتقت النظرات ٠٠ نظرات راجيـه وحمدى ٠٠ وكانت لحظة هائلة :

لقد عرف حمدى ولاشك أن خطوبتها أعلنت أثناء غيبته على ابن عمها سامى فأراد أن يثأر ٠٠ ولكنه كان ثأرا قاسيا ٠٠ كان يسـتطيع أن يصحب تلك العشـيقة الشقراء الى مكان آخر ٠٠ غـير «الشـاطبى» فقد كان يعرف من قبل أن أسرتها اعتادت التردد عليه فى أشهر الصيف لتناول العشاء وقضاء السهرة ٠

وانقضت فترة أخرى

وعزفت الموسيقى ٠

وخفق قلب راجيه ٠٠ خشية أن يعود خطيبها الى الالحاح فى رجائها أن تسمح له بالرقص معها ٠٠ ولكنه لم يفعل ٠ بل حدث شىء آخر ٠ نهض حمـدى وتبعته الشقراء التى كانت الاضواء الحمراء الخافتة قد غمرتها وأخذا يرقصان ٠

وظلت الموسيقى تعزف ٠٠ وأخذت ضحكات رواد الملهى تتعالى ٠

كان كل شىء مرحا فى ذلك الملهى ليلتئذ ٠ ولم يكن واحد من رواده يظن أن هناك قلبين يشقيان ويتعذبان ٠

٤

فى صباح اليوم التالى تلقى حمدى هذه الرسالة :

« الآن استرحت ٠ كنت أستطيع أن أدعى أننى غلبت على أمرى أثناء غيبتك فأرغمت على الزواج من سامى ٠ ولكننى الآن لا أقولها اننى أكتفى بأن أخبرك أننى انتظرت عودتك لكى أستأذنك قبل أن أرقص حتى معه ٠٠ مع خطيبى ٠

لست مثلك ولاأود هنا أن أبقى عليك ٠٠ لقد انتهى كل شىء ولو أننى فضلت ألا أكون فى أول لقاء لنا بعد عودتك محنية الرأس لأننى ارتكبت شيئا لم نتفق عليه ٠

انهم أعلنوا خطوبتى قبل أن يأخذوا رأيى ، أما الرقص فشىء أستطيع أن أعتذر من عدم السماح به ٠٠ كما أظنك كنت تستطيع أن تفعل على الاقل وأنا أمامك ٠

ألست رجلا ! انكم جميعا لا تعترفون ولكنك ـ كما تعلم ـ كنت لى من قبل شيئا أكثر من رجل ٠ فتحطمت ٠٠ الوداع ٠

راجيه

المتشــــردة

المتشردة

كانت باريس تعيش ــ كعادتها ــ ليلتها الخالدة وكنت ــ كعادتي ــ قد غادرت الفندق بعد نوم طويل عقب الغداء دون أن أعرف الى أين تقودني قدماى ، كل ما أذكره أنني وجدت نفسى أجاهد كى أفسح طريقا الى مقعد عال فى حانة راقصة من حانات مونمارتر قد استهواني اسمها الذى كان يتأرجح على الباب مكتوبا بحروف حمراء على كرة سوداء كبيرة ٠٠ كان اسم الحانة « الكرة السوداء »

واستطعت أخيرا أن أصل الى مقعدى المنشود وجلست أرقب ذلك اللون « الاصيل » الذى أراد أصحاب الملهى أن يتسم به ٠٠ جدر مغطاة بلوحات مختلفة تمثل هياكل

عظيمة وأفاعي وحيات ومناظر بشعة تبعث الرهبة والفزع لأول نظرة ثم لاتلبث أن تتصادق مع القادم . وأن يتآلف هو معها على أنغام الموسيقى اثناء دورات الرقص وهو يخاصر أولئك الباريسيات اللاتى يبتسمن حتى الموت واللاتى تفنن فى أراقة زجاجات الشمبانيا وهن يلصقن شعورهن المعقصة على أحدث طراز وظهورهن التى تكشف عنها ثياب السهرة بتلك اللوحات التى تمثل الهياكل العظيمة المتجردة والأفاعى والثعابين .

وقضيت فى « الكرة السوداء » ساعة مع زميل مصرى لى التقيت به هناك ، وتكاثف الدخان المنطلق من السجائر المشتعلة فى الكهف الراقص حتى كاد يصبح من العسير تبين الوجوه القريبة منى ، وتناولت معطفى ثم وقفت بعد أن استأذنت من زميلى فى الانصراف ، وبينما كنت أخطو لكى أصعد الدرج الذى يقود الى شارع مونمارتر عن لصديقى أن يسألنى عن المكان الذى كنت اعتزم الذهاب اليه فأجبته ضاحكا وأنا ألوح بيدى .

ــ اننى متعب الليلة ولذا سأذهب الى « عزبة النخل »

وضحكت وضحك صديقى لأنه فهم ماكنت أرمى اليه فقد اعتدت أن أطلق على حديقة فندق «شاتوبريان بلزاك» الذى كنت أقطنه فى «الشانزلزيه» اسم تلك الضاحية

المصرية لأن بناء الفندق الريفى وشكل الحديقة المحيطة به كان يذكرنى دائما ببيوت « عزبة النخل » الريفية .

ولم أكد أبتعدعن باب « الكرةالسوداء » حتى لاحظت وقع أقدام تتبعنى .. وقبل أن أفكر فى الالتفات سمعت صوتا ضعيفا ينادينى .

ـ من فضلك

والتفت مذهـولا الى الفتـاة التى كانت تتبعنى . مذهولا لسماع تلك اللهجة المصرية الصـميمة من فتاة ترتدى ثوبا أنيقا من ثياب السهرة وقبعة كبيرة تزينها وردة حمراء وقد تأرجح على كتفها فراء رمادى بديع .

ووقفت مترددا . ووجدتنى أدقق النظر الى قسمات وجهها وأنا أحاول أن أهتدى الى جنسيتها الحقيقية ولكنها لم تمهلنى اذ قالت لى وهى تمسك بذراعى وتقودنى في رفق

ـ أحقا أنك متعب ؟

فأجبت وأنا لا أزال أعانى ذلك الذهول لسماع ذلك الاسلوب المصرى السليم من فتاة على رصيف من ارصفة مونمارتر

ـ أجل . ولكن لم هذا السؤال ؟

ــ لأنني أريد أن تدعوني الى تناول كأس «بيرنو» واحدة

فقلت في شيء من الضيق

ــ ولكن · يجب أن أعود الآن الى حيث أقطن ·

فشاعت ابتسامة في وجهها وقالت :

ــ كأس «بيرنو» واحدة لاتؤخرك كثيرا ·

ــ وما الداعي ؟

ــ لاتخجلني · هذه أمنية ·

ولم أشعر الا وهي وتتأبط ذراعي وتدفعني دفعا خفيفا الى احدى تلك الحانات الصغيرة المبعثرة على جانبي كل طريق من الطرق الصغيرة المتفرعة من ميدان «بلانش» ·

وبعد قليل كنت أجلس وتلك الفتاة على مقعدين متجاورين من مقاعد «البار الامريكي» العالية وأمامنا كأسان من «البرنو» وفجأة أدنت فمها من وجهي وسألتني في صوت متهدج :

ــ مصري طبعا ؟

ــ أجل ·

ــ من «عزبة النخل» ؟

ـ لا ، وانما كنت أمزح مع صديقى ٠

وسادت فترة صمت قصيرة تناولت أثناءها كأسها وأفرغته مرة واحدة فى جوفها ثم التفتت الى وعادت تسألنى :

ـ متى رأيت «عزبة النخل» لآخر مرة ؟

ـ قبل أن أحضر الى باريس بأسبوع واحد ٠

فهمست فى صوت مرتجف وكأنها تغالب رغبة فى البكاء ٠

ـ وكيف حالها ؟

فدهشت من هذا السؤال ٠ ثم وجدتنى أجيبها :

ـ على مايرام ٠

ـ ألم يتغير فيها شىء ؟

ـ لا ٠

وعندئذ أخذت تهز رأسها هزات خفيفة متقطعة وقد عادت الى قسماتها تلك الابتسامة المرة التى رأيتها قبل ذلك ببضع دقائق ٠ وأخذت تتمتم وكأنها تهذى ٠

ـ النخل ٠٠ أشجار الجوافة ٠٠ الترعة ٠٠ أبراج الحمام ٠٠

واختنق صوتها بالبكاء فأدارت رأسها الى الجهة الاخرى · وفهمت توا أنها كانت تريد اخفاء دمعة انحدرت على وجنتها أسرعت فجففتها بمنديلها · ثم عادت فأدنت وجهها من وجهى و تكلفت ابتسامة عريضة وقالت لى وهى تربت على كتفى فى رقة ·

ـ سأثقل عليك وأطلب كأسا أخرى

كنت اذ ذاك قد بدأت أشعر برغبة شديدة فى أن أعرف شيئا عن الفتاة الغريبة فوافقت · ثم سألتها السؤال الذى كان موضع حيرتى منذ سمعتها تنادينى وأنا خارج من « الكرة السوداء »

ـ مصرية ؟

فلم تكد تسمع ذلك حتى أرسلت بضع ضحكات عالية وانصرفت عنى الى الساقى تطلب اليه فى لهجة باريسية صميمة أن يرجو سيدة تدعى « كلوديت » أن تنتظرها فى ظهر اليوم التالى لتذهبا سويا الى حائكة اتفقتا على الذهاب اليها ، وأردفت ذلك بقولها وهى تهز أصابعها فى حركة رشيقة

ـ أياك أن تنسى أسمى · أتعرف من هى التى تنتظرها « كلوديت » غدا عند الظهر ؟

فأجابها الرجل وهو يملأ كأس « البيرنو »

ــ كيف لا أعرف سوزى الأسبانية السمراء ؟

وعادت الى التحدث الى فقالت وهى لا تزال تتسابع ضحاكتها

ــ أترى ؟ أنا هنا أسبانية · واسمى سوزى

ــ والحقيقة ؟

ــ كأنك لا تعرف

ــ لا أصدق أنك مصرية

ــ الحمد لله على أنك لا تصدق كما أن غيرك من المصريين هنا لا يصدقون أننى مصرية · أننى أتعمد ان أخفى حقيقة جنسيتى

ــ وما الذى جاء بك الى باريس ؟

فزفرت نفسا حادا طويلا وتمتمت فى حروف متقطعة

ــ ما ·· الذى ·· جاء ·· بى ؟ انها قصة طويلة · لم أكن أطمئن الى روايتها للناس · ما اسمك ؟

واشتدت دهشتى من تلك الفتاة التى أيقنت أنها

شاذة التفكير ان لم تكن مختلة القوى العقلية وأجبتها الى ما طلبت فعادت تتابع حديثها قائلة

ـ لقد قضيت فى باريس عامين ٠٠ وماعانيته من شقاء ذينك العامين لا أعتقد أن أحدا غيرى عاناه قط ٠ ماعمرى فيما تظن ؟

فحصت وجهها جيدا ثم أجبت

ـ ثمانية وعشرون أو تسعة وعشرون عاما

فضحكت ثم قالت وهى تخرج جواز سفرها من حقيبة يدها

ـ ان أحدا لا يمكن أن يصدق اذا رآنى لم اتجاوز الثانية والعشرين من عمرى ٠

وتجرعت كأسا من « البيرنو » ثم تابعت كلامها

ـ لقد عرفت فاضلاً قبل أن أتجاوز الثامنة عشر ٠ كنت طفلة ساذجة مغمضة العينين ٠٠ من البيت الى المدرسة ومن المدرسة الى البيت حتى رأيته ٠ لعلك تذكر محطة «عزبة النخل» ان بيتنا على بعد بضع خطوات من «مزلقان» السكة الحديدية الذى يظل مغلقا الى أن تقبل سيارة ترغب فى المرور ٠٠٠ وقد أقبلت أسرته فسكنت بيتا مجاورا لبيتنا ٠ لازلت أذكر أول مرة وقع بصرى

عليه فيها ذات يوم من أيام الصيف ·· كنت اذ ذاك فى حديقة بيتنا · وكان مدرسى الايطالى قد أقبل ليبدى لى بعض ملاحظات على لوحة «مائية» وكان فاضل يومئذ يحفر أرض حديقة بيتهم بفأس ضخمة ·· وظل يحفر مدة طويلة حتى تهدج صدره · وتصبب العرق من جبينه فشعرت باشفاق على جارى الشاب ، خيل الى أن العرق قد تسلل الى عينيه وألهبهما دون أن ينتبه · وكدت أصرخ لأنبهه ·· كم كانت عيناه جميلتين !

قلت لك منـذ برهة اننى قضيت فى باريس عامين رأيت أثناءهما آلاف الشبان من كافة الاجناس ولكننى لم أر قط أجمل من تينك العينين اللتين كانتا تلمعان تحت وهج الشمس فى ذلك اليوم من أيام الصيف فى «عـزبة النخل» ·

ــ وماذا جرى بعدئذ ؟

فتابعت هـزات رأسها ، هـزات بطيئـة متثاقلة ثم أجابت :

ــ عرفت أننى كنت طفلة ، جاهلة ، اسأل عنى عندما تعود الى مصر · اسأل عن سنية ابنة المرحوم عثمان أفندى أحمد الذى كان مفتشا بجمرك مصر · اسأل عنى فى ذلك

الى الهادىء من ضواحى القاهرة بين عزبة النخل والمطرية وستسمع اجماعا على اننى كنت ملاكا ولكن ..
هكذا شاء القدر ، كان مكتوبا على أن أحب فاضلا ، وأن أرى ما رأته عيناى فى العامين الماضيين . لم يكن ممكنا أن يقنعنى أحد منذ ثلاثة أعوام بأن فاضلا سيهجرنى ويسلمنى الى هذا الشقاء . أما الآن فاننى كلما سمعت فتاة تتحدث عن رجل تحبه هززت رأسى وقلت لها «احذرى . لايوجد رجل تستطيع الفتاة أن تطمئن اليه» لقد تعلمت .. ولكن أخيرا .. أخيرا جدا .. دفعت شبابى وأعصابى وتشردى ثمنا لهذا الدرس .

وأخرجت من حقيبتها مرآة صغيرة نظرت فيها الى وجهها ، الى التجعدات الصغيرة المتقلصة تحت عينيها الواسعتين ، والى الشرايين الزرق الناتئة فى عنقها النحيف ، وتنهدت طويلا ثم قالت وهى تطلب كأسها الثالثة .

ـ لاتؤاخذنى أتوسل اليك ، أصبحت الآن لا أقوى على الكلام الا اذا ثملت ، أؤكد لك أننى لو كان عندى ثمن هذا الكأس لما ناديتك وأثقلت عليك .

وبدأت أشعر بشىء عجيب نحو تلك المصرية التى ساقها القدر الى فى تلك الليلة من ليالى مونمارتر العابثة

٠٠ وانتظرت حتى استراحت قليلا من أثر الثورة النفسية التى اجتاحتهـا وهى تسـتعرض ذلك المـاضى المفجع وسألتها :

ـ ولم هذه القسوة على نفسك وهذه الجنـاية على صحتك وأنت فى فجر الشباب ؟

ـ صحتى لم تبق لى صحة أعنى بها ٠ انتهيت ٠ ليتك رأيتنى قبل ثلاثة أعوام ٠ آه لقد نسيت أن أتم قصتى ٠٠ وتدفق الدم الى وجهها وكأنها خجلت لانها تبينت أنها لم تعـد تستطيع أن تسـيطر على تسلسل الحـديث ٠ وأن الاضطراب الشديد قد جعلها تنسى ماكانت تود أن تقوله لى ٠ وأبعدت الكأس عنهـا ثم قطبت حاجبيها واندفعت تقص على تلك القصة الدامية من قصص الحب العاصف ٠٠ قد تحابت هى وفاضل الذى كان كذلك اذ ذاك لايزال طالبا فى احدى كليات الجامعة ، ونما ذلك الحب واشتد على مر الايام حتى أحس كل منهما ألا غنى لاحدهما عن الآخر ٠ وانقضت أيام دون أن يعرف أحد سر حبهما الى أن وقعت احدى رسائله اليهـا فى يد والدتها فثـارت واتصلت بوالد فاضل وطلبت اليه وضع حد لعبث ابنه بسمعة ابنتها ، وقوبلت ثورتها بثورة أخـرى من والد فاضل الذى أبى أن يعلن خطوبة ابنه على سنية ٠ وآلم

جارته الأرملة اذ قال لها فى قسوة جارحة . «امنعى ابنتك عن ابنى حتى يتم دراسته» .

وتحرج الموقف بين العاشقين الشابين ورسب فاضل فى امتحان آخر السنة وخشى أن ينسب أبــوه ذلك الى تعلقه بسنية فاتفق الاثنان على السفر .. السفر بعيدا .. الى باريس لكى يتم فاضـــل تعليمــه ، واجترأ فى سبيل تحقيق ذلك على كل شىء ، اجترأ على بيع سندات البنك العقارى التى كان قد ورثهــا عن والدته وقبض الثمن ثم فوجئت الاسرتان بسفر فاضل وسنية خفية دون أن يعرف أحد الجهة التى سافرا اليها .

ووصل العاشقان الى باريس وقيد فاضل اسمه فى مدرسة الفنون الجميلة واستأجر شقةصغيرة فى «بيرفيت» القريبة من باريس واشترى سيارة فرنســية صــغيرة . وأخذ الاثنان يتمتعان بحياتهما الباريسية الجديدة .. الى أن كان ذلك اليوم الهائل . فقد قضيا السهرة فى أحد المسارح وقفــلا عائدين الى «بيرفيت» وبينما كانا منطلقين بالسيارة على الأرض المبتلة ظهرت سيارة أخرى اندفعت من طريق متفرع من السكة الزراعية وانحرفت السيارة الصغيرة ثم انقلبت وهوت الى الحقل المنخفض الذى كان الى جوارهما .

وتهشمت السيارة .. وفقد الاثنان وعيهما لأن جروحهما كادت أن تكون قاتلة . ولم يشعر أحدهما بشيء الا بعد أيام عديدة .

أفاقت سنية فوجدت نفسها في احدى مستشفيات باريس وسألت عن فاضل فلم تجده .. علمت فقط أن أسرته هى التى دفعت نفقات علاجها فى المستشفى . واتضح لها بعد قليل أن عم فاضل الذى كان يتلقى تعليمه فى «نانسى» أقبل الى باريس مسرعا عقب الحادث وأنه أشرف على اعادة فاضل بعد أن تحسنت حالته الى مصر .

وخرجت سنية من المستشفى لتتلقاها باريس .. باريس أخرى لم تعهدها مع فاضل من قبل . باريس عابسة مكشرة جائعة عطشى . وكانت أعوام الشقاء .. وعملت فى أحد محلات التطريز فترة .. وظهرت فى الأدوار الثانوية البسيطة فى بعض «الافلام» فترة أخرى .. ووقفت زمنا وجيزا فى العمل كنموذج حى فى دور الأزياء ثم لم تلبث أن اضطرت الى ترك ذلك العمل عندما اشتد هزالها وشحوبها فتسكعت فى « مقاهى مونبارناس » وبليت مجموعة أحذيتها من طول السير على الأرصفة .

ووجدت سنية ، ملاك «عزبة النخل» ، نفسها مسوقة الى التماس العـزاء على مقـاعد الحانات · والبحث عن النسيان خلف كؤوس الخمـر · أفرطت حتى أهـدرت شبابها · وأحرقت أعصابها ·

ولم تكد سنية تصل فى حديثها الى هذا حتى حدقت فى عينى وقالت :

ـ صدقنى أننى لم أرو قصتى لأحـد غيرك · من قبل · عندما سمعتك تذكر اسم «عزبة النخل» شـعرت بالرغبة فى الحيـاة من جـديد · لست أدرى ·· أحس احساسا خفيا أنك تستطيع أن تساعدنى ·

فعرضت عليها أن أفعل مافى وسعى لكى أدبر عودتها الى مصر ولكنها قاطعتنى قائلة :

ـ مصر ؟ لايمكن أن أعود اليها الآن · يجب أن أعود الى أمي كما تركتها · لو رأتنى بهذه الحالة لماتت كمدا · يجب أن أقلع بتاتا عن شرب الخمر · فاذا عجزت حاولت أن أقلع تدريجيا يخيل الى أننى لو أطلت الحديث معك لتحسنت حالتى النفسية · أين تقطن ؟

فأخبرتها باسم الفندق :

ولما استأذنت منى فى أن تزورنى فى الصباح ترددت فى بادىء الأمــر ولكنهــا قالت لى والدمــوع تلمع فى عينيها ٠

ـ لاتخف ، عندما تضجر من الحديث معى صارحنى وأنا أتركك توا ، لا تخجل من مصارحتى بذلك ٠ اذا كان الحــديث معك يريحنى فلايجب أن أثقــل عليك ٠ ماذنبك ؟

ولما افترقنا ليلتئذ لم أستطع أن أتحرر من شعور الرثاء لتلك الفتاة التى افترستها الحياة قبل الأوان ٠

وفى اليوم التالى مرت بالفندق ٠ فدعوتها الى تناول الغداء ولاحظت فرحها الشديد بالحديقة الصغيرة التى كانت نوافذ غرفة الطعام تطل عليها ٠ الحديقة التى تذكر توا بحدائق «عزبة النخل» ٠

ومرت سكرتيرة الفندق ٠ فأخبرتها أننى وضعت عددا من مناديلى وجواربى وثيابى فى الســلة المخصصة للثياب المعدة للغسيل ورجوتها أن تكلف «خادمة الغرفة» باستعجال غسيلها وكيها ٠

وعندئذ قالت لى سنية بالعربية لئلا تفهم الأخرى ـ

ـ ولم ؟ آلبس لغرفتك حمام ملحق بها ؟ ان غسيل هذه الثياب لايستغرق منى نصف ساعة ٠

وعبثا حاولت اقناعها بأن تعدل عن ذلك فقد أصرت على عزمها ٠ وصعدت الى غرفتى توا وأخرجت الغسيل من السلة ثم دخلت الى الحمام وبدأت تغسل الثياب فى الحوض ٠

وتكرر تردد سنية على الفندق ، واسترحت الى قضاء ساعات طويلة معها نتبادل الحديث فى غرفتى أثناء اهتمامها بكى قمصانى وربطات عنقى ، أو أثناء تناول الشاى فى حديقة الفندق أو حول كأس فى حانة من حانات باريس ، وجاريتها فى فكرتها فكنت أدعى أمام اخوانى العرب أنها أسبانية وأتعمد ألا أتبادل معها كلمة عربية واحدة ٠ ولو أن ذلك كان يكلفنا جهدا شاقا فكنا نتلافاه باختيار الاماكن التى لايتردد العرب عليها ٠

وأصبح مألوفا فى فندق «شاتوبويان بازاك» أن يعد على المائدة التى اعتدت تناول طعامى عليها «غطاءان» لها ولى ٠

وفى الليلة السابقة لليوم الذى كنت أعتزم فيه السفر الى مارسيليا لأركب الباخرة عائدا الى مصر دعوتها

لقضاء سهرة باريسية طويلة وأخفيت عنها أمر سفرى لكى أفاجئها به فى الصباح ..

وسهرنا . تنقلنا بين عدد كبير من مـلاهى باريس حتى الصباح ثم عدنا الى الفندق فتركتها فى غرفتى . ونزلت لدفع الحساب المستحق على الفندق .. وفيما أنا أقوم بذلك رأيت شابا . أشقر الشعر . تبدو على وجهه مسحة تركية مصرية . يتقدم الى الخادم الصغير ويسأله فى فرنسية ركيكة .

ـ أين هى الغرفة التى تقطنها الآنسة سنية ؟

ولما ظهرت علامات الدهشة على وجه الخادم استمر قائلا :

ـ انها مع سيد مصرى ـ فعلمت توا أنه يقصدنى ورجحت أنه فاضل عبد العظيم ، صديقها الذى حدثتنى عنه . فتقدمت اليه وقلت له :

ـ تعالى معى .

وصعدت معه الى الغرفة . كانت سنية اذ ذاك تقوم بوضع ثيابى فى الحقيبة الكبيرة كما طلبت اليها .

فلم تكد تشعر بدخولنا حتى التفتت . ووقع بصرها

على فاضل · فجفلت · وتراجعت الى الخلف حتى التصق ظهرها بالمرآة · وتمتمت فى صوت خافت مضطرب ·

ــ فاضل ؟ أنت ؟

وظل الشاب واقفــا فى مكانه عنــد باب الغرفة · وبصره شاخص اليها ، وانقضت فترة سكون رهيبة ، ثم تقدم اليها وسألها فى صوت حنون :

ــ ماذا فعل أهلى بك ياسنية ؟

وتحركت أنا متأهبا لتركهما منفردين · ولكن سنية صاحت بى ·

ــ لا · انتظر ·

ثم التفتت الى فاضل وقالت له فى لهجة ساخرة :

ــ لم يفعل أهلك شيئا · أنت الذى فعلت كل شىء · أنت وحدك ــ وارتعد الشاب ولمعت عيناه بالدموع ثــم استطاع أخيرا أن يتكلم ·

ــ لقد جئت عندما استطعت المجىء · منذ حملونى الى مصر لم أنقطع عن التفكير فيك ولكننى لم أدر كيف أتصل بك · فلما عدت الى باريس ظللت أبحث عنك فى كل مكان فلم أهتد اليك · لم أترك مصريا دون أن أسأله

عنـك ·· الجميع يجهلون اسـمك بل ويجهلون أن فى باريس مصرية بهذا الاسم · أمس قابلت مصادفة حائكة الثياب التى كنت قد صحبتك اليها عندما جئنا الى باريس للمرة الأولى فأخبرتنى أنها قابلتك منذ شهر وأنها عرفت أنك تقطنين هذا الفندق ـ وتهدج صوته قليلا ثم التفت الى وهو يجاهد لكى يقول :

ـ وأنك تكثرين من الخروج مع شاب مصرى ·· كما عرفت أمورا أخرى كثيرة ·· أمورا ساءتنى وأحزنتنى ياسنية ·

فهزت رأسها وقالت له فى ثبات عجيب :

ـ وماذا كنت تريد أن تسمع غير ذلك ؟

ـ لا أستطيع أن أصـارحك · لقـد أخبرونى أنك لاتفيقين من الخمر · وأنك ··

فصرخت سنية فى وجهه ·

ـ لاتصدق كل مايقال لك · ومع ذلك فماذا كنت تنتظر أن تسمع عنى بعد أن هجرتنى فى مدينة كباريس طفلة صـغيرة · ساذجة ليس لها من تلجـأ اليـه أو من يحميها ؟

وبان الألم الشديد على عينى فاضل وعاد يسألها وفى صوته أسى وحسرة ٠

ـ ولكنى أريد أن أعرف الحقيقة ٠٠ من هم أولئك الرجال الذين كنت تترددين معهم على الحانات و «علب» الليل ؟

فتدخلت اذ ذاك وقلت له :

ـ أى رجال تعنى ؟ لو أنها قبلت ماخيل اليك أنها قبلته لما بان هزالها وشحب لونها وبدا عليها أثر الجوع كما تراها ٠

وعندئذ انفجرت سنية قائلة ودموعها تنهمر غزيرة ٠

ـ كيف تستحل أن تجرى معى هذا التحقيق بعد أن هجرتنى عامين ٠

فوضع فاضل يده على كتفها وقال فى تأثر ظاهر ٠

ـ عدت لكى أعتذر لك عما مضى وأرجوك أن تعيشى زوجة لى فى المستقبل ٠

فارتفع صوتها كالرعد فى وجهه ٠

ـ ومن تقبلك زوجا ؟ لقد أحببتك وكان يخيل الى أننى مازلت أحبك ولكننى بعد أن رأيتك هنا منـذ برهة تبينت أننى كنت واهمة أن العذاب الذى رأيته بسببك لم تره فتاة أخرى · اننى أكرهك · أكرهك · وسأظل أكرهك كلمـا تذكرت أننى طيلة ذينك العـامين جعت وتشردت وتهت فى دنيا جاحدة منحت أمثالك ممن نسيت قلوبهم الرحمة · رجال ؟ أجل كنت أصحب الرجال الى كل مكان · كانوا يدعوننى الى تناول الطعام والشراب فأقبل لألتمس قليلا من الدفء · بعد أن أكون قد عانيت رجفة البرد أياما وليالى · أبعد ذلك كله تعود لكى تطلب منى أن أقبلك زوجا أخرج ·· لقد اعتدت البرد والجوع والعرى · كل ما أطلبه منك أن تغرب من وجهى · أخرج · لا أريد أن أراك · أخرج ·

وذعـرت لذلك الموقف الهـائل وأسرعت اذ ذاك فنصحتها أن تتريث · وتذكرت أننى لم أكن قد صارحتها باعتزامى مغادرة باريس فى المسـاء ففعلت وعنـدئذ وجمت قليلا ثم عادت تكرر أنها لاتريد أن تراه ·

والتفت الى فاضل وقلت له فى صوت هامس :

ـ اعذرها لابد أنها رأت من الأهوال مايبرر هـذا الشذوذ ·

وكأنما فهمت ماكنت أقول فعادت تصرخ :

ـ لا . لست مجنونة . سأثبت لكما أننى فى تمام عقلى . ان لم يغادر هذا المكان سأغادره أنا ولن ير وجهى بعدئذ قط . سأهجر باريس كلها الى الأبد ..

وعدت أنصحها أن تتريث . وذكرتها أنه يعرض عليها الزواج والراحة والهدوء . ولكنها أصمت أذنيها وأبت الا أن يخرج ، فاضطر فاضل أن يغادر الغرفة وهو حاسر الرأس . وبقيت سنية حتى انتهيت من وضع ثيابى فى الحقائب . ولما ودعتها وأنا أتقدم الى السيارة التى أقلتنى الى المحطة كان كل منا يغالب الرغبة فى البكاء .

وبينما كانت الباخرة تعبر البحر الى الاسكندرية بحثت فى احدى حقائبى عن كتاب أقرأه . وفيما أنا أقلب صفحاته سقطت منه ورقة قرأت فيها هذه الكلمات .

« أكدت لى أكثر من مرة أنك تصدق كل ما أخبرك به ولكن هناك شيئا واحدا طالما هممت بأن أصارحك به أثناء جلساتنا الطويلة فى ظلام الحديقة ثم أحجمت .. مهما أكدت لى أنك تثق بصدقى فانني أستبعد منك أن تثق بعاطفة امرأة لقيتك ذات ليلة على رصيف من أرصفة مونمارتر .

الليـلة.. وإلا فلا

الليلة • والا فلا

الآلاف من السيدات والانسات فى ثياب السهرة نصف المكشوفة يجبن أنحاء ذلك الفناء الرحب الواسع الذى يحيط بتلك البحيرة التى تتوسط قصر محمد على الكبير فى شبرا يشاهدن البرنامج الرائع الذى أعدته سيدات احدى المبرات الخيرية لمساعدة الفقير • وكانت الأضواء قد خفتت لكى تمكن المتفرجين من تبين مايدور فى الجزيرة الصغيرة التى تتوسط البحيرة • والتى اتخذت مسرحا كانت تمثل عليه مشاهد تاريخية على أنغام الموسيقى ••

وفى زاوية من زوايا القصر التاريخى وقف الدكتور

فايد صدقى يشترك مع الآلاف الحاشدة فى مشاهدة البرنامج .. كان كغيره من آلاف الشبان لا يميزه شىء الا بريق يشع من عينين واسعتين كانتا تشخصان بتأثر شديد الى الموسيقى العازفة بقوة تتسق مع الجو التاريخى الذى كانت تدور فيه مشاهد الجزيرة المائجة بأسراب الفتيات والشبان . وقد تكاثف حول تينك العينين الدخان المتصاعد من « سجارة » فكساهما طبقة خفيفة من الدموع .

وكانت قامته المرتفعة قد مكنته من أن يقف خلف الجميع دون أن يرهق نفسه بصعود مقعد أو التعلق بنافذة لمشاهدة ماأراد ان يشاهده ، وأضىء النور فغمر المكان كله ... ومرت أسراب السيدات والانسات يخطرن كأنهن أميرات يعشن حقا ساعة حالمة فى ذلك القصر الذى شاء المشرفون على الحفلة أن يصوروا ماضيه للناس ...

وأخذ الطبيب الشاب يحنى هامته بين كل لحظة وأخرى لسيدة تشير اليه اشارة رشيقة بمنديل أحمر صغير فى يدها أو يرد على ابتسامة آنسة تلوح له من بعيد بيدها وقد أمسكت بها زهرة دفعت ثمنها غاليا . أو يمد يده ليصافح ثالثة تسير الى جانب زوج كان

صديقا له قبل الزواج وهى تهمس فى آذنه بصوت خافت ساخر «وحدك .. ماذا جرى الليلة ؟»

كان الدكتور فايد صدقى طبيب العيون الشاب قد طبقت شهرته دوائر الطب لكفايته الفذة كما طبقت صالونات القاهرة بالحديث عنه ، ذلك الحديث التقليدى الحائر المتسائل الذى اعتدنا أن نسمعه يدور حول كل شاب اجتاز الثلاثين ينتسب الى أسرة كريمة معروفة ويشغل مركزا اجتماعيا محترما يدر عليه ايرادا كبيرا مغريا ، ومع ذلك لم يقدم على الزواج . وكان يبدو جليا من النظرات الموجهة اليه من الاسراب المارة فى ثياب السهرة أنه لم يكن مجهولا من الكثيرات والكثيرين .

لم ينس الناس بعد أن صوره قد غمرت أنهر الصحف والمجلات منذ مدة لمناسبة توفيقه توفيقا مدهشا فى علاج بعض أمراء الاقطار العربية وقد أعياهم علاج أمراض عيونهم فى بلاد أعرق من مصر فى طب العيون ، ولم تنس الكثيرات من أولئك الفتيات اللاتى حضرن الى الحفلة الساهرة أن الطبيب الشاب طالما أثار اعجابهن وهو يتصدر احدى المقاصير فى دور السينما . يشاهد مع بعض أصدقائه البرنامج المعروض ولايعنى حتى بالنظر فى أثناء فترات الراحة الى الفتيات المتناثرات

فى المقاصير المجاورة بينهن كثيرات قد تصلح احـداهن زوجة فاتنة له تحتل مكانا الى جانبه فى تلك المقصورة بدلا من أولئك الاصدقاء الذين اعتادوا أن يضجوا بالضحك العالىويعكروا جوالمقصورة بدخان «سجائرهم» ويلوثوا أرضها بأعقابها .. وانطفأت الانوار فى فناء القصر التاريخى مرة أخرى . وتوقف الناس عن السير وأخذوا يشاهدون مايدور على أرض الجزيرة التى تتوسط بحيرة القصر . الا «فايد» فانه كان يتظاهر بالنظر الى ماينظرون ولكن تأرجح السيجار بين أصابعه كان ينبىء بأن اضطرابا هائلا انتابه فجأة وهو يجول فى أنحاء القصر .

وتحرك فايد قليلا وسط الظلام وفتح أنفه كأنه يتحسس رائحة عطر خاص . وظل يتنقل فى خطوات قصيرة منسابا وسط الأكتاف المتراصة حتى توقف فجأة واشتد بريق عينيه واتسعت فتحتا أنفه ، ثم أدار بصره حوله فى سرعة ، فقد اهتدى الى الشىء الذى ظل يبحث عنه منذ ساعة وبعض الساعة .

وتكرر التفاته وتدقيقه فى الوجوه الغريبة عنه . كان يبدو أنه يجهد نفسه اجهادا لكى يهتدى الى وجه

معين ، وأخيرا اتسعت حدقتاه وفغر فاه ثم أن أنة خفية مكتومة ..

كانت عنايات حسنى بنت الاستاذ علام حسنى المحامى واقفة فى المقصف تشخص الى الجزيرة العائمة على سطح الماء تمثل عصرا من عصور الماضى البعيد ..

وفجأة التفتت عنايات فرأته . رأت «فايد» ينظر اليها .. والتقت نظراتهما .. واختلجت شفاههما وتمتمت كل شفتين بشىء ما . شىء لم يسمعه أحدهما . لأن أصوات الجماهير القريبة منهما كانت تطغى على كل شىء .. مصحوبة بضجيج الموسيقى . ولكن عنايات عرفت أنه كان يقول :

ـ أنت ..

وفايد أيقن أنها كانت تقول :

ـ أنت ..

وشاعت ابتسامة فى وجهيهما .

ونسيا كل شىء .. الا أنهما التقيا فجأة بعد فراق ثلاثة أعوام ، أبت فيها كبرياء كل منهما أن يخطو الخطوة الأولى نحو ازالة الجفاء ..

وعادت شفتا فايد تهمسان :

ـ عندما أقبلت الى هذا المكان الليلة جعلت أبحث عنك الى أن ·· فسألته وهى تنظر الى عينيه فى سذاجة طفلة ··

ـ الى أن ؟··

ـ الى أن شممت عطرا آمنت بعده أنك هنا · فى المقهى الذى كانت تغنى فيه المطربة · كان العطر الذى اعتدت أن تضعيه فى شعرك وثيابك يملأ الجو حولى · فظللت أسير ·· خلفه واثقا بأننى سأعثر عليك ·

ـ كنت أنا الأخرى واثقة من أنك ستعود ·

فأدنى فايد وجهه من وجه عنايات ثم سألها : ماذا تعنين ؟

ـ اننى أعرفك أكثر مما تعرف أنت نفسك · لم أر ولم أسمع برأس عنيد كرأسك · كنت أعلم أنك أحببتنى ومازلت تحبنى فلم يكن يثيرنى أن أسمع أنك تحدثت الى فتاة غيرى أو جالستها أو ضحكت معها ·· كنت موقنة بأنك تقاوم لكيلا تعود الى ·· وأقسم لك يافايد أننى وطنت نفسى على عد تلك المقاومة امتحانا لحبنا · فكلما استطعت أن تطيل المقاومة أصبحت أجدر بحبى وحب الرجل الذى ظللت أحلم به ، القادر على كتمان أعظم الألم ··

وعاد الطبيب الشاب ينفث دخان سيجاره في ظلام الليل الذى كانت تملؤه أنغام الموسيقى وصيحات المرح ثم قال :

ـ من أخبرك أننى كنت أتألم ؟

فأرسلت عنـايات ضحكة طـويلة ورفعت يدها ثم وضعتها فى رفق على كتفه وربتت عليها كأنها تعالج طفلا عنيدا وقالت :

ـ أوه .. لقد طالت قامتك يافايد ، وامتلأ جسمك ولكن .. ثم أطبقت شفتيها وهزت رأسها هزة واحدة دون أن تتم جملتها فسألها :

ـ ولكن ماذا ؟

ـ ولكنك مازلت ذلك الطفل الكبير الذى عهـدته منذ عشرة أعوام . مازلت ذلك الطفل الكبير الذى يعاند الناس ويعاند نفسه . أتظن أننى صدقتك عندما تظاهرت بأنك رأيتنى فجأة ؟ لا .. لقد تيقنت أنك رأيتنى قبل أن أراك وتعمدت الوقوف على مقربة منى ، فلما لحظت أننى رأيتك تظاهرت أنك رأيتنى مصادفة وأنك لم تعن بالسير خلفى .

ـ ولكنك واهمة .

ـ كيف ؟

ـ اننى لم أتبعك وانما تبعت عطرك ٠٠ أجل لقد عرفت بمجرد أن شممت هـذا العطر الذى يفوح منك الآن أنك هنا واجتهدت أن أذكر اسمه ، ولكنى لم أهتد اليه وكدت أسأل كل سيدة قابلتنى عن هذا الاسم ولكننى أحجمت الى أن رأيتك ٠

ـ ألا تذكر اسمه ؟

ـ لا ٠٠

ـ ولكنك تذكر شيئا آخر تتظاهر باخفائه كعادتك ٠ آخر لقاء لنا منذ ثلاثة أعوام ٠٠

ـ أجل أذكره ٠

ـ اقترب منى وأعد ذكره ٠٠ لاتخش شـيئا ، ان أحدا لايمكنه أن يرانا فكل الناس مشغولون هنا بالنظر الى هذا المشهد الفخم ٠

ـ كانت ليلة من ليالى الصيف وكنا قد التقينا على موعد لنتحدث فى أمر لست أدرى لم أعطيته اذ ذاك أهمية أكثر مما كان يجب أن أعطيه اياه ؟ مازلت أذكر جيدا فقد سألت عنك تليفونيا عصر اليوم السابق فلم أجدك ٠ وأعدت السـؤال بضع مـرات فلم أعثر عليك ٠ لقـد

تأخرت ليلتئذ عن الموعد الذى كان يجب أن تعودى فيه الى المنزل .. تأخرت كثيرا دون أن أعرف المكان الذى ذهبت اليــه . لم يكن من عــادتك .. وظللت أحــاول الاتصال بك الى مابعد منتصف الليل حتى سمعت صوتك فلم أشأ أن أظهر لك اهتمامى بتأخرك وقطعت الحديث .. وفى صباح اليوم التــالى اتفقنا على اللقــاء فى الليــل وسألتك غاضبا عن السبب فى تغيبك دون أذنى وكأننى لم أكن لك زوجا ولا خاطبا .

ويظهر أننى تحدثت اليك فى لهجة كان طبيعيا أن تثير بريئة لم ترتكب اثما فى حق الرجــل الذى أحبته كما عرفت بعدئذ ، اذ اتضح لى أن عمتك مرت بمنزلك وألحت فى أن تصحبيها لحضــور حفلة أقامتها فى احــدى الجمعيات الخيرية ، رأيتك تجيبيننى فى لهجة لم تخل من مرارة : «اذا أردت أن تسأل عن أمر فيمكنك أن تسأل عنه بطريقة أخرى» فلم أستطع اذ ذاك الا أن أمعن فى الشــدة فأجبتك .. «هــذه هى طريقتى ولا أســتطيع تغييرها» .

وعندئذ نهضت وبدأت فى ارتداء معطفك وأنت تقولين «وأنا لا أجيب عن الاسئلة التى توجه الى بهــذه الطريقة» فعدت أسأل : «كيف ؟» وهززت كتفك وأنت

تفتحين حقيبتك «كمـا ترين» وصـحت بك «يجب أن تجيبي» فثارت كرامتك المجروحة وقلت «اذا أجبت فلن أجيب الليلة» ٠

آه ٠ لقد تذكرت الآن اسم ذلك العطر «الليلة والا فلا ٠٠ الى الأبد ٠٠ تذكرت ٠ تذكرت ٠ يانيني أليس هو ذلك العطر نفسه الذى يفوح منك الآن ؟ لقد أخرجت زجاجة العطـر من حقيبتك ثم سكبت منهـا نقطتين على منديلك بعد أن تركتني أتحقق اسمها جيدا ٠

واستمعت عنايات الى الحديث طويلا ثم هزت رأسها وقالت :

ــ أجل ٠٠ مازلت أذكر أنا الاخرى ماحدث في تلك الليلة ، لقد تركتك وتقدمت الى سـيارتي وأنا أغالب الرغبة في البكاء ولما تهيأت السيارة للتحرك عائدة من الهرم لاحظت أنك كنت مكشوف الرأس والعرق يتصبب من جبينك ، وأردت أن أطلب اليك أن تستر رأسك وأن تجفف جبينك ٠٠ ولكني خشيت أن يظهر أثر الدموع في صوتي ٠ فهبطت بسرعة الى القاهرة ٠٠

ــ «الليلة والا فلا ٠٠ الى الأبد ٠٠» ولكننا التقينا مرة أخرى يانيني ؟

ـ كان يجب أن نلتقى ·· أشككت يوما فى ذلك ؟

ـ لا حتى ولا فى تلك الليلة التى تشاجرنا فيها ··

ـ أليس غريبا أن نتشاجر لأننى صحبت عمتى الى حفلة تغيبت فيها بضع ساعات عن المنزل دون أن أتعرف أين أنا ثم نبقى ثلاثة أعوام لايعرف أحدنا شيئا عن الآخر ·· ؟

وسكتت قليلا ثم قالت :

ـ ان رأسك مكشوف والعرق يتصبب من جبينك ··

ـ أجل ··

ـ هل جننت ·· اننى أحس بقشعريرة البرد فى هذه الضاحية النائية · أتنوى البقاء ؟

ـ لم أر شيئا من برنامج الحفلة ·

ـ ليس هنا مايستحق الرؤية ·

ـ يقولون أن المقهى البلدى مدهش ·

ـ انه مكان مغلق أخشى أن تدخله ثم تخرج فيقابلك هذا الهواء الرطب · خذ برنامج الحفلة وضعه على صدرك خلف القميص ، أسرع قبل أن يضيئوا النور ·

وأسرع فايد فوضع البرنامج المطبوع على ورق

سميك تحت قميصه ثم أضيئت أنوار الفضــاء الواســع وافترق العاشقان الشابان مع هذا الحوار ٠

ـ عودى بعد اطفاء النور الى هــذا المكان ٠ ان لى معك حديثا الليلة ٠

ـ الليلة فقط ٠

ـ شريرة ٠٠٠!

ابتسام الزهر

ابتســام الزهــر

لم يسافر فى صيف هذا العام الى أمريكا لينسى حبا قديما أو لينشد حبا جديدا ، وانما سافر ليرىَ عالما قرأ عنه الكثير فشاقه أن يعيش فيه ، وتعمد أن يطيل اقامته فى أكثر مدن أمريكا صخبا وأشــدها عنفــا ، لأنه كان ــ قبل سفره ــ قد اعتاد الحياة فى منزل خلوى اقامه فوق ربوة تطل من جهة على ترعة المريوطية ومن الجهة الاخرى على الصحراء الممتدة غرب القاهرة ، وقد شهد هذا المنزل آخر غرام له ، فلما خمدت جذوة هذا الغرام باعه ، خيل اليه أنه لم يعد يطيق تلك الليالى الشاعرية الهادئة التى يحلو فيها الهمس والتى تفصح العيون فى ظلمتها عن

أرق المعانى اذ تعجز الشفاه ٠٠ ولعل دافعا آخر حفزه
الى هذه الهجرة القصيرة ٠٠ فانه اختار لنفسه أو اختارت
له الحياة فى مصر أن يكون شاعرا ، فأحس بآلام الناس
وعبر عنها ، وخيل الى الكثيرين أنه قادر على أن يزيل
تلك الآلام برأى أو نصيحة أو توجيه ، كان يزهو فى بدء
حياته اذ يرى نفسه محلا لثقة أصدقاء وصديقات
لايعرف أسماءهم ٠٠ يكتبون اليه ويبثونه مايكوى
أرواحهم من آلام ويسألونه رأيه ، ولكنه تبين أنه استطاع
شفاء أولئك الاصدقاء والصديقات من آلامهم أو التخفيف
عنهم بشعره الذى كان ينظمه من عصارة قلبه وينشره
على الناس ، فلما تألم ذات ليلة وهو جالس فى حديقة
ذلك المنزل لم يجد الى جانبه واحدا ممن أحس بآلامهم
فحنا عليهم ورفه عنهم ٠٠ خيل اليه ليلتئذ وهو يشاهد
السيارات صاعدة الى الاسكندرية أو هابطة منها الى القاهرة
فى الطريق الذى يطل عليه بيته أن الكثير من تلك
السيارات يحمل بعض أولئك الاصدقاء والصديقات وقد
شفيت أرواحهم فبدأوا يستمتعون بالحياة ، وآمن بأنه
لايجب أن يطمع فى أن يقف واحد منهم بباب بيته
ليسأل عنه ٠٠ لان أحدا منهم لم يكن يعرف أين يقيم ٠٠
لقد عاش معهم — فى ماضيهم — بشعره عندما كانوا

يتألمون .. فلما زالت آلامهم أصبح الشعر والشاعر ذكرى يعملون على التخلص منها ..

ولما صارحه أصدقاؤه عقب وصوله الى نيويورك بأن المرأة الامريكية لاتعرف الحب كما تعرفه العربيات اطمأنت روحه لانه كا قد اعتزم هو الآخر أن يتحرر من ماضيه .. من تلك الذكريات التى طاردته فى عنف وقسوة ، وخيل اليه عقب اقامته فى ذلك الفندق الضخم الذى يطل على «الافينيو الخامس» ـ أوسع شوارع العالم وأكثرها ضجة وأكثرها احتشادا بالناس والسيارات ـ خيل اليه أن نساء العالم الجديد لايعرفن الحب لانهن لايعرفن الألم ، وانهن اذا كن قد اعتدن أن يتعاطين كؤوس الخمر مبكرات قبيل غروب الشمس فانهن لايذبن فى تلك الكؤوس آلامهن كما تفعل باقى نساء العالم وانما يذبن الفائض من الدولارات التى تتخم حقائبهن ، كما خيل اليه أن الضحكات المرحة التى كانت تطلقها حناجرهن كلما أفرطن فى الشراء انما تعبر عن فرحهن بأنهن استطعن التخلص من كمية أخرى من تلك الدولارات التى لايعرفن أين ينفقنها ..



وجلس ذات ليلة فى مقصف ذلك الفندق وأمامه

كأس طال عليها الأمد دون أن تفرغ . ومر به الساقى الاسبانى الذى كان قد عرف أنه عربى فلما رآه وحده سأله فى رقة :

ـ أين تعتزم قضاء عطلة آخر الاسبوع ياسيدى ؟

وفكر برهة ثم هز رأسه وأجاب :

ـ لا أدرى ، لم لا أقضيها هنا ؟

ـ فى نيويورك ؟ ستجدها خالية تكاد تنعى من بناها ، ألا تقضون هذه العطلة بعيدا عن المدن الكبرى فى الشرق ؟

وتذكر اذ ذاك منزله الخلوى القائم على الربوة العالية التى تشرف على الصحراء من جهة وعلى ترعة المريوطية من جهة أخرى وهز رأسه كأنه يطرد تلك الذكرى ، ثم قال للساقى :

ـ كأسا أخرى أرجوك ـ وأجاب الاسبانى بالتعبير الامريكى المعتاد فى هذه المناسبة :

ـ أهلا وسهلا ياسيدى .

ولحظ «هو» أن الساقى كان ينظر الى مائدة أخرى ، وارتفع صوت ناعم يقول :

ـ كأسين ..

والتفت اذ ذاك فوجد سيدة تجلس وحدها الى مائدة مجاورة ·· شقراء فى الثلاثين ، فارعة العـود ، فاتنة القسمات ، أنيقة أناقة تبهر البصر ···

وأدنت ابتسامة خفيفة ما بين المائدتين من مسافة ··

وكأسان آخريان ·· تلاشت بعدهما تلك المسافة ، والتصق مقعدان ، ثم التصق كأسان ضاع رنينهما وسط ضجة القوم الذين اجتمعوا ليلتئذ فى «غـرفة البلوط» بذلك الفندق الكبير ··

وبدأ همس خافت :

ـ عربى ؟

ـ أجل ·· وأنت ·· أمريكية ؟

ـ طبعا ، ألا ترانى أتحدث اليك أمام هـذا الجمع الذى يعرفنى معظمه دون أن أهاب مايهابه غيرى ؟

ـ مم يهاب غيرك ؟

ـ من ألسنة الناس ؟ ان أهل نيويورك يعرفون أننى برغم مظاهر الثراء والترف التى تحيطنى أعيش حيـاة تعسة ··

لماذا ؟

لأننى لاأحب زوجى ·· انه يكبرنى بنحو عشرين

عاما ، وهو يبيع أفخر أنواع الحرير الى الملايين من الناس لينعموا بالنوم عليه بينما أقضى أنا ليالى أتقلب على ماهو أقسى من الشوك ..

ـ انك شاعرة ..

فضحكت ثم قالت وهى تدنى وجهها من وجهه :

ـ وأنت ماذا تفعل فى مصر ؟

ـ أكتب شعرا وأبيعه للناس كما يبيع زوجك الحرير ..

ـ بينما زوجتك لا تحس نعيم الحياة الشاعرية التى تعيش فيها قارئاتك ..

ـ لم أتزوج بعد ..

ـ ولم تحب ؟

فتلفت حوله .. كانت «غرفة البلوط» قد أحتشدت بالناس ، وعلا ضجيجهم حتى أصبح من العسير عليها أن تسمع كلماته الا اذا ألصق فمه بأذنها .. فأجابها :

ـ ان الحديث عن الحب لا يحلو فى هذا الصخب .. ألا تعرفين مكانا آخر ؟

ـ أعرف كهفا تحت الارض فى الفندق المواجه .

ـ هيا بنا .

ـ لا .. اسبقى وأنا أتبعك بعد قليل .. قلت لك أن معظم من تراهم يعرفوننى ..

ـ ولكننى سمعتك أيضا تقولين انك لا تهابين السنة الناس .

ـ بدأت أهابها منذ عرفت أنك شاعر .. وأننى سأفضى اليك بآلامى علك تخفف عنى .. من يدرى ؟

ربما استطاع عربى مثلك قدم من الصحراء القاحلة أن يشفى نفس أمريكية عز عليها الشفاء وسط هذه الحضارة الصاخبة .

★★★

وعندما كان يعبر « الافينيو الخامس » الى فندق « شيرى نيزرلاند » حيث اتفقا على اللقاء أحس بأن روح هذه الصديقة التى لم يعرف بعد اسمها تنطوى على آلام لاتفترق عن آلام الصديقات المجهولات اللاتى خلفهن فى مصر .. واللاتى أوحين اليه بكل ماقدم للناس من شعر .

كان الالم يطارده ، كأن بينهما ثارا قديما .. فقد تبعه حتى الى البلاد التى صهرت الالم وأحالته الى ذهب وفولاذ وموسيقى ورقص ...

وجلس الاثنان على أريكة من أرائك الكهف الذى أعد للهاربين من الحياة على الارض أو فوق ناطحات السحاب ..

وقصت عليه «فيوليت» قصتها .. انها من أسرة انجليزية نبيلة .. هاجر أبوها الى أمريكا وهى بعد طفلة فتلقت تعليمها هناك ..

وعرفت طبيبا أمريكيا على ظهر باخرة كانت تعبر المحيط بين أوروبا وأمريكا ثم تزوجته ولكنها سرعان ما تبينت أنه لم يكن الرجل الذى يستطيع أن يسعدها فأحبت غيره ، وتمردت على الاوضاع الاجتماعية فعاشت مع ذلك العشيق فى كوخ على شاطىء البحر فى «لونج ايلاند» وعلى ظهر مركب من مراكب الصيد التى تجوب شواطىء كوبا ، وفى فندق خلوى من الفنادق المتسلقة جبال المكسيك ، أحبته حبا جنونيا أنساها كل شىء .. لانه جرف أمامه كل شىء ، وفجأة استيقظت من تلك النشوة على الحقيقة الهائلة ، فان أسرة ذلك العشيق لم تقبل أن تحمل اسمها امرأة اجترأت على ما اجترأت عليه «فيوليت» ، وتقدم اذ ذاك ملك عجوز من ملوك المال يعرض اسمه ويطلب يدها فقبلته ، خيل اليها ــ للمرة الثالثة ــ أنها تستطيع أن تستعيض عن الحب والشباب

بالمال والجاه العريض ·· ولكنها لم تستطع أن تقاوم الثورة التى اندلعت نيرانها فى أعماق روحها الشابة فاستسلمت لها ·· كان فى نظراتها شرر ولهب ·· وكانت الكلمات التى تندفع من شفتيها المتلظيتين حمما وسعيرا ·· واستمع «هو» الى قصة تلك الامريكية الفاتنة، ثم ربت على كتفيها فى رفق وقال لها :

ـ عشت معى هذه الليلة فى ماض مر وانقضى ·· كل ماأستطيع أن أنصحك به هو أن تسدلى على هذا الماضى ستارا ·

فأطرقت ثم تمتمت : وهل يمكن الهرب من الماضى ؟

ـ أجل ، سافرى ·· ارحلى من هذه البلاد التى شهدت خيبة غرامك ··

ـ الى أين أرحل ؟

ـ الى جزيرة «جوتلند» السويدية فى بحر البلطيق ·· الى «الغابة السوداء» فى ألمانيا ·· الى «الساحل اللازوردى» فى جنوب فرنسا ·· الى «مونت كارلو» ··

ـ أوه ·· اننى أهاب ركوب الطائرات ··

ـ ماذا تقولين لو صحبتك الليلة الى «مونت كارلو» سيرا على الاقدام ؟

ـ كيف ؟ أجننت ؟

ـ تعالى معى ..

وتأبط ذراعها ثم اجتازا شوارع نيـورك الى ملهى «مونت كارلو» ..

وعزفت الموسيقى قطعة «هناك ذهب قلبى» فراقصها، ولما ألصقت وجهها بوجهه سمعها تهمس :

ـ ماذا فعلت بى ؟ مازالت كلماتك ترن فى أذنى .. أريد الآن أن أطيعك وأهرب من الماضى .. الى أقصى العالم .. لقد سمعت الساقى الاسـبانى فى «غـرفة البلوط» يسألك عن المكان الذى ستقضى به عطلة آخـر الاسبوع فأجبته بأنك ستقضيها هنا ، فى هذه المدينة التى لا شعر فيها ولا عاطفة ، أتقبل أن نهـرب معا من ماضينا ؟

ـ الى أين ؟

ـ لاتسألنى .. سأمر غدا عند الفجر بباب الفندق لآخذك ثم .. نهرب معا ..

★★★

ومرت «فيوليت» بسيارتها فى الموعد الذى حددته وانطلقت السيارة بهما ..

مرت على غابات وهضبات ومزارع وسهول ·· ولما وصلت الى مفترق طرق فى أعلى جبال «بوكونو» قرأ «هو» على لوحة تشير الى أحد هذه الطرق مافهم منه أنه يؤدى الى مكان اسمه «أرض الميعاد» فرجاها أن تسلك ذلك الطريق ·

وصعدت «فيوليت» بسيارتها هضبة عالية يتوسطها الطريق الى «أرض الميعاد» وهى بقعة تكسوها الخضرة وتطل على بحيرة ·

وقضى الاثنان فى هذا المكان يوما بأكمله ·· بين السباحة فى ماء البحيرة ، وصيد السمك من قارب والجلوس على الشاطىء ، والاستمتاع بالحديث العذب الشهى ·· فلما أقبل موعد الغداء أسرعت «فيوليت» الى سيارتها وعادت بما كانت قد أعدته بيديها من غداء لصديقها ، وبعد أن انتهيا من الغداء استلقت على الرمال ووضعت رأسها على ساقه ثم أطالت النظر الى عينيه وهى تتمتم :

ـ أننى أحبك ·· وأحس أنك لو شئت لتبعتك الى حيث تريد ، ولكننى مع ذلك لاأريد أن أحرمك من أن تتمتع بهذه الحياة الامريكية الى أقصى حد ·· حرام أن تستأثر بك امرأة واحدة ·· لاتتردد فى أن تصارحنى

.. انك شاعر ومن حقك ، بل من حق الناس عليك أن تعيش حرا ؟

وأدار بصره الى حيث أشارت ، وهو يداعب شعرها الذهبى .. وفجأة سمع صوت موسيقى وغناء يحمله هواء الليل من بعيد ، فلم يصدق أذنه فى بادىء الأمر لأن الموسيقى التى سمعها كانت شرقية صميمة والاغنية كانت أغنية يحفظ كلماتها عن ظهر قلب ، طالما عطرت منزله الخلوى الذى كان يقوم على ربوة عالية تطل على صحراء مصر الغربية ، وأرهف السمع فحمل اليه هواء « أرض الميعاد » صوت أم كلثوم يرتل أنشودة «ابتسام الزهر» ويردد :

« م البعاد أسهر أدادى » ..

وفى حركة آلية رفع يده التى كانت تداعب شعر «فيوليت» ثم أخذ يجيل بصره فى المكان .. لم يجد أحدا .. وخيل اليه أنه قد أصيب بمس من الجنون .. فأخذ يتمتم بلغته : «ماهذا» ؟

وسألته هى فى حنان دون أن تفهم شيئا .

ــ ماذا تريد ياحبيبى ؟

ولم يقــو اذ ذاك على آن يكتم سبب اضــطرابه ،

فأشارت عليه أن يتجها الى مصدر الصوت ، ولما وصلا اليه ، وجدا أسرة أمريكية من أصل سورى تقضى عطلة آخر الاسبوع فى نفس المكان ، وتستمتع باحدى «الاسطوانات» العربية ٠

وحاول أن يقاوم ليلتئذ لكى يبدو وكأن شيئا لم يحدث ولكنه لم يوفق ٠٠ وتلقى فى صباح اليوم التالى هذه الكلمات :

« أشكر لك من كل قلبى نصيحتك لى بأن أهرب من ماضى ، فقد أخذت بهذه النصيحة واستطعت أن أهرب من ذلك الماضى الى جانبك ونحن فى أرض الميعاد وعلى بعد بضع ساعات من ذكريات ذلك الماضى ، أما أنت فقد خيل اليك أنك هربت من ماض أجهله بعبورك المحيط الى هذه البلاد ٠٠ ولكن هذا الماضى تبعك وطاردك ٠٠ لاتيأس ٠٠ انك أقوى ياحبيبى من هذا الماضى ، أنا واثقة من ذلك برغم أن صلتى بك لاتعود الى أكثر من أيام ٠٠ نصيحتى أنا اليك أن تعود الى هذا الماضى حيث تركته ، فاذا تغلبت عليه هناك فثق أنك ستجدنى فى انتظارك» ٠٠٠

امرأة ذات صيف

امرأة ذات صيف

كان القطار القادم من باريس يتهادى فى طريقه بين مارسيليا و «كان» مساء ذات يوم من أيام شهر أغسطس الماضى • وكان «هو» قد جلس فى احدى غرف ذلك القطار يقتل الوقت بقراءة صحيفة مصرية أخرجها من حقيبته • ولكنه لم يستطع أن يغالب الرغبة فى التطلع بين لحظة وأخرى الى وجه الفتاة التى كانت تجلس فى المقعد المواجه له • لم يجد كبير عناء فى أن يتبين أنها باريسية • أقبلت لتقضى أجازة الصيف على الشاطىء اللازوردى •• كان عطر «امرأة» الذى فتن به نساء باريس يضفى على الغرفة جوا من الشعر

والحنان . وكان السوار الفضى الضخم الذى ذكره بقيود المسجونين فى مصر ، يزين معصمها ويوحى اليه كلما اختلس نظرة اليها بسؤال واحد : «لمن أعد هذا القيد ؟ لها أو له ؟ ومن هو ؟» ان فى حياة كل امرأة باريسية رجلا . وقد أحس صاحبنا أن الرجل فى حياة رفيقة القطار قد اكتسحها فى عاصفة هوجاء . فانها كانت شاردة الفكر .. كانت تمد أصابعها المتشنجة الى القيد الفضى الذى التف حول معصمها ، بين فترة وأخرى كأنها تطمئن الى أنها لاتزال فى الأسر .

★★★

واقترب القطار من محطة «كان» وأحست رفيقة القطار أنها يجب أن تغادره فنهضت متثاقلة وأخذت تعد حقائبها . ووجدت «هو» فرصة سانحة فاقترب منها ليعينها على اعداد الحقائب وجمع شجاعته ثم سألها :

ــ هل أستطيع أن أفتح النافذة لكى أعطى هذه الحقائب للحمال ؟

ــ أجل . شكرا .. ثم نظرت الى وجهه برهة واستمرت تسأله : أتعرف «كان» من قبل ؟

ــ لا . انها زيارتى الأولى لها .

ــ اذن فسوف تحبها كثيرا .

ــ وأنت ؟

ــ أوه . انني أعرفها كما أعرف الحى الذى أقطنه . ماهو الفندق الذى ستنزل به ؟

ــ «المارتينيز» .

ــ انه نفس الفنـــدق الذى حجزت فيه غـــرفة مدة اقامتى هنا وتنهدت ثم أشاحت بوجهها تحاول أن تخفى ألما دفينا .

وكان القطار قد توقف تماما عن السير . فاستدعى «هو» حمالا سلمه حقائب رفيقة القطار ، وآخر عهد اليه بحقائبه ، وغادرا محطة «كان» سويا . ثم استقلا احدى سيارات الاجرة وانطلقت بهما الى «الكروازيت» وهـــو الطريق الكبير المطل على شاطىء البحر الابيض المتوسط ، والذى تقع فيه أكبر فنادق هذا الثغر الفرنسى الرشيق . خطر له أكثر من مرة أن يسألها عن اسمها ولكنه احترم ألمها فلم يفعل . ووقفت السيارة أمام باب «المارتينيز» ونزلا منها ثم اتجها الى الموظف المكلف باستقبال النزلاء . فتركها تتقدمه ووقف خلفها ينتظر .. وسمعها تقول :

ــ اننى الآنسة ايفون .. لقـــد حجزت من باريس الغرفة رقم ٢٠٥ .

وفتح الموظف دفتره . وبعـد أن ألقى نظرة عليه أجابها :

ـ أجل . لثلاثة أسابيع .

وتقدم «هو» فلاحظ أنها لم تبتعد عن المنصة الخاصة باستقبال النزلاء ولم تتبع الحمال الذى كلف نقل حقائبها الى الغرفة ، بل انتظرت حتى سمعت رفيق القطار يذكر اسمه . وعرف أنه حجز الغرفة رقم ٤٤٤ ليوم واحد .

ـ انك أجنبى ؟

ـ أجل . مصرى .

ـ ولم تغادر «كان» غدا ؟

ـ لأننى سأعود الى الاسكندرية بعد غد .

ـ وكيف يتسنى لك أن تتذوق جمـال هـذا الثغر الجميل فى ليلة وبعض يوم ؟

ـ قالت لى انك قد سبقت لك زيارتها مرات عديدة . اننى أعتمـد عليـك فى أن نقضى الليـلة منتقلين بين ملاهيها .

ـ لم أكن أتوقع أن أغادر الفندق الليلة مع رجـل

لا أعرف عنه شيئا ولم تكد تنقضى ساعتان على سماعى اسمه · أتعرف لم أقدمت على هذه المغامرة ؟

ــ أتعرفين أنت لم ألحت فى أن أدعــوك للخروج الليلة معى برغم التعب الذى يحس به كلانا ؟

ــ لست أدرى ·

ــ لاننى شعرت بثقل الهموم التى تحملينها منذ غادر القطار باريس ، فخيــل الى أنك لو أفضيت لى ببعضــها لفرجت عن نفسك ·

دار هذا الحديث بينهما تحت شجرة من أشجار حديقة ملهى «تريانون» بينما كانت جموع الراقصين والراقصات تدور فى الحلقة الضيقة على أنغام قطعة موسيقية هادئة من قطع التانجو ، واستمرت ايفون وهى تكاد تلهث :

ــ ولقــد اخترتك أنت بالذات لاننى علمت أنك راحل غدا ·

انى لأود أفضى بسر شخص يحتمل أن ألقــاه فى «كان» أو فى باريس لاننى أحاول أن أنسى هذا الألم ، أو أتناساه · ان لألمى قصة طويلة سأروى لك طرفا منها الليلة ·

وهى أسرة محافظة من بريتانى ـ فعجز . وأحس أنه لو تحدى تلك الأسرة لعاشت هى شقية بذلك الزواج .

وتلقت ايفون الصدمة صاغرة .. ولكنها حطمت كيانها .

وانهمرت الدموع من عينيها الواسعتين .. ورأى هو أن ينتقلا من ملهى «تريانون» وأن يغير مجرى الحديث . فقال لها :

ـ ألم نتفق على أن تريني ملاهى «كان» كلها فى ليلة واحدة وانتقلا الى ملهى «الباستيد» ولكنها عادت تتحدث عن غرامها الذبيح .. وثمل الاثنان . وتنقلا بين بضعة ملاه ومراقص حتى طلع الفجر فعادا الى الفندق . ولم يكن صبي المصعد موجودا فوضع «هو» أصبعه على الزر الذى يشير الى الطابق الرابع حيث الغرفة ٤٤٤ فلم تتكلم ، ولكن المصعد لم يكد يصل الى ذلك الطابق حتى فتحت الباب ومدت يدها تصافحه وهى تقول :

ـ لقد أوصلتك الى هذا الطابق لاطمئن عليك .. الوداع ..

ـ لم لا نتناول طعام الافطار معا ؟

وأخذت ايفون تروى قصتها .. انها فتاة من أسرة باريسية طيبة . أحبت رجلا حتى العبادة وبادلها الحب . وعاشا معا نحو سبعة أعوام . كان لايمكن أن يذهب الى عمله قبل أن يراها . وكانت لاترى خارج منزلها الا متأبطة ذراعه . ولا تتذوق للرقص معنى الا اذا ضمها الى صدره . ولا تحس للقـراءة لذة الا اذا اختار لهـا الكتاب ، ولا تحب أن تشاهد فيلما أو مسرحية الا اذا كان الى جانبها . وكانت تأمل ـ ككل امـرأة ـ فى أن تحمل اسمه . وظل هذا الأمل يعزيها تلك الاعوام السبعة عن كل صدمة صادفتها . فقد تقدم اليها أكثر من شاب يطلب يدها ولم تجد أسرتها فيـه مايبرر الاعتذار عن قبوله ، ولكن ايفون كانت ترفض . لانها كانت تتصور أن عذاب الجحيم أهون من أن تعطى نفسها الى رجل غيره . الى أن صارحها ذات يوم بأن الفارق الدينى الذى كان يفصله عنها والذى عاق زواجه منها ، لم يعد فى مقدوره أن يتغلب عليه . وانه اعتزم أن يقبل منصبا فى السلك السياسى الفرنسى بالشرق الأقصى لكى يقضى حياته بعيدا عن باريس وعن الحى الذى شهد غرامهما سبعة أعوام . وتبينت ايفون أنه لم يخـدعها ، وانه حاول بكل مافى طاقته أن يمهد لادخالها فى أسرته .

ـ لاتحاول عبثا ٠٠ اننى مازلت أحبه ٠٠ الوداع ٠

فابتسمت فى سخرية وقالت :

ـ اكتبى الى على الأقل ٠٠ سأكون قلقا بعد عودتى على مصيرك ٠٠ هذا هو عنوانى ٠

فتناولت بطاقته ثم أغلقت الباب ، وهبط بها المصعد الى الطابق الثانى ٠٠

وانتظر رسالة من ايفون فلم تكتب ٠٠

★★★

وعاد «هو» الى مصر ، وبعد بضعة أسابيع دهش اذ تلقى مظروفا حولته اليه مجلة باريسية يتضمن بضع رسائل من سيدات يجبن على اعلان نشر بتلك المجلة ،وقد تبين فيما بعد أن صديقا له أراد أن يمزح معه فنشر فى تلك المجلة أن شابا أجنبيا يرغب فى التراسل مع فتاة تهوى الأدب والمسرح ، وكتب فى الاعلان أن الرسائل توجه الى ادارة المجلة وذكر اسمه «هو» وطلب من إدارة تلك المجلة أن تحول الردود الى عنوانه بمصر ٠

وزادت دهشته عندما وجد رسالة من ايفون الى ذلك الرجل المجهول الذى نشر الاعلان تذكر فيها وصفا لشكلها ولون عينيها وشعرها ، وانها مستعدة لان تدفع «دوطة» قدرتها ، وأرفقت بالرسالة صورتها وذيلتها

بعنوانها : الغرفة رقم ٢٠٥ بفندق «مارتينز» • وقد بعثت بردها دون أن تدرى أنهـا تكتب الى الرجل الذى صحبته فجر ذات يوم الى باب غرفته ثم أبت أن تتناول معه طعام الافطار ••

★★★

وانقضت بضعة أسابيع أخـرى وتلقى رسالة من «كوبنهاجن» ذكرت فيها ايفـون أنهـا تزوجت مهندسا دانمركيا ، وأنها غادرت باريس لتعيش معه فى وطنه •

وتبين «هو» أن ايفون كانت تتابع اعلانات الزواج التى اعتادت أن تنشرها الصحف الفرنسية ، وأنها كانت تجيب عـلى بعضـها ، الى أن عثرت على ذلك المهنـدس الدانمركى الذى أغرته «الدوطة» فتفاهما وتزوجا ••

لقد حطم العذاب أعصابها ، فلم تحاول قط بعد أن خاب غرامها ، أن تحب مـرة أخـرى •• ورأت أن خير مايعزيها هو أن «تشترى» رجلا ، أى رجل ، فاشترته ••

تم بحمد الله

الفهرس

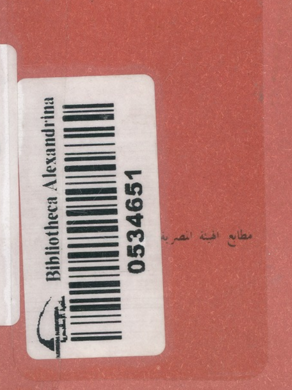
المقدمة ٧
الحب الاصفر ١٧
الراقصة المحبوبه ٧٥
شقراء كفر الدوار ٨٩
وضحية أخرى ١١١
غاده « أبو حمر » ١٣١
ابنة الشارع ١٥١
لك يا زمان العجب ١٨١
قبله ذات ليلة ١٩٩
مطربه ماتت ٢١٧
نصف أرملة ٢٤٩
دعيني أحبك ٢٦٧
شبح اللقاء ٢٩٣
المتشردة ٣١٧
الليلة .. والا فلا ٣٤١
ابتسام الزهر ٣٥٥
امراة ذات صيف ٣٦٩

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٣/٤٤٨٧

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٢١١ ـ ٣

«إن نساء ورجال هذه القصص عاشوا ماضيهم ـ فى الحياة الواقعة ـ يحملون أسماء أخرى غير الأسماء التى أطلقت عليهم فى هذا الكتاب ، فى أماكن أخرى غير الأماكن التى أشير إليها فيه . وقد عمل كل منهم بوسيلته الخاصة على الهرب من ذلك الماضى . وإذا كان من حق القراء أن يطلعوا ـ للعبرة ـ على هذه الألوان من الحياة المصرية منذ بضعة أعوام، من حق هؤلاء الهاربين من الماضى أن يُقدم ماضيهم فى الإطار الذى يحفظ له حرمته»



مطابع الهيئة المصرية

٢٣٠ قرشا